دكتور محمد عثمان نجاتي

القرآن وعلم النفس



دار الشروق

القرآن وعلم النفس

الطبعة الثانية

(مُنقّحة)

١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

بسم الله الرحمن الرحيم

القرآن وعلم النفس

الطبعة الثانية
(مُنقّحة)

تأليف

الدكتور محمّد عُثمان نجاتي
استاذ علم النفس بجامعة القاهرة
وجامعة الكويت
وجامعة الإمام محمّد بن سعُود الإسلاميّة

دار الشروق
١٩٨٥

تصدير الطبعة الأولى[1]

يرجع اهتمامي بموضوع « القرآن وعلم النفس » إلى حوالى أربعين سنة مضت ، وذلك حينما كنت أعد رسالتي للماجستير في موضوع « الإدراك الحسي عند ابن سينا » في الفترة من عام ١٩٣٩ إلى عام ١٩٤٢ . فلقد رأيت أنه من الضروري لفهم آراء ابن سينا في علم النفس الرجوع إلى جميع ما كان معروفاً قبل عصر ابن سينا من مفاهيم وآراء ودراسات نفسية مختلفة . ولذلك تعرضت في مقدمة الرسالة إلى بعض المفاهيم النفسية التي وردت في القرآن الكريم والحديث الشريف كمصدرين من المصادر التي أثرت في بعض آراء ابن سينا وخاصة في موضوع الإدراك الحسي واكتساب المعرفة والأحلام والرؤى .

ثم عدت إلى الاهتمام بهذا الموضوع مرة أخرى حينما قمت بإلقاء محاضرة في موضوع « القرآن وعلم النفس » في جمعية المعلمين بالقاهرة في إحدى أمسيات رمضان في حوالى منتصف الستينات على ما أستطيع أن أتذكر . ثم ألقيت محاضرة أخرى في نفس الموضوع في الموسم الثقافي لمدرسة الشويخ الثانوية بالكويت في عام ١٩٦٦ ، ونشر ملخص لهذه المحاضرة في كتاب «الجامعة والمجتمع» الذي أصدرته جامعة الكويت في العام الجامعي ١٩٦٦ / ١٩٦٧ .

وكنت طوال هذه المدة مشغولاً بالتدريس والبحث والتأليف والإشراف على بحوث تلاميذي للحصول على درجتي الماجستير والدكتوراه في علم النفس ، ولم تتيسر لي الفرصة الكافية للتفرغ لدراسة المفاهيم النفسية في القرآن الكريم دراسة شاملة وعميقة . وحينما أوشك القرن الرابع عشر الهجري على الانتهاء ، وأخذ العالم الاسلامي يستعد للاحتفال باستقبال القرن الخامس عشر الهجري بإعداد البحوث والدراسات ، وإقامة الندوات والاحتفالات ، شعرت بأنه قد آن الأوان لكي أتفرغ لدراسة المفاهيم النفسية في القرآن الكريم ، ولإعداد كتاب

في هذا الموضوع احتفالاً باستقبال القرن الخامس عشر الهجري . وقد حصلت على اجازة تفرغ علمي من جامعة الكويت خلال الفصل الدراسي الأول من العام الجامعي ١٩٨٠ / ١٩٨١ م ، استطعت فيها أن أجمع الجزء الأكبر من البيانات التي تضمنها هذا الكتاب . وإني انتهز هذه المناسبة لكي أقدم جزيل شكري إلى جامعة الكويت التي هيأت لي فرصة التفرغ لإنجاز هذه الدراسة التي طالما كانت تراود اهتمامي في السنوات الماضية ، والتي طالما كنت أتمنى أن أقوم بإنجازها .

كما أني أود أيضاً أن أقدم جزيل الشكر والامتنان إلى جميع السادة الكتاب الذين قرأت لهم واستفدت من آرائهم ، والذين أشرت إليهم في هوامش الكتاب وفي قائمة المراجع في آخر الكتاب .

وإني لأحمد الله سبحانه وتعالى على أن مكنني أخيراً من إعداد هذا الكتاب . وإني لأرجو أن أكون قد وفقت في عرض المفاهيم النفسية التي وردت في القرآن الكريم ، وفي المقارنة بينها وبين مفاهيم علم النفس الحديث .

١٣ من رمضان ١٤٠١ هـ
١٤ من يوليه ١٩٨١ م

محمد عثمان نجاتي

تصدير الطبعة الثانية

أحمد الله تعالى على ما لقي هذا الكتاب في طبعته الأولى من اهتمام كبير من كثير من المهتمين بالتراث الإسلامي بعامة ، وبعلم النفس الإسلامي بخاصة . وقد كان ما قوبل به هذا الكتاب من اهتمام حافزاً لي لمواصلة البحث في هذا المجال ، ودافعاً لي إلى استكمال البحث في الأصول الإسلامية لعلم النفس في القرآن الكريم ، والحديث النبوي الشريف ، ولدى المفكرين المسلمين . وإني لأدعو الله سبحانه وتعالى أن يوفقني في القيام بهذه المهمة ، وأن يعينني بمدد منه تعالى على أدائها ، إذا شاء تعالى أن يكون لي في العمر بقية تمكنني من القيام بها .

وقد أُدخل في الطبعة الثانية من هذا الكتاب كثير من التنقيحات والإضافات . فقد أضيفت بعض الآيات القرآنية ، كما أضيفت تعليقات وتحليلات ومقارنات جديدة في معظم فصول الكتاب .

وقد أتيحت لمؤلف هذا الكتاب فرصة التحدث عن بعض الموضوعات التي تناولها هذا الكتاب في عدة ندوات . وكانت التعليقات والمناقشات التي أعقبت حديثي مفيدة لي . وإنه ليسرني أن أتقدم بجزيل الشكر لكل من أبدى ملاحظة أو تعليقاً أفدت منه ، من بين السادة الزملاء الأفاضل الذين حضروا هذه الندوات .

ولا يفوتني أيضاً أن أتقدم بجزيل الشكر إلى الصديق العزيز الأستاذ الدكتور عبد العزيز كامل على ما أبداه من ملاحظات قيمة على بعض النقاط الواردة في الكتاب .

كما أتقدم أيضاً بجزيل الشكر إلى مؤسسة التقدم العلمي بالكويت على تقديرها لهذا الكتاب ولكتابي السابق «الإدراك الحسي عند ابن سينا : بحث في علم النفس عند العرب» ، إذ منحتني عليهما جائزتها لعام ١٩٨٣ م المخصصة لتحقيق التراث .

وأخيراً أرجو أن أكون قد وفقت في تلافي بعض نواحي القصور التي وردت في الطبعة الأولى من الكِتاب ، وإن كنت أشعر أن الكِتاب لا زال في حاجة إلى مراجعة مستمرة ، وإلى إضافات كثيرة أرجو أن أستطيع تحقيق بعضها في الطبعات التالية إن شاء الله .

وإني لأدعو الله سبحانه وتعالى أن يجعل هذا الكِتاب قربة إليه تعالى ، وأن يجعله لي يوم لقائه نوراً يثقل به ميزاني ، إنه سميع مجيب .

١٠ من شوال ١٤٠٤ هـ
٩ من يوليو ١٩٨٤ م

محمد عثمان نجاتي

المحتويات

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

مُقَـــدّمَـــة

إن القرآن الكريم كتاب دين وهداية أنزله الله سبحانه وتعالى على النبي محمد صلوات الله عليه وسلامه للناس كافة ، يخاطب فيه عقل الإنسان ووجدانه ، ويعلمه عقيدة التوحيد ، ويزكيه بالعبادات ، ويهديه إلى ما فيه خيره وصلاحه في حياته الفردية والاجتماعية ، ويرشده إلى الطريق الأمثل لتحقيق ذاته ، ونمو شخصيته ، وترقي نفسه في مدارج الكمال الإنساني حتى يستطيع أن يحقق لنفسه السعادة في الدنيا والآخرة .

« هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ »(1)

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ »(2)

« .. وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ »(3)

« كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ »(4)

« هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ »(5)

---

(١) الجاثية : ٢٠ .
(٢) يونس : ٥٧ .
(٣) النحل : ٨٩ .
(٤) البقرة : ١٥١ .
(٥) الجمعة : ٢ .

وقد حث القرآن الكريم الناس على السير في الأرض وملاحظة ما في الكون من مخلوقات ، والنظر والتفكير في السماوات والأرض وما فيها من خلق الله حتى يستطيعوا أن يستدلوا مما يرونه من بديع الصنع والخلق على وجود المبدع الخالق سبحانه وتعالى .

« قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ .. »(١)

« أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ .. »(٢)

« قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .. »(٣)

وقد عنى القرآن الكريم عناية كبيرة بحثّ الناس على التعلم وتحصيل العلم . ولا أدَلّ على ذلك من أن أول آية نزلت من القرآن الكريم كانت تدعو إلى القراءة والتعلم ، وتشيد بشأن القلم وهو الأداة التي علّم بها الله سبحانه وتعالى الإنسان الكتابة ، وعلمه ما لم يكن يعلم من العلوم .

« اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ »(٤)

وقد أقسم الله سبحانه وتعالى بالقلم أداة الكتابة تكريماً لشأن القلم والكتابة ، وتنويهاً بفضلهما في عملية التعلم وتحصيل العلم .

« نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ »(٥)

---

(١) العنكبوت : ٢٠ .
(٢) الأعراف : ١٨٥ .
(٣) يونس : ١٠١ .
(٤) العلق : ١ – ٥ .
(٥) القلم : ١ .

وقد أشاد القرآن الكريم بفضل العلم ، وكرم العلماء ، ورفع من شأنهم ، ووضع العلم في مرتبة عالية كمرتبة الإيمان .

« .. يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ .. »(١)

« وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ »(٢)

ولا أدل على تكريم القرآن للعلم والعلماء من ذكره «للذين أوتوا العلم» قبل «الذين أوتوا الإيمان» في الآية السابقة ، ومن ذكره أيضاً «لأولي العلم» بعد «الملائكة» في الإقرار بوحدانية الله تعالى وبعدله وقدرته وحكمته في الآية التالية :

« شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ »(٣)

ومن أدلة تكريم الله تعالى للعلم وإشادته بفضله أنه جل شأنه طلب من النبي صلوات الله عليه وسلامه أن يدعوه بالاستزادة من العلم .

« .. وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا »(٤)

فالعلم والحكمة نعمتان من نعم الله العظيمة على الإنسان يخص بهما من يشاء من عباده المؤمنين الصالحين .

« يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ »(٥)

---

(١) المجادلة : ١١ .

(٢) الروم : ٥٦ .

(٣) آل عمران : ١٨ .

(٤) طه : ١١٤ .

(٥) البقرة : ٢٦٩ .

وكانت نعمة العلم والحكمة من أهم النعم التي أنعم الله تعالى بها على أصفيائه من الأنبياء والمرسلين كما أشارت إلى ذلك كثير من آيات القرآن الكريم [١] .

وحث القرآن الكريم الإنسان أيضاً على التفكير في نفسه ، وفي عجيب خلقه ، ودقة تكوينه ، وهو بذلك يدفع الناس إلى دراسة النفس ومعرفة أسرارها . فمعرفة النفس تؤدي إلى معرفة الله سبحانه وتعالى .

« وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَـٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ » [٢]

« أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى .. » [٣]

« سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ .. » [٤]

« فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ » [٥]

وفي هذا المعنى قال النبي صلوات الله عليه وسلامه : « من عرف نفسه فقد عرف ربَّه » . وقال أيضاً : « أعرفكم بنفسه أعرفكم بربه » [٦] .

وفضلاً عن ذلك ، فإن معرفة الإنسان لنفسه تساعده على ضبط أهوائها ، ووقايتها من الغواية والانحراف ، وتوجيهها إلى طريق الإيمان والعمل الصالح

(١) انظر مثلاً : البقرة : ٢٤٧ ، يوسف : ٢٢ و ٦٨ ، الأنبياء : ٧٤ ، النمل : ١٥ .
(٢) الذاريات : ٢٠ ، ٢١ .
(٣) الروم : ٨ .
(٤) فصلت : ٥٣ .
(٥) الطارق : ٥ - ٧ .
(٦) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي : معارج القدس في مدارج معرفة النفس ، ط ٢ . بيروت : دار الآفاق الجديدة ، ١٩٧٥ ، ص ٦ .

والسلوك السليم مما يهيىء للإنسان الحياة الآمنة المطمئنة ، ويحقق له السعادة في الدنيا والآخرة .

وقد تضمن القرآن الكريم كثيراً من الآيات التي تعرضت لطبيعة تكوين الإنسان ، ووصفت أحوال النفس المختلفة ، وبينت أسباب انحرافها ومرضها ، وطرق تهذيبها وتربيتها وعلاجها . وذلك أمر طبيعي في كتاب أنزله الله تعالى لهداية الإنسان وتوجيهه وتربيته وتعليمه . وكانت هذه الآيات الواردة في القرآن الكريم عن النفس بمثابة المعالم التي يسترشد بها الإنسان في فهم نفسه وخصالها المختلفة ، وفي توجيهه إلى الطريق السليم في تهذيبها وتربيتها . ومن الممكن أن نسترشد بما ورد في القرآن الكريم من حقائق عن الإنسان ، وصفاته وأحواله النفسية في تكوين صورة صحيحة عن شخصية الإنسان ، وعن الدوافع الأساسية التي تحرك سلوكه ، وعن العوامل الرئيسية لتوافق شخصيته وتكاملها ، ولتحقيق صحته النفسية ، مما يكون من شأنه أن يمهد الطريق لقيام « علم للنفس » تتفق نتائجه وحقائقه مع الحقائق الصحيحة عن الإنسان التي نستمدها من كلام الله سبحانه وتعالى خالق الإنسان ، وهو الأعلم بطبيعته وأسرار تكوينه .

« أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ »(١)

وليس هذا الكتاب الذي نقدمه الآن إلا محاولة لجمع الحقائق والمفاهيم النفسية التي وردت في القرآن الكريم ، والاسترشاد بها في تكوين صورة واضحة عن شخصية الإنسان وسلوكه ، مما يمكن أن يمهد الطريق إلى نشوء دراسات جديدة في علم النفس تحاول أن تضع الأسس لنظريات جديدة في الشخصية تتفق حقائقها ومفاهيمها مع الحقائق والمفاهيم التي وردت في القرآن الكريم عن الإنسان .

إن علماء النفس المحدثين ، بتبنيهم مناهج البحث في العلوم الطبيعية ، قد

---

(١) الملك : ١٤ .

حصروا أنفسهم في دراسة الظواهر النفسية التي يمكن فقط ملاحظتها ودراستها دراسة موضوعية ، وتجنبوا البحث في كثير من الظواهر النفسية الهامة التي يصعب إخضاعها للملاحظة أو البحث التجريبي . وبذلك أبعدوا النفس ذاتها من دراساتهم ، لأن النفس شيء لا يمكن ملاحظته ، وقصروا دراساتهم على السلوك الذي يمكن ملاحظته وقياسه . وقد نادى بعضهم بتغيير اسم « علم النفس » وتسميته « علم السلوك » ، لأن علم النفس الحديث يدرس السلوك ولا يدرس النفس . وكان من نتيجة هذا الاتجاه في تطبيق مناهج العلوم الطبيعية في بحوث علم النفس أن سادت في دراساته وجهة النظر المادية التي ترجع جميع الظواهر النفسية إلى العمليات الفسيولوجية ، والتي تنظر إلى الإنسان كنظرتهم إلى الحيوان ، بل إنهم جعلوا من دراستهم لسلوك الحيوان المدخل الطبيعي لفهم سلوك الإنسان ، مغفلين في كثير من الأحيان الاختلاف الكبير في طبيعة تكوين الإنسان الذي يتميز عن الحيوان بالروح ، وهو أمر يغفلونه في دراساتهم إغفالاً يكاد يكون تاماً .

وقد أدى ذلك إلى كثرة بحوث علم النفس التي تتناول كثيراً من أنواع السلوك الإنساني السطحي وغير الهام ، وإغفال دراسة كثير من الظواهر السلوكية الهامة في الإنسان التي تتناول النواحي الدينية والروحية ، والقيم الإنسانية العليا ، والحب في أسمى صوره الإنسانية (بعيداً عن النواحي الجنسية التي تغلب على دراسة علماء النفس المحدثين للحب) ، وأثر العبادات في سلوك الإنسان ، والصراع النفسي بين الدوافع البدنية والدوافع الروحية ، وتوافق الشخصية عن طريق تحقيق التوازن بين الجانب المادي والجانب الروحي في الإنسان ، وغير ذلك من الموضوعات التي سوف نتناولها في هذا الكتاب . ولقد لاحظ بعض علماء النفس المحدثين قصور علم النفس الحديث في دراسة النواحي الروحية في الإنسان . فقال إريك فروم Erich Fromm ، مثلاً ، وهو محلل نفسي معاصر ، إن اهتمام علم النفس الحديث « ينصب في أغلب الأحيان على مشكلات تافهة تتمشى مع منهج علمي مزعوم ، وذلك بدلاً من أن يضع مناهج جديدة لدراسة مشكلات الإنسان الهامة . وهكذا أصبح علم النفس يفتقر إلى موضوعه الرئيسي وهو الروح . وكان معنياً بالميكانيزمات وتكوينات ردود الأفعال والغرائز ،

دون أن يعنى بالظواهر الأساسية المميزة أشد التميز للإنسان : كالحب ، والعقل ، والشعور ، والقيم »[1] .

وقد فطن في السنوات الأخيرة عدد قليل جداً من علماء النفس إلى أهمية دراسة هذه الناحية الروحية من الإنسان ، وبدأت محاولات لدراسة بعض الظواهر الروحية مثل التخاطر[2] والاستشفاف[3] ، غير أن هذه المحاولات لا زالت في بدايتها ، ولم تصل بعد إلى نتائج دقيقة يمكن ضمها باطمئنان إلى مجموعة معلوماتنا الدقيقة عن الإنسان .

ولا شك أننا في حاجة إلى مزيد من الاهتمام بدراسة تراثنا الإسلامي ، مبتدئين بالقرآن الكريم ، والحديث الشريف ، ثم متتبعين تطور التفكير في في الدراسات النفسية لدى الفلاسفة والمفكرين المسلمين بهدف معرفة المفاهيم النفسية الإسلامية فهماً صحيحاً يكون هادياً لنا في دراساتنا النفسية ، وعوناً لنا في تكوين نظرياتنا الخاصة عن الشخصية الإنسانية بحيث نجمع بين دقة البحث العلمي الأصيل ، والحقائق التي وردت في القرآن الكريم عن الإنسان ، وهي حقائق يقينية لأنها صدرت عن الله تعالى خالق الإنسان .

« لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ »[4]

---

(١) إريك فروم : الدين والتحليل النفسي ، ترجمة فؤاد كامل . القاهرة : مكتبة غريب ، ١٩٧٧ ، ص ١١ .

(٢) التخاطر هو تبادل الخواطر والأفكار مع شخص آخر قد يكون موجوداً في مكان بعيد .

(٣) الاستشفاف هو إدراك الأشياء البعيدة الخارجة عن مجال الحواس .

(٤) فصلت : ٤٢ .

الفصل الأول

دَوافِـع السُّلوك في القُرآن

الدوافع هي القوى المحرِّكة التي تبعث النشاط في الكائن الحيّ وتبدئ السلوك وتوجهه نحو هدف أو أهداف معيّنة . والدوافع تؤدي وظائف ضرورية وهامة للكائن الحي ، فهي التي تدفعه إلى القيام بإشباع حاجاته الأساسية الضرورية لحياته وبقائه ، كما تدفعه إلى القيام بكثير من الأفعال الأخرى الهامة والمفيدة له في توافقه .

ويصنِّف علماء النفس المحدثون الدوافع إلى قسمين رئيسيين هما :

أولاً : الدوافع الفسيولوجية[1] ، وهي الدوافع الفطرية التي ترتبط بحاجات البدن الفسيولوجية وما يحدث في أنسجة البدن من نقص أو اختلال الاتزان . وهي تقوم بتوجيه سلوك الفرد إلى الأهداف التي تشبع حاجات بدنه الفسيولوجية ، أو تسدّ النقص الذي يطرأ على أنسجة البدن وتعيدها إلى حالتها السابقة من الاتزان .

ثانياً : دوافع نفسية[2] ، وهي الدوافع التي تكتسب بالتعلم أثناء التنشئة الاجتماعية للفرد .

الدوافع الفسيولوجية

لقد اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى الذي منح نعمة الوجود لكل مخلوق أن يودع في مخلوقاته خصائصها وصفاتها الخاصة التي تؤهلها لأداء الوظائف التي خلقها الله تعالى لها .

---

(١) وتسمى أيضاً بالدوافع الأولية .

(٢) وتسمى أيضاً دوافع ثانوية ، أو دوافع مكتسبة أو متعلّمة ، أو دوافع اجتماعية .

« رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ »[1]

«سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ»[2]

ومن بين الخصائص الهامة التي أودعها الله تعالى في طبيعة تكوين الحيوان والإنسان الدوافع الفسيولوجية . والدوافع الفسيولوجية قسمان : أحدهما ضروري لبقاء الفرد ، والآخر ضروري لبقاء النوع .

وتؤدي الوظائف الفسيولوجية وظيفة بيولوجية هامة للحيوان والإنسان ، فهي تقوم بتلبية حاجات البدن ، وتسدّ كل ما يطرأ عليه من نقص عضوي أو كيميائي ، وتقاوم كل ما يطرأ عليه من خلل أو اضطراب أو فقدان الاتزان . وهي تعمل دائماً على الاحتفاظ للبدن بقدر معينّ من الاتزان الحيوي اللازم لحفظ ذاته وبقائه . فإذا اختل الاتزان في البدن بأن قلّ الغذاء في الدم ، مثلاً ، أو قلّ الماء في أنسجة البدن ، أو زادت حرارة البدن أو برودته عن حد معين ، أو زاد التعب عن حد معين انبعثت في البدن فوراً دوافع معينة تدفع الفرد إلى القيام بالنشاط اللازم لإعادة البدن إلى حالته السابقة من الاتزان . وقد بينت الدراسات الفسيولوجية الحديثة[3] وجود ميل طبيعي في بدن الإنسان والحيوان إلى الاحتفاظ بدرجة ثابتة من الاتزان ، بحيث إذا اختلّ هذا الأتزان انبعث دافع إلى القيام بنشاط توافقي لإعادة البدن إلى حالتة السابقة من الاتزان . وقد يتم هذا النشاط التوافقي على أساس فسيولوجي بحت لا إرادة للإنسان فيه ، كما يحدث مثلاً حينما يتصبّب البدن عرقاً في درجات الحرارة العالية مما يؤدي إلى خفض درجة حرارة البدن نتيجة لتبخر العرق . أو كما يحدث حينما تدمع العين إذا دخل جسم غريب تحت الجفن ، وتؤدي الدموع إلى التخلص من هذا الجسم الغريب . وقد يتم هذا النشاط التوافقي بقيام الفرد بنشاط إرادى معين كأن يقوم مثلاً بتناول الغذاء في حالة الجوع ، أو بشرب الماء في حالة الظمأ .

---

(١) طه : ٥٠ .

(٢) الأعلى : ١ – ٣ .

(٣) قام بها وولتر كانون الفسيولوجي الأمريكي ونشرها في كتاب بعنوان « حكمة البدن » .
Cannon, W.B. *The Wisdom of the Body.* New York: Norton, 1932.

وفكرة الاتزان الحيوي هذه التي اكتشفها العلماء حديثاً قد ذكرها القرآن الكريم من قبل منذ أربعة عشر قرناً ، وذلك في قوله تعالى :

« وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ »(١)

« .. وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا »(٢)

« .. وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ »(٣)

« إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَـٰهُ بِقَدَرٍ »(٤)

« ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ »(٥)

فالإنسان – وكذلك الحيوان – مخلوق بطريقة معينة متقنة مقَّدرة تقديراً بحيث يكون على قدر معين من الاتزان . فإذا اختل هذا الاتزان تنبعث الدوافع الفسيولوجية التي تدفع الإنسان – وكذلك الحيوان – إلى القيام بأنواع النشاط التوافقي اللازم لإعادة البدن إلى حالته السابقة من الاتزان .

وقد أشار القرآن إلى هذه الدوافع الفسيولوجية الهامة ، وسوف نتناول فيما يلي ما جاء في القرآن متعلقاً بهذه الدوافع .

أولاً – دوافع حفظ الذات :

ذكر الله سبحانه وتعالى في بعض آيات القرآن أهم الدوافع الفسيولوجية

---

(١) الحجر : ١٩ .

(٢) الفرقان : ٢ . « أي قدّر كل شيء مما خلق بحكمته على ما أراد .. » . تفسير القرطبي ، جـ ١٣ ، ص ٣ .

(٣) الرعد : ٨ .

(٤) القمر : ٤٩ . في المعجم الوسيط : «القدر : مقدار الشيء وحالاته المقدرة له » .

(٥) الانفطار : ٧ . « فعدلك أي جعلك معتدلاً سويّ الخلْق» ، تفسير القرطبي ، جـ ٩ ، ص ٢٤٦ . ويفهم من معنى الاعتدال والسواء في خلق الإنسان أنه يتضمن الاعتدال والسواء بصورة شاملة لجميع تكوين الإنسان سواء في هيئته الخارجية أو في تكوينه الداخلي ووظائفه المختلفة ، أي أنه يتضمن أيضاً مفهوم الاتزان الحيوي اللازم لحفظ ذات الإنسان وبقائه .

التي تقوم بحفظ الذات وبقاء الفرد مثل الجوع ، والعطش ، والتعب ، والحرارة والبرودة ، والألم ، والتنفس .

لقد خاطب الله تعالى آدم عليه السلام وهو في الجنة مذكراً له ما هو فيه من نعيم حيث لا يؤذيه الشعور بالجوع أو العطش ، وحيث لا يعري فيخدش حياؤه وتؤذيه تقلبات الجو ، وحيث لا يشعر بحرارة الشمس حيث لا توجد شمس في الجنة ، ومحذراً له من الوقوع في شرك الشيطان الذي يريد أن يخرجه من الجنة ليهبط إلى حياة الأرض التي سيشقى فيها هو وأبناؤه بالسعي والعمل المتواصل بالصيد والحرث والزرع لإشباع دافع الجوع ، وحفر الآبار والضرب في الأرض للوصول إلى مجاري الأنهار لإشباع دافع العطش ، وصنع الملابس لاتقاء العري الذي يعرضه لتقلبات الجو ، والالتجاء إلى ظلال الأشجار والكهوف وبناء المساكن لاتقاء حرارة الشمس وبرودة الليل . قال تعالى :

« فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ »[1]

ففي هذه الآيات إشارة إلى ثلاثة دوافع هامة من دوافع حفظ الذات وهي دوافع الجوع والعطش وتجنب الحرارة (وكذلك البرودة) المفرطة . كما تشير هذه الآيات أيضاً إلى دافع حب البقاء ودافع التملك . وتعمل دوافع حفظ الذات في خدمة دافع حب البقاء ، فهي بإشباعها حاجات البدن الفسيولوجية إنما تعمل على بقاء الفرد واستمرار حياته . أما دافع التملك فهو من الدوافع النفسية التي سنتناولها فيما بعد . وقد كان دافع حب البقاء ودافع التملك مدخل الشيطان إلى نفس آدم فوسوس له : « هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى » ، فنسي آدم ما حذره الله تعالى منه وعصى أمر ربه فأكل من الشجرة .

---

(١) طه : ١١٧ — ١٢٠ .

ونجد في الآيات التالية من سورة النحل إشارة إلى بعض دوافع حفظ الذات وهي : الحرارة والبرودة ، والتعب ، والألم . قال تعالى :

« وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ۝ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ »(١)

في كهوف الجبال والخيام والبيوت يجد الإنسان سكناً يقي فيه نفسه من أذى الحيوانات الضارية ، وشر الأعداء ، وتقلبات الجو من حرارة وبرودة ، كما يجد فيها الراحة والمكان الآمن الذي يستطيع فيه النوم بعد عناء العمل المتواصل أثناء النهار . كما أن في ظلال الأشجار والتلال والجبال يجد الإنسان ملجأً يقيه حرارة الشمس ، وبالملابس التي يصنعها الإنسان يقي نفسه شدة الحرارة والبرودة ، وبالدروع التي يصنعها من الحديد يقي نفسه أثناء الحروب من أذى الأعداء وآلام الجروح .

ومما يشير إلى ان دوافع الجوع والعطش والتعب من الدوافع التي لا يستطيع أن يتحملها الإنسان عادة مدة طويلة لما تسببه له من ألم ، وما تلحقه به من ضرر ، ما وعد الله تعالى به المؤمنين من ثواب لتحملهم الجوع والظمأ والتعب في سبيل الله . قال تعالى :

« مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ

(١) النحل : ٨٠ ، ٨١ .

عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ »[١]

ودوافع حفظ الذات موجودة لدى كل من الحيوان والإنسان . وتشير الآية التالية من سورة النمل إلى دوافع حفظ الذات عند النمل مما يجعلها تتجنب ما يؤذيها ويلحق بها الضرر ويصيبها بالهلاك والدمار .

« وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ »[٢]

في هاتين الآيتين نجد إشارة واضحة إلى دوافع حفظ الذات عند النمل مما دفع نملة منها ، لعلها رئيسة مجتمع النمل أو حارسته ، إلى تنبيه بقية النمل إلى الخطر المحدق بهم لكي يدخلوا مساكنهم لاتقاء هذا الخطر .

وتشير بعض آيات القرآن إلى الأهمية الخاصة لكل من دافع الجوع وانفعال الخوف في حياة الإنسان . فكل من الجوع والخوف يلعب دوراً هاماً في حياة الإنسان . فالإنسان عادة يجد كثيراً من العناء في سبيل الحصول على لقمة العيش لنفسه وزوجه وأولاده . كما أن الخوف[٣] من الموت ، أو من المستقبل المجهول ، أو من الأعداء ، أو من غير ذلك من مصائب الدهر ، كثيراً ما يكون سبباً في شقاء الإنسان . ولذلك فقد ذكرت بعض آيات القرآن كلاً من الجوع والخوف كعاملين لهما أثرهما الخطير في حياة الإنسان . قال تعالى :

« وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ »[٤]

---

(١) التوبة : ١٢٠ .

(٢) النمل : ١٧ ، ١٨ .

(٣) سنتناول فيما بعد الخوف في شيء من التفصيل في الفصل الثاني الخاص بالانفعالات .

(٤) البقرة : ١٥٥ .

« وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ »(١)

« فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ »(٢)

ومما يبين أيضاً أهمية إشباع دافع الجوع في حياة الإنسان ، وكذلك أهمية وقاية جسمه من الأذى الذي قد ينشأ عن تقلبات الجو من حرارة وبرودة أن الله سبحانه وتعالى جعل كفارة اللغو في الأيمان إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم .

« لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ »(٣)

وأشار القرآن إلى دافع الحرارة والبرودة في قوله تعالى :

« وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ۝ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا »(٤)

فليس في الجنة شمس تجعل الإنسان يشعر بالحرارة ، كما أنه ليست فيها برودة شديدة .

---

(١) النحل : ١١٢ .
(٢) قريش : ٣ ، ٤ .
(٣) المائدة : ٨٩ .
(٤) الإنسان : ١٢ ، ١٣ .

وأشار القرآن ايضاً إلى دافع التعب . قال تعالى عن لسان المؤمنين في الجنة .

« وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ۝ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ »[1]

في الجنة دار الإقامة الدائمة لا يشعر الإنسان بالتعب والإعياء لعدم التكليف . وقال تعالى أيضاً في وصف أهل الجنة :

« لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ »[2]

أما في الحياة الدنيا حيث يشقى الإنسان في سبيل الحصول على رزقه ، وفي القيام بواجباته ومسؤولياته المختلفة فإنه يشعر بالتعب والإعياء ويحتاج إلى الراحة والنوم لكي يستعيد نشاطه وحيويته ويصبح قادراً على الاستمرار في القيام بمسؤولياته المعيشية .

« وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ »[3]

فمن آيات الله أن ينام الإنسان سواء بالليل أو بالنهار لإراحة بدنه من عناء العمل أثناء النهار ، وطلبه للرزق من فضل الله الواسع ، وقيامه بمسؤولياته المعيشية المختلفة . وفي هذا المعنى قال الله تعالى أيضاً :

« هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ »[4]

---

(١) فاطر : ٣٤ ، ٣٥ .
(٢) الحجر : ٤٨ .
(٣) الروم : ٢٣ .
(٤) يونس : ٦٧ .

« ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ »(1)

« أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ »(2)

« وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا »(3)

« وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا »(4)

وتشير هذه الآيات إلى أن الله سبحانه وتعالى جعل الليل ساتراً بسواده ليستريح فيه الناس ويسكنوا ويناموا بعد عناء العمل وكثرة الحركة والنشاط أثناء النهار . وجعل النهار مضيئاً ليتمكنوا من السعي في الأرض طلباً للرزق وللقيام بمتطلبات معايشهم . وقال تعالى أيضاً عن دافع التعب وطلب الراحة :

« وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ »(5)

« وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ »(6)

إن التعب دافع هام يدفع الإنسان إلى الراحة والنوم بعد عناء العمل أثناء النهار فتسترد خلايا بدنه نشاطها وحيويتها ، ويستيقظ الإنسان بعد النوم قوياً

---

(1) غافر : ٦١ .
(2) النمل : ٨٦ .
(3) النبأ : ٩ – ١١ .
(4) الفرقان : ٤٧ .
(5) الانعام : ٦٠ .
(6) القصص : ٧٣ .

نشيطاً قادراً على مواصلة عمله في حيوية ونشاط . ويؤدي النوم أيضاً إلى التخلص من التوتر البدني الذي ينشأ عن المخاوف التي تنتاب الإنسان ، وعن كثير من المشكلات والصعاب التي يتعرض لها أثناء حياته اليومية . يتضح ذلك مما جاء في القرآن في وصف حال المسلمين أثناء موقعة بدر حينما استولى على بعضهم الخوف . قال تعالى :

« إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ »(١)

فقد أدى نعاسهم إلى إزالة خوفهم مما أعاد إليهم حالة الأمن والاطمئنان . ويشير الله تعالى إلى أهمية النوم في حياة الإنسان بقوله تعالى :

« قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ »(٢)

فإذا كان النهار مستمراً لا نهاية له ، ولا يوجد هناك ليل يسكن فيه الإنسان ليرتاح من التعب وينام ، فهل يستطيع الإنسان أن يعيش حياة هادئة خالية من العناء والشقاء . إن في ذلك دليلاً على فضل الله تعالى ونعمته على الإنسان ، بأن جعل النهار والليل متعاقبين على الدوام ، وبأن أودع في الإنسان دافع التعب الذي يدفعه إلى النوم والراحة ليسترد نشاطه وحيويته .

والألم من الدوافع الفسيولوجية الفطرية ، وهو يدفع الإنسان إلى تجنب ما يؤذيه ويؤلمه . وقد سبق أن أشرنا إلى دافع الألم في الآيتين اللتين ذكرناهما من قبل من سورة النحل (الآيتان ٨٠ و ٨١)(٣) . ومما يشير أيضاً إلى أن الألم دافع قوي يدفع الناس إلى تجنب كل ما يؤلمهم ما جاء في كثير من آيات القرآن من تحذير الكفار والمنافقين مما يمكن أن يلحق بهم من ألم العذاب سواء في الدنيا

(١) الأنفال : ١١ .
(٢) القصص : ٧٢ .
(٣) انظر ص ٢٧ .

أو في الآخرة إن هم لم يتوبوا إلى الله ويؤمنوا به . ولو لم يكن الألم دافعاً قوياً وفطرياً وعاماً بين جميع البشر لما استعان الله تعالى به في تخويف الناس وتحذيرهم مما يمكن أن يلحق بهم من عذاب أليم إذا كفروا بالله تعالى ولم يؤمنوا برسالة محمد عليه الصلاة والسلام . وقد وردت في القرآن آيات كثيرة تحذر الكافرين من عذاب جهنم ، نذكر فيما يلي أمثلة منها :

« إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَـٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ »(١)

« .. فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ »(٢)

« يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ »(٣)

ودافع التنفس من الدوافع الفسيولوجية الضرورية للحياة . فالإنسان – وكذلك الحيوان – يحتاج إلى تنفس الأُكسجين ليعيش . فإذا قل الأُكسجين شعر بدافع قوي يدفعه إلى استنشاق الأُكسجين . فإذا انعدم الأُكسجين نهائياً مات الإنسان . وقد أشار الله تعالى إلى أهمية التنفس في حياة الإنسان في قوله تعالى :

« وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ۝ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ۝ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ »(٤)

---

(١) المائدة : ٣٦ ، ٣٧ .
(٢) التوبة : ٧٤ .
(٣) الاحقاف : ٣١ .
(٤) يس : ٤١ – ٤٣ .

﴿.. وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ..﴾[1]

وتتضح أهمية دافع التنفس كدافع فسيولوجي فطري يؤدي وظيفة هامة في حفظ الذات وبقائها ما يشعر به الإنسان من خوف شديد إذا ما أحاط به خطر يهدده بالغرق . وقد أشار الله تعالى إلى حالة الذعر التي تصيب الإنسان إذا كان في الفلك في عرض البحر وهبت عليه عاصفة شديدة ، وأحاط به الموج من كل مكان ، وشعر بخطر الموت غرقاً .

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[2]

ثانياً – دافعا بقاء النوع :

وكما اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى أن يوجد في طبيعة تكوين الإنسان والحيوان دوافع فسيولوجية فطرية تدفعهما إلى أنواع السلوك الضرورية لحفظ الذات ، فقد اقتضت حكمته كذلك أن يوجد في طبيعة تكوينهما دافعين فسيولوجيين فطريين يدفعانهما إلى القيام بنوعين هامين من السلوك يتوقف عليهما بقاء النوع . هذان الدافعان هما الدافع الجنسي ، ودافع الأمومة .

الدافع الجنسي :

الدافع الجنسي يقوم بوظيفة هامة هي التناسل لبقاء النوع . وعن طريق الدافع الجنسي تتكون الأسرة ، ومن الأسر تتكون المجتمعات والشعوب ، فتعمر الأرض ، وتتعارف الشعوب ، وتزدهر الحضارة ، وتتقدم العلوم والصناعات .

---

(١) العنكبوت : ٤٠ .

(٢) يونس : ٢٢ .

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ »(١)

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا »(٢)

« وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً ..»(٣)

« فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ »(٤)

واقتضت مشيئة الله تعالى أن توجد وظيفة التناسل في النباتات أيضاً . كما اقتضت مشيئته تعالى أن يوجد كل شيء في الكون أزواجاً .

« .. وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ .. »(٥)

« وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ »(٦)

---

(١) الحجرات : ١٣ .

(٢) النساء : ١ .

(٣) النحل : ٧٢ .

(٤) الشورى : ١١ . وفي تفسير ابن كثير : « (يذرؤكم فيه) أي يخلقكم فيه أي في ذلك الخلق على هذه الصفة . لا يزال يذرؤكم فيه ذكوراً وإناثاً خلقاً من بعد خلق وجيلاً بعد جيل » . ج ٤ ، ص ١٠٨ .

(٥) الرعد : ٣ .

(٦) الذاريات : ٤٩ . وقد بينت البحوث الحديثة في علم الطبيعة أن كل ذرة من الذرات التي تتكون منها جميع الأشياء في الكون تتكون من إلكترون وبروتون ، وقد تمكن العلماء من تحليلهما إلى كهارب موجبة وسالبة ، ينجذب كل منها إلى الآخر .

« سُبْحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ »[1]

والدافع الجنسي أساس تكوين الأسرة حيث يسكن كل زوج إلى زوجه فيشعر بالراحة والأمن والطمأنينة ، وتنشأ بينهما عواطف المحبة والمودة والرحمة مما يؤدي إلى استمرار الحياة الزوجية في وفاق وتعاون مما يهيئ الجو السليم لتنشئة الأطفال ورعايتهم وتكوين شخصياتهم تكويناً سليماً .

« وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ »[2]

« هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا .. »[3]

دافع الأمومة :

وشاءت حكمة الله سبحانه وتعالى أن يوجد أيضاً في طبيعة تكوين الأم دافعاً فطرياً يهيؤها للقيام برسالتها الهامة في الإنجاب لبقاء النوع . فهي تتحمل مشاق الحمل والولادة عن رضا ، وتقوم بإرضاع الطفل ورعايته والحنو عليه حتى ينمو ويصبح قادراً على العناية بنفسه . وقد أشار القرآن إلى ما تتحمله الأم من عناء في الحمل والولادة .

« وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا .. »[4]

---

(١) يس : ٣٦ . انظر في هذا الصدد أيضاً : محمد قطب : دراسات في النفس الإنسانية . بيروت : دار الشروق ، ١٩٧٩ ، ص ١٩٥ ، ١٩٦ .
(٢) الروم : ٢١ .
(٣) الأعراف : ١٨٩ .
(٤) الأحقاف : ١٥ . « حملته أمه كرها ووضعته كرها » أي على مشقة . « وفصاله » أي فطامه .

« وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ »[1]

ويصف القرآن عواطف الأم وحبها لأولادها ، وشغفها بهم ، وخوفها عليهم ، وحزنها لبعدهم عنها ، وفرحها لقربهم منها ، وذلك أثناء ذكره تعالى لقصة موسى عليه السلام .

« وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَـٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ »[2]

أي أن فؤادها أصبح خالياً من التفكير في أي شيء ما عدا ابنها . وكادت لفرط خوفها عليه وحزنها لفراقه أن تدل عليه لولا أن ثبَّت الله تعالى قلبها وأنزل السكينة والطمأنينة في نفسها . ولما رُدَّ إليها ابنها ذهب عنها الحزن ، وعادت إليها سعادتها .

« فَرَدَدْنَـٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ .. »[3]

الدوافع النفسية

الدوافع النفسية هي الدوافع التي لا يمكن إرجاعها مباشرة إلى الحالات الفسيولوجية للبدن الناشئة عن وجود نقص أو حاجات بدنية كما هو الشأن في الدوافع الفسيولوجية كالجوع والعطش والتعب . ويذهب معظم علماء النفس المحدثين إلى أن الدوافع النفسية هي في الأغلب مكتسبة على أساس دوافعنا الفسيولوجية ، أي أنهم يعتبرونها متفرعة أو مشتقة منها نتيجة تفاعلها مع خبرات الفرد وعوامل تنشئته الاجتماعية . وبناء على ذلك ، فهم لا ينكرون وجود عناصر

---

(١) لقمان : ١٤ . الوهن هو الضعف . و«وهنا على وهن» يعني الضعف في الحمل والولادة .
(٢) القصص : ١٠ .
(٣) القصص : ١٣ .

فطرية فيها . بل يذهب بعضهم ، مثل إريك فروم ، إلى القول بأن بعض الدوافع النفسية والتي يسميها فروم الحاجات النفسية مثل الحاجة إلى الإنتماء ، والحاجة إلى السمو ، والحاجة إلى هوية ، والحاجة إلى إطار للتوجيه هي حاجات فطرية أساسية في طبيعة الإنسان ، وهي ليست مكتسبة من المجتمع[1] . وقام أبراهام ماسلو A. Maslow باقتراح تصنيف جديد للدوافع يشمل الدوافع الروحية ، فقال بوجود نوعين من الدوافع أو الحاجات على حد تعبير ماسلو : حاجات أساسية ، وحاجات روحية . الحاجات الأساسية تشمل ما يدرسه معظم علماء النفس عن الحاجات الأساسية لدى الإنسان مثل الجوع ، والعطش ، والجنس ، والأمن ، والإنجاز ، وغير ذلك من الدوافع . وتشمل الحاجات الروحية الحاجات المرتبطة بالناحية الروحية في الإنسان مثل العدل ، والخير ، والجمال ، والنظام ، والاتحاد . ويرى ماسلو أن حاجات الإنسان الروحية حاجات فطرية يتوقف على إشباعها تكامل نمو شخصية الفرد ونضوجه[2] .

ونحن نميل في هذا الكتاب إلى أن نضم تحت عنوان الدوافع النفسية جميع الدوافع النفسية والروحية التي يتميز بها الإنسان عن الحيوان . كما نرى أيضاً أن كثيراً من هذه الدوافع النفسية ليس مكتسباً كلية من المجتمع ، بل توجد فيها أيضاً عناصر فطرية .

ومما تجدر الإشارة إليه أن علماء النفس المحدثين قد عنوا عناية فائقة بدراسة حاجات الإنسان الفسيولوجية ، كما أن دراستهم للدوافع النفسية عنيت في الأغلب بحاجات الإنسان المختلفة المتعلقة بتوافقه الشخصي والاجتماعي لمتطلبات البيئة الاجتماعية والثقافية الخاصة التي ينشأ فيها . ولم يُعْنَ علماء النفس المحدثون بدراسة الناحية الروحية من الإنسان وما ينبعث منها من حاجات إنسانية نبيلة وسامية ، هي في حقيقة الأمر أهم وأرقى الحاجات الإنسانية ، وأهم ما يميز

---

(١) Lindzey, G., Hall, C.S. and Thompson, R.F.: *Psychology*. New York: Worth Publishers, Inc., 1976, p. 360

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٦١ .

الإنسان عن بقية الحيوان . إن التزام علماء النفس المحدثين بتطبيق المنهج العلمي الذي يطبق في العلوم الطبيعية على دراسة الإنسان دفعهم إلى حصر انتباههم على دراسة نواحي السلوك الإنساني التي يمكن فقط إخضاعها للملاحظة المعملية وللبحث التجريبي ، وجعلهم يتجنبون البحث في كثير من نواحي السلوك الإنساني الهامة المتعلقة بالناحية الروحية في الإنسان . وبدلاً من محاولة ابتكار وسائل منهجية جديدة تصلح لبحث هذه النواحي الروحية في الإنسان ، فقد قاموا بإغفال دراستها كلية . غير أنه بدأت تظهر حديثاً انتقادات للاتجاه المادي الذي يغلب على دراسة علم النفس الحديث للإنسان ، ولإغفاله دراسة النواحي الروحية من سلوكه . فقد انتقد إريك فروم علم النفس الحديث لاهتمامه في أغلب الأحيان بدراسة نواحٍ تافهة وسطحية من سلوك الإنسان ، ولإغفاله دراسة مشكلات الإنسان الهامة وقيمه العليا ونواحيه الروحية ، وهي أهم ما يتميز به الإنسان[1] . وكانت مثل هذه الانتقادات هي ما حدا بماسلو إلى وضع تصنيفه لحاجات الإنسان إلى حاجات أساسية وحاجات روحية ، كما أشرنا إلى ذلك سابقاً .

دافع التملك :

دافع التملك من الدوافع النفسية التي يتعلمها الإنسان أثناء تنشئته الاجتماعية . فالإنسان يتعلم من الثقافة التي ينشأ فيها ، ومن خبراته الشخصية حبه لامتلاك المال والعقارات والأراضي والممتلكات المختلفة التي تشعره بالأمن من الفقر ، وتمده بالنفوذ والجاه والقوة في المجتمع . وقد أشار القرآن في كثير من المواضع إلى دافع التملك .

« زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ »[2]

---

(١) إريك فروم : مرجع سابق ، ص ١١ .
(٢) آل عمران : ١٤ .

« وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا »[1]

« ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا .. »[2]

«ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ .. »[3]

وكان دافع التملك أحد الدافعين الهامين اللذين أثارهما إبليس في نفس آدم عليه السلام مما جعله يقع في المعصية بأكله من الشجرة التي نهاه الله تعالى عن الاقتراب منها .

« فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ »[4]

وقد ذهب بعض علماء النفس مثل ماكدوجال إلى اعتبار التملك غريزة ، غير أن الدراسات الأنثروبولوجية والسيكولوجية الحديثة لا تؤيد الرأي القائل بأن التملك غريزة ، وهي تميل إلى اعتباره دافعاً نفسياً مكتسباً[5] . وليس من الضروري أن نستنتج من وسوسة الشيطان لآدم بأنه سيدله على « ملك لا يبلى » أن دافع التملك فطري أو غريزي عند آدم وأبنائه . فمن الممكن أن نفهم أيضاً من ذلك أن إبليس حاول أن يثير في نفس آدم دافعاً لم يكن موجوداً لديه بالفعل في ذلك الوقت . وبذلك يكون آدم قد تعلم دافع التملك عن طريق إيحاء إبليس له وتأثيره فيه .

---

(١) الفجر : ٢٠ .
(٢) الكهف : ٤٦ .
(٣) الحديد : ٢٠ .
(٤) طه : ١٢٠ .
(٥) انظر مناقشة هذا الموضوع في : محمد عثمان نجاتي : علم النفس في حياتنا اليومية ، ط ١١ . الكويت : دار القلم ، ١٩٨٤ .

دافع العدوان :

يظهر دافع العدوان في سلوك الإنسان العدواني تجاه الآخرين بهدف إلحاق الأذى بهم سواء كان ذلك في صورة عدوان بدني ، أو في صورة عدوان لفظي . وقد أشار القرآن إلى دافع العدوان أثناء ذكره لقصة آدم وحواء وإغواء الشيطان لهما لإخراجهما من الجنة .

« فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ »(١)

« قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ . . »(٢)

وتشير هاتان الآيتان إلى ما سيحدث بين الناس من ظلم بعضهم لبعض ، واعتداء بعضهم على بعض بسبب المنافسة ، والانسياق وراء شهواتهم ، وإغواء الشيطان لهم . ويشير القرآن أيضاً إلى دافع العدوان في الآية التالية من سورة البقرة .

« وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ »(٣)

وقال الإمام فخر الدين الرازي في شرحه لهذه الآية : « ولما أوحى الله إلى الملائكة : (إني جاعل في الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها) ومعناه إذا جمعت بين الشهوة والغضب وبين العقل صار مشتملاً في الهيئة قضاء الشهوة وإمضاء الغضب ، وذلك يوجب وقوع الفساد من الشهوة . وقوله :

---

(١) البقرة : ٣٦ .
(٢) طه : ١٢٣ .
(٣) البقرة : ٣٠ .

(يسفك الدماء) من استعمال الغضب . فعند ذلك أوحى الله تعالى إليهم : (إني أعلم ما لا تعلمون) »[1] .

وإن أول عدوان حصل في حياة البشر هو عدوان ابن آدم قابيل على أخيه هابيل حينما تقبل الله تعالى قربان أخيه ولم يتقبل قربانه ، فتملكته الغيرة فقتل أخاه .

« وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ »[2]

ويشير القرآن أيضاً إلى السلوك العدواني الذي يظهر في تعبيرات لفظية من من غِيبَة ووقيعة ، أو سبّ وتهكم وسخرية ، ومن أمثلة ذلك ما جاء في الآيات التالية :

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ »[3]

---

(١) الإمام فخر الدين محمد بن عمر الرازي : كتاب النفس والروح وشرح قواهما ، تحقيق محمد صفير حسن المعصومي ، من منشورات معهد الأبحاث الإسلامية بكراتشي (د . ت) ، ص ٤ .
(٢) المائدة : ٢٧ – ٣٠ .
(٣) آل عمران : ١١٨ .

« إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ »[1]

« زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ .. »[2]

« ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ .. »[3]

وقد اختلف علماء النفس والمحللون النفسيون في أمر العدوان ، هل هو دافع فطري أم مكتسب ؟ فذهب بعضهم مثل فرويد Freud ولورنز Lorenz إلى اعتباره دافعاً فطرياً . ولم يوافق كثير من علماء النفس الآخرين على اعتبار العدوان دافعاً فطرياً في الإنسان ، إذ أن ذلك يعطي فكرة سلبية ومتشائمة عن الطبيعة الإنسانية ، حيث يبدو الإنسان ، من وجهة النظر هذه ، ميالاً بفطرته إلى الشر والعدوان وإيذاء الآخرين . ولذلك يميل بعض علماء النفس الآخرين مثل فروم وماسلو إلى تأكيد النواحي الإيجابية والتعاونية والخيّرة في الطبيعة الإنسانية .

وبينت الدراسات التجريبية الحديثة أن السلوك العدواني يظهر عند الأطفال الصغار إذا قيدت حركاتهم البدنية مما يسبب لهم حالة إحباط ، فيظهر نتيجة لذلك السلوك العدواني . ثم تتعدد فيما بعد أثناء نمو الطفل أنواع العوائق التي تحدث له حالات إحباط ، مثل العوائق الاجتماعية والقانونية والاقتصادية والسياسية والنفسية . وبينت بعض الدراسات الأخرى أن الإحباط لا يؤدي بالضرورة إلى السلوك العدواني ، بل قد تظهر أنواع أخرى من السلوك مثل طلب العون والمساعدة من الآخرين ، والانسحاب ، والالتجاء إلى تعاطي الخمور والمخدرات . ويتدخل في هذا الموقف كثير من العوامل الخاصة بتربية

---

(١) الممتحنة : ٢ .

(٢) البقرة : ٢١٢ .

(٣) التوبة : ٧٩ . يلمزون يعني يعيبون .

الطفل وعلاقته بوالديه وخبراته الشخصية السابقة التي تجعل الطفل يتعلم أن يستجيب للإحباط بالسلوك العدواني . وبناء على ذلك ، فإن كثيراً من علماء النفس المحدثين يميلون إلى اعتبار أن السلوك العدواني هو ، في جزء منه ، سلوك مكتسب[1] .

وهذا الرأي الذي يقول به كثير من علماء النفس المحدثين يتفق مع ما جاء في القرآن من أن في طبيعة الإنسان استعداداً لكل من الخير والشر .

« وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ »[2]

إن اختيار الإنسان لطريق الخير والإحسان ومعاملة الناس بالحسنى ، أو لطريق الشر والظلم والعدوان إنما يرجع إلى كثير من العوامل كنوع التربية التي يتلقاها الفرد ، والظروف الاجتماعية والثقافية التي ينشأ فيها ، وخبراته وتجاربه الشخصية . فقد يتعلم الإنسان أن يستجيب للإحباط بالسلوك العدواني ، أو بالانسحاب والانطواء ، أو قد يتعلم أن يستجيب له بالتفكير فيما يعترضه من عقبات محاولاً التغلب عليها بتعلم استجابات جديدة تكون أكثر ملاءمة للتغلب على هذه العقبات .

دافع التنافس :

والتنافس من الدوافع النفسية التي يتعلمها الإنسان من الثقافة التي ينشأ فيها . وتقوم التربية التي يتلقاها الفرد بتوجيهه إلى النواحي التي يستحسن فيها التنافس من أجل تقدمه ورقيه وفقاً للقيم التي يتمسك بها المجتمع الذي ينشأ فيه الفرد . فقد يتعلم الفرد من الثقافة التي ينشأ فيها التنافس الاقتصادي ، أو التنافس السياسي ، أو التنافس العلمي ، أو غير ذلك من أنواع التنافس الشائعة بين الناس في مختلف

---

(١) Morris, Charles G.: *Psychology, An Introduction*. 3rd ed., Englewood Cliffs, New Jersey, 1979, PP. 368-370.

(٢) البلد : ١٠ . أي بينا له طريق الخير وطريق الشر ، وهيأناه للاختيار . انظر : المنتخب في تفسير القرآن الكريم ، ص ٩٠٨ ، وتفسير الجلالين ، ص ٥١١ .

الثقافات الإنسانية . وقد حث القرآن الناس على التنافس في تقوى الله ، وعمل الخيرات ، والتمسك بالقيم الإنسانية العليا ، واتباع المنهج الرباني في الحياة سواء في علاقتهم بالله سبحانه وتعالى ، أو في علاقاتهم الأسرية ، أو في علاقاتهم مع المجتمع حتى يحظوا بمغفرة الله ورضوانه ، وينعموا بدخول الجنة . قال تعالى :

« إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ۝ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ »(١)

« وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ .. »(٢)

« سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ »(٣)

« .. فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ »(٤)

دافع التدين :

إن دافع التدين دافع نفسي له أساس فطري في طبيعة تكوين الإنسان . فالإنسان يشعر في أعماق نفسه بدافع يدفعه إلى البحث والتفكير لمعرفة خالقه وخالق الكون ، وإلى عبادته والتوسل إليه والالتجاء إليه طالباً منه العون كلما اشتدت به مصائب الحياة وكروبها ، وهو يجد في حمايته ورعايته الأمن والطمأنينة . نجد ذلك واضحاً في سلوك الإنسان في جميع عصور التاريخ ، وفي مختلف المجتمعات

---

(١) المطففين : ٢٢ – ٢٦ .
(٢) البقرة : ١٤٨ .
(٣) الحديد : ٢١ .
(٤) المائدة : ٤٨ .

الإنسانية . غير أن تصور الإنسان في المجتمعات المختلفة خلال عصور التاريخ المختلفة لطبيعة الإله ، والطريقة التي يسلكها في عبادته له قد تختلف تبعاً لمستوى تفكيره ودرجة تطوره الثقافي . غير أن هذه الاختلافات في تصور الإنسان لطبيعة الإله أو طريقة عبادته إنما هي اختلافات في طريقه التعبير عن ذلك الدافع الفطري للتدين الموجود في أعماق النفس البشرية . وتبينّ بعض آيات القرآن الكريم أن دافع التدين دافع فطري . قال تعالى :

« فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ »(١)

في هذه الآية يذكر الله تعالى أن في فطرة الإنسان ، أي في خلقته وطبيعة تكوينه استعداداً فطرياً على إدراك بديع مخلوقات الله والاستدلال بها على وجود الله وتوحيده(٢) . وقال تعالى ايضاً :

« وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ »(٣)

وفي هذه الآية يبين الله تعالى أنه أخرج من صلب آدم عليه السلام وبنيه ذريتهم نسلاً بعد نسل على هيئة ذر ، وذلك قبل خلقهم في الدنيا ، وأشهدهم على أنفسهم قائلاً لهم : « ألست بربكم » فأجابوا : « بلى شهدنا » بذلك ، وقال تعالى إنه أشهدهم على ربوبيته حتى لا تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا التوحيد غافلين أو غير عالمين(٤) . ومن هذا يتبين أنه يوجد في طبيعة تكوين الإنسان استعداد

(١) الروم : ٣٠ .
(٢) تفسير القرطبي : جـ ١٤ ، ص ٢٩ ؛ تفسير الجلالين : ص ٣٤٠ ، ٣٤١ .
(٣) الأعراف : ١٧٢ .
(٤) تفسير ابن كثير : جـ ٢ ، ص ٢٦٢ ؛ تفسير الجلالين : ص ١١٤ .

فطري لمعرفة الله وتوحيده . فالاعتراف بربوبية الله متأصل في فطرته ، وموجود منذ الأزل في أعماق روحه . غير أن امتزاج الروح بالجسد ، وانشغال الإنسان بمطالب جسده ، وبمطالبه المختلفة التي تستلزمها حياته في الدنيا وعمارة الأرض ، قد جعل هذه المعرفة بربوبية الله ، وهذا الاستعداد الفطري للتوحيد عرضة لأن تطمره الغفلة ، ويغمره النسيان ، ويطويه اللاشعور في أعماقه . ويصبح الإنسان في حاجة إلى ما يوقظ هذا الاستعداد الفطري ، وينفض عنه غبار النسيان ، ويبعثه من أعماق اللاشعور ليظهر واضحاً جلياً في الإدراك والشعور . ويتم ذلك عن طريق تفاعل الإنسان مع الكون ، ونظره إلى عجيب خلق الله في نفسه ، وفي سائر مخلوقات الله ، وفي الكون بأسره .

ومن العوامل التي تساعد على إيقاظ وبعث دافع التدين في الإنسان ما يحيط به في بعض الحالات من أخطار تهدد حياته ، وتسد أمامه جميع سبل النجاة ، فلا يجد منها مهرباً إلا الالتجاء الى الله فيندفع اليه سبحانه وتعالى بدافع فطري طالباً منه المعونة والنجدة مما يحيط به من أخطار [1] . قال تعالى :

« هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ » [2]

« قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ » [3]

---

(١) البهي الخولي : آدم عليه السلام . فلسفة تقويم الإنسان وخلافته ، ط ٣ . القاهرة : مكتبة وهبه ، ١٩٧٤ ، ص ١٧٦ .
(٢) يونس : ٢٢ .
(٣) الأنعام : ٦٣ .

الدوافع اللاشعورية

قد يشعر الإنسان أحياناً ببعض الرغبات أو الدوافع غير المقبولة أو المثيرة لقلقه فيعمل على إبعادها من دائرة وعيه أو شعوره مما يؤدي في النهاية إلى كبتها في اللاشعور . غير أنه كثيراً ما يحدث أن يقوم الإنسان بالتعبير عن هذه الرغبات والدوافع بطريقة لا شعورية في صورة فلتات اللسان وأخطاء الكلام .

وقد أشار القرآن إلى التعبير اللاشعوري عن طريق فلتات اللسان عما يجيش في النفس من دوافع يحاول الإنسان كتمانها وإخفاءها ، وذلك في قوله تعالى :

« أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَـٰنَهُمْ ۝ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَـٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَـٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَـٰلَكُمْ »[1]

ويروى عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه قال في هذا المعنى : « ما أسرّ أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه »[2] . وفي الحديث الشريف : « ما أسرّ أحد سريرة إلا كساه الله جلبابها إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر »[3] .

وسوف نرى فيما بعد أثناء كلامنا عن الشخصية في الفصل التاسع أن القرآن قد أشار أيضاً إلى بعض الحيل العقلية اللاشعورية كالتبرير ، والإسقاط ، وتكوين رد الفعل . ويتضح من ذلك أن القرآن قد تعرَّض للناحية اللاشعورية من سلوك الإنسان قبل دراسة فرويد مؤسس نظرية التحليل النفسي لها بأربعة عشر قرناً من الزمان .

---

(١) محمد : ٢٩ ، ٣٠ .

(٢) تفسير ابن كثير : جـ ٤ ، ص ١٨٠ .

(٣) المرجع السابق : ص ١٨٠ .

الصراع بين الدوافع

إذا تعارضت بعض دوافع الإنسان بأن يجذبه ، مثلاً ، دافع ما إلى اتجاه معين ، ويجذبه دافع آخر إلى اتجاه مضاد ، أحس الإنسان بحالة من الحيرة والتردد والعجز عن اتخاذ قرار في أي اتجاه يسير . وتعرف هذه الحالة بالصراع النفسي . وقد صور القرآن حالة الصراع النفسي التي يعانيها بعض الأفراد الذين يقفون من الإيمان موقف تردد وريبة ، فلا هم يتجهون اتجاهاً تاماً إلى ناحية الإيمان ، ولا هم يتجهون اتجاهاً تاماً إلى ناحية الكفر ، ولكنهم يقفون بين الإيمان والكفر موقف المتردد العاجز عن اتخاذ قرار نهائي في هذا الأمر . قال تعالى :

« قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا . . » (١)

في هذه الآية وصف دقيق لحالة الصراع النفسي وما تسببه للفرد من حيرة وتردد . فالشياطين من جهة تستهوي الفرد وتجذبه إلى ناحية الضلال والكفر ، وأصحابه المؤمنون من جهة أخرى يدعونه إلى الهدى والإيمان ، وهو واقف بين هاتين الدعوتين في حيرة وبلبلة وتردد . ويصف القرآن أيضاً حالة التردد والحيرة والريبة والاضطراب التي تصاحب الصراع النفسي بين الكفر والإيمان في قوله تعالى :

« إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ » (٢)

« إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ

---

(١) الأنعام : ٧١ .

(٢) التوبة : ٤٥ .

كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا»(١)

ويصف القرآن أيضاً حالة الصراع النفسي التي يعانيها بعض الأفراد الذين يقفون موقف الحيرة والتردد بين أن يقاتلوا المسلمين من جهة ، وأن يقاتلوا قومهم من المشركين من جهة أخرى ، وما يسببه لهم هذا الصراع من حيرة وضيق وحرج . قال تعالى :

«إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ ..»(٢)

السيطرة على الدوافع

يتبين لنا مما سبق أن مشيئة الله سبحانه وتعالى قد اقتضت وجود الدوافع الفسيولوجية في فطرة كل من الحيوان والإنسان لتحقيق الأهداف التي أرادها الله تعالى منها وهي حفظ الذات وبقاء النوع . ومن الطبيعي أن يكون إشباع هذه الدوافع أمر ضروري تقتضيه الفطرة ، وتستلزمه طبيعة تكوين كل من الحيوان والإنسان ، إذ يتوقف على إشباعها استمرار الحياة وبقاء النوع . ولذلك جاءت أحكام القرآن وأوامره في شأن هذه الدوافع متفقة مع فطرة الإنسان ، فهي تعترف بها وتقرها وتدعو إلى إشباعها في الحدود التي بيّنها الشرع . وليس في القرآن ولا في السنة ما يشير إلى استقذار هذه الدوافع أو إنكارها أو يدعو إلى كبتها ، وإنما يدعو القرآن ، وكذلك تدعو السنة ، إلى السيطرة على الدوافع والتحكم فيها ، وإشباعها فقط في الحدود التي يسمح بها الشرع ، دون إسراف أو تجاوز لهذه الحدود ، وذلك لمصلحة الفرد والجماعة .

ويجب أن نفرق بين القمع والكبت . القمع هو الكفّ الإرادي لدافع أو

(١) النساء : ١٤٢ ، ١٤٣ .
(٢) النساء : ٩٠ .

رغبة ما ومقاومة إشباعها أو التعبير عنها في ظروف لا تسمح بإشباعها . ولكنه لا يتضمن إنكار هذه الرغبة على وجه الإطلاق ، حيث أنه من الممكن إشباعها في ظروف أخرى ملائمة ومسموح بها . أما الكبت فهو إنكار الرغبة واستقذارها أو الخوف منها ، ومحاولة إبعادها نهائياً عن دائرة الوعي تخلصاً مما تسببه من شعور بالإثم أو القلق ، بحيث ينتهي الأمر إلى كبت هذه الرغبة في اللاشعور . فمفهوم الكبت يتضمن أن الرغبة أصبحت مبعدة عن دائرة الوعي أو الشعور ، وأصبحت مطمورة في أعماق اللاشعور . ووجود الرغبة في اللاشعور لا يقضي عليها نهائياً ، بل تظل تحاول التعبير عن نفسها ، ولكن بطرق وحيل لا شعورية . مما يسبب نشوء كثير من الأعراض المختلفة لاضطرابات السلوك .

والقرآن لا يدعو إلى كبت دوافعنا الفطرية بالمعنى الذي بيناه سابقاً ، ولكنه يدعو إلى تنظيم إشباعها ، والتحكم فيها ، وتوجيهها توجيهاً سليماً تراعى فيه مصلحة الفرد والجماعة ، بحيث يصبح الفرد هو المسيطر على دوافعه ، والموجه لها ، ولا تكون دوافعه هي المسيطرة عليه والموجهة له . ويتبين رأي القرآن بوضوح في اعترافه بمشروعية إشباع الدوافع الفسيولوجية من الآيات التالية :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ »(١) .

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ »(٢)

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ »(٣)

---

(١) البقرة : ١٦٨ .
(٢) البقرة : ١٧٢ .
(٣) المائدة : ٨٧ ، ٨٨ .

«.. كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ ..»[1]

«يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ۝ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ »[2]

« وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ »[3]

« وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ »[4]

« نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ..»[5]

يتضح من هذه الآيات التي ذكرناها أن القرآن لا يدعو الإنسان إلى إنكار دوافعه الفطرية وكبتها ، وهو بذلك يجنبه الوقوع في الصراع النفسي الذي ينشأ من إنكار الإنسان لدافعه الجنسي وقيامه بكبته مما يؤدي إلى نشوء أعراض اضطرابات السلوك . ولكن القرآن مع ذلك لا يطلق العنان للإنسان لإشباع دوافعه الفطرية بلا حدود ، ولكنه يدعوه إلى تنظيم إشباعها ، والسيطرة على زمامها[6] .

(١) البقرة : ٦٠ .
(٢) الأعراف : ٣١ ، ٣٢ .
(٣) النور : ٣٢ .
(٤) النساء : ٣ .
(٥) البقرة : ٢٢٣ .
(٦) انظر أيضاً في هذا الصدد : محمد قطب : الإنسان بين المادية والإسلام ، ط ٣ . القاهرة : عيسى البابي الحلبي وشركاه ، ١٩٦٠ ، ص ٨٤ – ٩١ ؛ محمد قطب : منهج التربية الإسلامية ، ط ٢ . بيروت : دار الشروق ، (د . ت) ، ص ١٢٨ – ١٢٩ ، ١٤٥ .

ولا حرج على الإنسان من التمتع بإشباع دوافعه الفطرية ما دام يشبعها عن الطريق الحلال والمسموح به شرعاً . غير أن القرآن يدعو إلى نوعين من التنظيم فيما يتعلق بإشباع الدوافع الفطرية . الأول هو إشباعها فقط عن الطريق الحلال المسموح به شرعاً . والثاني هو عدم الإسراف في إشباعها .

وفيما يتعلق بالتنظيم الأول لإشباع دوافعنا الفسيولوجية وهو إشباعها فقط عن الطريق الحلال ، فالقرآن ينهانا عن إشباع دافع الجوع عن طريق الكسب الحرام ، كما ينهانا عن أكل أنواع معينة من المأكولات لما فيها من أضرار بصحة الإنسان ، كما ينهانا عن شرب الخمر لما فيها أيضاً من أضرار بصحة الإنسان البدنية والعقلية ، كما ينهانا عن إشباع الدافع الجنسي عن غير طريق الزواج لما في ذلك أيضاً من أضرار كثيرة صحية واجتماعية . وقد نظم الله تعالى للإنسان طريقة إشباع الدافع الجنسي بأن خلق الذكر والأنثى ، وجعل من حياتهما معاً في الأسرة وسيلة لإشباع الدافع الجنسي ، ولتحقيق الأمن والطمأنينة لهما بما تتضمن الحياة الأسرية للإنسان من محبة ومودة وتعاون وإيثار .

« وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ »[1]

« .. هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ .. »[2]

أما إذا لم تسمح ظروف الإنسان بالزواج ، فعليه أن يستعفف وأن يسيطر على دافعه الجنسي ويقمعه حتى تسمح له الظروف بالزواج[3] .

---

(١) الروم : ٢١ .

(٢) البقرة : ١٨٧ .

(٣) يلاحظ ان المرضى العصابيين الذين كان يعالجهم سيجمند فرويد نشأوا في الأغلب في مجتمعات أوروبا المسيحية التي كانت في ذلك الوقت تنظر إلى الجنس باعتباره دافعاً غير مقبول ويجب كبته ، ولذلك لم يكن غريباً أن يلاحظ فرويد وجود علاقة بين كبت الدافع الجنسي وبين الأمراض العصابية . ومع ان بعض تلاميذ فرويد مثل أدلر ويونج وغيرهما من المحللين النفسيين الآخرين مثل كارن هورني وإريك فروم لم يوافقوا فرويد على اهتمامه الزائد بالغريزة الجنسية وبتفسيره للأمراض العصابية على =

« وَلۡيَسۡتَعۡفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغۡنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ .. »[1]

وقد حرص القرآن على أن يعيش الشباب المسلم في مجتمع يساعده على السيطرة على دافعه الجنسي ، ولا يعرضهم إلى ما من شأنه ان يثير هذا الدافع ويهيجه ، ولذلك طالب القرآن المسلمين بغض النظر ، كما طالب النساء بإخفاء زينتهن ومحاسنهن الخلقية التي قد تفتن الرجال كالشعر والعنق والصدر .

« قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ۝ وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوۡ ءَابَآئِهِنَّ أَوۡ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآئِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوۡ نِسَآئِهِنَّ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ »[2]

= أساس انها ناشئة عن كبتها ، إلا أنه يجدر بنا أن نلاحظ أنه حتى ولو كانت النتائج التي وصل إليها فرويد صحيحة بالنسبة لبعض الحالات في ذلك المجتمع الذي عاش فيه فرويد ، فليس من الضروري أن تكون صحيحة أيضاً في مجتمعات أخرى تختلف في ثقافتها عن المجتمع الذي عاش فيه فرويد . ويتضح من عرضنا لموقف الإسلام من الدافع الجنسي ، وعدم إنكاره له ، وعدم النظر إليه باعتباره شيئاً مستقذراً يجب كبته ، أننا لا نتوقع أن نجد في المجتمع الإسلامي الذي يربي أطفاله تربية إسلامية سليمة ، ويشجع شبابه على الزواج المبكر ، ويتخلص من العادات والتقاليد التي تحول دون تحقيق ذلك ، إننا لا نتوقع أن نجد في مثل هذا المجتمع ضرورة لكبت الدافع الجنسي ، كما لا نتوقع أن نجد في تربية الشباب على التحكم في الدافع الجنسي والسيطرة عليه وكفه عن الإشباع حتى يحين الوقت المناسب للزواج أثراً ضاراً بالصحة النفسية إذا ما أقبل الشباب على العبادات وخاصة الصيام كوسيلة تساعد على السيطرة على الطاقة الغريزية وإعلائها ، وإذا ما توافرت لديه أيضاً وسائل الإعلاء الأخرى كالرياضة البدنية ، والإسهام في كثير من أنواع النشاط الاجتماعي المختلفة ، والإقبال على تحصيل العلوم والآداب والفنون .

(١) النور : ٣٣ .

(٢) النور : ٣٠ ، ٣١ .

ونهى الرسول عليه الصلاة والسلام عن الخلوة بين الرجل والمرأة لأن فيها منزلقاً إلى إثارة الدافع الجنسي . كما وجه القرآن الناس إلى ضرورة التنبيه على الخدم والأطفال الذين لم يصلوا إلى مرحلة البلوغ بعدم الدخول بدون استئذان على أماكن تواجد الرجال والنساء في ثلاثة أوقات من اليوم هي : قبل صلاة الفجر ، ووقت القيلولة في الظهر ، وبعد صلاة العشاء عند الاستعداد للنوم .

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ »[(١)]

في هذه الأوقات الثلاثة المذكورة في الآية يتحرر الإنسان عادة من ملابسه التي يقابل بها الناس عادة ، ويرتدي ملابس النوم والراحة مما يمكن أن يظهر من عورات الجسم ما لا ينبغي أن يراه الناس . والحكمة من تحذير القرآن من دخول الخدم والأطفال بدون استئذان على الرجال والنساء في هذه الأوقات إنما هو للوقاية من اطلاعهم على ما لا ينبغي اطلاعهم عليه من عورات الرجال والنساء مما قد يؤدي ، فضلاً عن خدش حياء الرجال والنساء ، إلى إثارة الدافع الجنسي لدى الخدم ، واحتمال اطلاع الأطفال على عورات آبائهم وأمهاتهم ، وعلى بعض نواحي المباشرة الجنسية بينهم . وقد بينت دراسات التحليل النفسي الآثار السيئة التي تتركها في نفوس الأطفال رؤية مثل هذه الأمور[(٢)] . كما تطالعنا الصحف من وقت إلى آخر بالمآسي التي تلحق بعض الأسر من اختلاط الخدم بالفتيات والنساء فيها بدون قيود منظمة ، ورقابة واعية .

أما فيما يتعلق بالتنظيم الثاني للدوافع الفسيولوجية وهو عدم الإسراف في

---

(١) النور : ٥٨ ، ٥٩ .

(٢) احمد محمد جمال : نحو تربية إسلامية . جدة : تهامة ، ١٩٨٠ ، ص ٧٨ ، ٧٩ .

إشباعها ، فإننا نعلم من خبرتنا الشخصية ومن الدراسات الطبية أنّ الإسراف في الأكل مضر بصحة الإنسان إذ يصيبه بالتخمة وببعض أمراض الجهاز الهضمي ، ويسبب له السمنه التي لها أضرار كثيرة على صحة الإنسان . وكذلك فإن الإسراف في شرب الماء ، والإسراف في الراحة والكسل والنوم أمر يضر بالصحة . ولذلك نهى الله سبحانه وتعالى عن الإسراف في الأكل والشرب .

« يَـٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ »[1]

ومن الطبيعي أن نفهم أن هذا النهي عن الإسراف ليس مقصوراً فقط على دافعي الجوع والعطش بالذات ، وإنما هو ينسحب أيضاً إلى باقي الدوافع الفسيولوجية الأخرى . وما ذكر القرآن دافعي الجوع والعطش في معرض النهي عن الإسراف إلا على سبيل المثال أو الإشارة فقط إلى الضرر الذي يلحق الإنسان من الإسراف في إشباع دوافعه الفطرية بعامة . وهذه هي إحدى خصائص أسلوب القرآن الذي يكتفي في كثير من آياته بالإيجاز والإشارة والتلميح . ولعل الاكتفاء بذكر الجوع والعطش في معرض النهي عن الإسراف في إشباع الدوافع الفطرية يرجع أيضاً إلى وضوح أهمية هذين الدافعين في حفظ الذات ، وإلى ميل الإنسان عادة إلى الإسراف في إشباعهما .

ولا يُعْنىَ القرآن بتوجيه الإنسان إلى السيطرة على دوافعه الفسيولوجية فقط ، وإنما هو يعنى كذلك بتوجيه إلى السيطرة على دوافعه النفسية أيضاً . في كثير من المواضع يحثّ القرآن على السيطرة على دافع العدوان ودافع التملك . فضبط النفس ، والتحكم في أهوائها وشهواتها سواء كانت بدنية أو نفسية من الخصال التي يجب أن يتحلى بها المؤمن السوي الشخصية .

والعدوان عليهم سواء بدنياً أو لفظياً ، ويأمرهم بمعاملة الناس بالحسنى وباللين والمعروف .

ففيما يتعلق بدافع العدوان فإن القرآن ينهى الناس عن ظلم الآخرين

(١) الأعراف : ٣١ .

« وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا »(١)

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ »(٢)

« .. وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ .. »(٣)

« .. وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ »(٤)

« .. وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ .. »(٥)

« وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ »(٦)

---

(١) الأحزاب : ٥٨ .
(٢) المجادلة : ٩ .
(٣) المائدة : ٢ .
(٤) المائدة : ٨٧ .
(٥) الأنعام : ١٥١ .
(٦) الحجرات : ٩ – ١١ .

ويدعو القرآن الناس أيضاً إلى ضبط دافع التملك ، فينهاهم عن الشُحّ ، واكتناز الأموال ، والربا ، وأكل اموال الناس بالباطل ، والسرقة ، كما يأمرهم بالإنفاق في سبيل الله ، وبالتصدق على الفقراء والمساكين ، وبإيتاء الزكاة .

«.. وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ »(١)

« وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ »(٢)

« فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ »(٣)

« وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ »(٤)

« ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ »(٥)

---

(١) التوبة : ٣٤ ، ٣٥ .
(٢) آل عمران : ١٨٠ .
(٣) التغابن : ١٦ .
(٤) المنافقون : ١٠ .
(٥) الحديد : ٧ .

« إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ »(١)

« قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ »(٢)

وعلى وجه عام ، فإن القرآن يدعو الإنسان إلى ضبط دوافعه والتحكم فيها وتوجيه إشباعها في إطار الحدود المشروعة دون إسراف ، فلا يكون عبداً لأهوائه وشهواته ، وإنما يكون هو المسيطر عليها والمتحكم فيها والموجه لها .

« فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ »(٣)

ونهْيُ النفس عن الهوى هو ضبط الإنسان لدوافعه ، وكفُّه لشهواته ، وسيطرته عليها .

ويدعو القرآن الإنسان إلى أن يوازن بين متطلبات بدنه في حياته اليومية التي تلح عليه لإشباعها ، ومتطلبات روحه المتشوقة إلى الله تعالى ، والمتطلعة إلى النعيم في الحياة الآخرة . فعلى الإنسان أن يلبي حاجاته البدنية ويشبع دوافعه الفطرية لكي يعيش ويبقى ويعمر الأرض ويؤدي رسالته في الحياة التي خلقه الله تعالى لها . ولكن يجب على الإنسان أيضاً أن يلبي متطلباته الروحية من الاعتراف بربوبية الله وعبادته واتباع المنهج الذي رسمه الله تعالى له في الحياة لكي ينعم بمغفرته ورضوانه في الحياة الآخرة . إن الإنسان مطالب بأن يجد ويجتهد في

(١) الحديد : ١٨ .
(٢) ابراهيم : ٣١ .
(٣) النازعات : ٣٧ – ٤١ .

تحقيق هذا التوازن بين متطلبات الجسم ومتطلبات الروح ، بين متطلبات الحياة الدنيوية ومتطلبات الحياة الآخرة ، لأن في ذلك خلاصاً من الصراع النفسي الذي يصيب الإنسان بالقلق ، ويحرمه من نعمة الأمن والطمأنينة والسعادة .

« وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا .. »(١)

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ »(٢)

وتتضح دعوة القرآن للإنسان إلى ضبط دوافعه والتحكم فيها والعمل على إعلائها والتسامي بها وتوجيهها إلى ما يرضي الله تعالى وما فيه خير الفرد والمجتمع والإنسانية ، أن القرآن حينما ذكر في سورة آل عمران بعض الدوافع التي يهتم الناس عادة بإشباعها في حياتهم الدنيوية ، ذكر بعدها مباشرة أن تقوى الله أفضل للإنسان من الانغماس في إشباع هذه الدوافع في الحياة الدنيوية لأن التقوى ستحقق لهم التمتع برضوان الله ونعيمه في الآخرة .

« زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ۝ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ »(٣)

في هاتين الآيتين دعوة صريحة إلى الناس لضبط دوافعهم وإعلائها والتسامي بها عن طريق تقوى الله وابتغاء مرضاته . وجاء في القرآن في هذا المعنى أيضاً :

---

(١) القصص : ٧٧ .

(٢) المنافقون : ٩ .

(٣) آل عمران : ١٤ ، ١٥ .

« ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا »(١)

« ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ »(٢)

وفي هذه الآيات تنبيه للإنسان إلى أن ما في الحياة الدنيا من لعب ولهو وزينة وتفاخر بكثرة الأموال والبنين إنما مصيره إلى زوال كما يزول النبات الذي يذبل وييبس وتعصف به الرياح ، وأن ما يبقى هو عمل الإنسان . فإن من آثر الحياة الدنيا على الآخرة وكان كل همه في حياته الدنيا الإنشغال بإشباع دوافعه وشهواته وتحصيل اللذات فقط ، وغفل عن طاعة الله وعبادته ، فمصيره في الآخرة عذاب شديد . وأما من لم يغفل في حياته الدنيوية عن طاعة الله وعبادته ، وعمل الصالحات ، وتحكم في أهوائه وشهواته فجزاؤه مغفرة من الله ورضوان . وجاء في القرآن أيضاً في هذا المعنى :

« وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ »(٣)

انحراف الدوافع

إذا فشل الإنسان في ضبط دوافعه والتحكم فيها ، فأسرف في إشباعها ، وانغمس في لذاتها ، وجعل الحصول على لذة الإشباع هدفاً في ذاته ، انحرفت

---

(١) الكهف : ٤٦ .
(٢) الحديد : ٢٠ .
(٣) الأنعام : ٣٢ .

الدوافع عن اهدافها الحقيقية ، فلم تعد بعد وسيلة لاستمرار حياة الفرد وبقاء النوع ، وإنما أصبحت غاية في ذاتها ، ولم يعد الإنسان هو المسيطر عليها والمتحكم فيها ، وإنما أصبحت هي المسيطرة عليه والمتحكمة فيه . وانحراف الدوافع وسيطرتها على الإنسان قد يحدث بالنسبة لكل من الدوافع الفسيولوجية والنفسية على السواء . ومن أهم دوافعنا الفسيولوجية المعرضة للانحراف الدافع الجنسي . وقد ذكر القرآن نوعاً شائعاً من الانحراف الجنسي وهو الجنسية المثلية التي مارسها قوم لوط . ويتضح مما قاله القرآن عن هذا الانحراف الجنسي أنه ظهر لأول مرة في تاريخ البشرية بين قوم لوط .

« وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ »[1]

« أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ »[2]

ومن الانحرافات الشائعة في دوافعنا النفسية ما نشاهده لدى بعض الناس من الحب الشديد للمال ، وتلهفهم على امتلاكه واكتنازه . والمال في الأصل هو مال الله تعالى استخلفنا فيه لإنفاقه في سبيله ، وفيما يرضيه ، وفيما يحقق إعمار الأرض وتقدم الإنسانية . غير أن بعض الناس يجعلون تملك المال هدفاً في ذاته ، فيقومون باكتنازه ولا ينفقونه في سبيل الله وفيما يفيد الناس ويساعد على تقدم البشرية .

وعلى وجه عام ، فإن الإسراف في إشباع الدوافع ، وعجز الإنسان عن ضبطها والتحكم فيها يؤدي إلى انحراف هذه الدوافع عن أهدافها الحقيقية في

---

(١) الأعراف : ٨٠ ، ٨١ .
(٢) الشعراء : ١٦٥ ، ١٦٦ .

استمرار حياة الفرد وبقائه وتحقيق خيره وخير المجتمع . فالإسراف في العدوان ، مثلاً ، بحيث يصبح الإنسان ميالاً في علاقاته مع الناس إلى العدوان والظلم انحراف . والإسراف في التنافس بحيث يصبح الهدف الرئيسي للإنسان في الحياة هو التفوق على الغير والسيطرة عليهم بدنياً أو اقتصادياً أو سياسياً أو عسكرياً إنما هو انحراف . والإسراف في طلب الراحة والخمول والكسل ، والتمتع بنعيم الحياة وملاذها ، بحيث يصبح الهدف الرئيسي للإنسان هو أن يحيا حياة دعة وترف وخمول دون أي شعور بالمسؤولية تجاه أفراد المجتمع الذي يعيش فيه ، والتعاون معهم ، وتقديم يد العون والمساعدة إليهم ، إنما هو انحراف . والاعتدال في إشباع الدوافع ، وعدم الإسراف في إشباعها وقاية للإنسان من الانحراف . فخير الأمور الوسط .

« وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا »[1]

« وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا »[2]

---

(١) الفرقان : ٦٧ .

(٢) الإسراء : ٢٩ .

الفصل الثاني

الانفعالات في القرآن

اقتضت حكمة الله تعالى أن يزوّد الإنسان والحيوان كذلك بانفعالات تعينهما أيضاً على الحياة والبقاء . فانفعال الخوف ، مثلاً ، يدفعنا إلى تجنب الأخطار التي تهدد حياتنا . وانفعال الغضب يدفعنا إلى الدفاع عن النفس ، والى الصراع من أجل البقاء . وانفعال الحب هو أساس تآلف الجنسين وانجذاب كل منهما إلى الآخر من أجل بقاء النوع .

وهناك علاقة كبيرة بين الدوافع والانفعالات . فالدوافع تكون عادة مصحوبة بحالة وجدانية انفعالية . فحينما يشتد الدافع ويعاق عن الإشباع فترة من الزمن تحدث في الجسم حالة من التوتر . وتصاحب ذلك عادة حالة وجدانية مكدِّرة . وإشباع الدافع يكون مصحوباً بحالة وجدانية سارة . ثم إن الانفعال يقوم بتوجيه السلوك مثل الدافع . فانفعال الخوف يدفع الإنسان إلى الهرب من الخطر ، وانفعال الغضب يدفعه إلى الدفاع عن النفس ، وقد يدفعه إلى العدوان ، وانفعال الحب يدفعه إلى التقرب من موضوع حبه .

وجاء في القرآن الكريم وصف دقيق لكثير من الانفعالات التي يشعر بها الإنسان مثل الخوف ، والغضب ، والحب ، والفرح ، والكره ، والغيرة ، والحسد ، والندم ، والحياء ، والخِزْي . وسوف نتناول ما جاء في القرآن عن هذه الانفعالات فيما يلي :

الخوف

انفعال الخوف من الانفعالات الهامة في حياة الإنسان ، لأنه ، كما أشرنا من قبل ، يعينه على اتقاء الأخطار التي تهدده مما يساعده على الحياة والبقاء . وقد سبق أن أشرنا أثناء كلامنا عن دافع الجوع في الفصل السابق أن القرآن ذكر

في بعض آياته الأمن من الخوف مقروناً بإشباع دافع الجوع مما يشير إلى أهمية كل من دافع الجوع وانفعال الخوف في حياة الإنسان . وقد ذكرنا هذه الآيات أثناء كلامنا عن دافع الجوع [١] .

وليست فائدة الخوف مقصورة فقط على وقاية الإنسان من الأخطار التي تهدده في حياته الدنيوية ، وإنما من أهم فوائده أيضاً أنه يدفع المؤمن إلى اتقاء عذاب الله في الحياة الآخرة . فالخوف من عقاب الله يدفع المؤمن إلى تجنب الوقوع في المعاصي ، والى التمسك بالتقوى والانتظام في عبادة الله وعمل كل ما يرضيه .

« إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ » [٢]

« تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ » [٣]

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ » [٤]

وانفعال الخوف حالة من الاضطراب الحاد الذي يشمل الفرد كله . وقد وصف القرآن هذا الاضطراب بالزلزال الشديد الذي يهز الإنسان هزاً شديداً ، فيفقده القدرة على التفكير والسيطرة على النفس .

---

(١) انظر الآيات في ص ٣٠ ، ٣١ .
(٢) الأنفال : ٢ .
(٣) السجدة : ١٦ .
(٤) الحج : ١ ، ٢ .

« إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ۝ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا »[1]

وإذا كان الخوف شديداً ومفاجئاً انتابت الإنسان حالة من الذهول لفترة من الوقت لا يستطيع فيها الحركة أو التفكير . وقد أشار القرآن إلى حالة الذهول التي يسببها الخوف الشديد المفاجىء أثناء وصفه ليوم القيامة .

« بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ »[2]

وحينما يحدق الخطر الشديد بالإنسان ويتملكه الخوف فإن كل اهتمامه يتركز في هذا الخطر المحدق به وفي محاولته النجاة بنفسه منه ، وينصرف اهتمامه عن أي شيء آخر .

« فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ۝ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ »[3]

وتصاحب انفعال الخوف تغيرات كثيرة تحدث في الوظائف الفسيولوجية الحشوية ، وفي ملامح الوجه ، ونبرات الصوت ، وهيئة البدن . وسوف نتناول هذه التغيرات الفسيولوجية والبدنية المصاحبة للانفعال فيما بعد .

ويستجيب الإنسان عادة لمواقف الخطر التي تهدده وتثير فيه انفعال الخوف بالابتعاد عنها والهرب منها . وقد وصف القرآن استجابة الإنسان بالهرب من المواقف المهددة بالخطر والمثيرة للخوف أثناء وصفه للكافرين من الأقوام السابقة الذين حلّ بهم عذاب الله بسبب تكذيبهم لأنبيائهم وإصرارهم على الكفر ،

---

(١) الأحزاب : ١٠ ، ١١ . نزلت هذه الآيات أيام موقعة الخندق .
(٢) الأنبياء : ٤٠ .
(٣) عبس : ٣٣ – ٣٧ .

فتملكهم الذعر ، وسارعوا إلى الفرار محاولين الهرب من العذاب .

« وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ۝ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ »[1]

ووصف القرآن خوف المنافقين ورغبتهم في الهرب من المؤمنين بقوله :

« وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ۝ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ »[2]

وذكر القرآن في وصف خوف موسى عليه السلام من فرعون وهربه منه :

« فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ .. »[3]

« فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ »[4]

ووصف القرآن أيضاً خوف موسى عليه السلام حينما رأى عصاه تنقلب إلى حية فولّى هارباً .

« وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ »[5]

أنواع الخوف :

إن الأشياء التي يخافها الإنسان كثيرة . وقد ذكر القرآن بعض مخاوف الإنسان الهامة مثل الخوف من الله ، والخوف من الموت ، والخوف من الفقر .

(١) الأنبياء : ١١ ، ١٢ .
(٢) التوبة : ٥٦ ، ٥٧ .
(٣) الشعراء : ٢١ .
(٤) القصص : ٢١ .
(٥) النمل : ١٠ .

والخوف من الله خوف هام في حياة المؤمن ، فهو يدفعه دائماً إلى تقوى الله واسترضائه ، واتباع منهجه ، وترك ما نهى عنه ، وفعل ما أمر به . ويعتبر الخوف من الله ركناً في الإيمان به ، وأساساً هاماً في تكوين شخصية المؤمن [1] .

« إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ » [2]

« إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا » [3]

« قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ » [4]

« .. يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ » [5]

« إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا » [6]

ومن أنواع الخوف الشائعة بين الناس الخوف من الموت . وقد أشار القرآن إلى خوف الناس من الموت بقوله :

« قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ .. » [7]

ويبدو الخوف من الموت واضحاً في حالات الحروب ، وخاصة بين الجنود

---

(١) محمد الغزالي : الجانب العاطفي من الإسلام . بحث في الخلق والسلوك والتصوف . القاهرة : دار الكتب الحديثة (د . ت) ، ص ٢٥٢ - ٢٥٩ .
(٢) البينة : ٧ ، ٨ .
(٣) الأنفال : ٢ .
(٤) الزمر : ١٣ .
(٥) النور : ٣٧ .
(٦) الإنسان : ١٠ .
(٧) الجمعة : ٨ .

ـذين يرسلون إلى ميدان القتال . وجاء في القرآن في وصف خوف المنافقين من القتال :

« فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا »(١)

« وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ »(٢)

والخوف من الموت شائع بين الناس عامة لم يسلم منه حتى نبي الله موسى عليه السلام ، فقد خاف أن يقتله فرعون كما ذكر القرآن على لسان موسى عليه السلام .

« وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ »(٣)

« قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ »(٤)

والإيمان الصادق بالله يؤدي إلى التخلص من الخوف من الموت ، لأن المؤمن يعلم يقيناً أن الموت سينقله إلى الحياة الآخرة الخالدة التي ينعم فيها برحمة الله ورضوانه . وإن كان المؤمن يشعر بخوف من الموت فإنما هو في الحقيقة يخشى ألاّ يحظى بمغفرة الله ، وألاّ ينال رحمته ورضوانه . ولا شك أن الخوف من الموت يكون شديداً على العاصين الذين يخشون أن يحل بهم الموت قبل أن يتوبوا . فالخوف من الموت ، إذن ، إنما يرجع في الحقيقة إلى أنه يكون مانعاً

(١) النساء : ٧٧ .
(٢) محمد : ٢٠ .
(٣) الشعراء : ١٤ .
(٤) القصص : ٣٣ .

من التوبة[1] . وعلى ذلك ، فإن الخوف من الموت يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالخوف من الله الذي تكلمنا عنه سابقاً .

« وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ »[2]

« قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ »[3]

والملحدون الذين لا يؤمنون بالبعث ولا بالحياة الآخرة فإنهم يخافون من الموت لاعتقادهم أن الموت انحلال لذواتهم وفناء وعدم لها ، ولذلك فهم يجزعون لهذا المصير الذي سينتهون إليه[4] . وقد يخاف بعضهم الموت لأنهم لا يعرفون إلى أي مصير مجهول سيؤدي بهم الموت . فإن جهلهم بالمصير الذي سينتهون إليه هو في الحقيقة ما يخيفهم ويفزعهم .

والخوف من الفقر أيضاً من المخاوف الشائعة بين الناس . فالإنسان دائم السعي في حياته لكسب قوته وقوت زوجه وأولاده ، ولكي يهيىء لنفسه ولأسرته أسباب الحياة الهانئة الآمنة . ويتحمل الإنسان عادة في سبيل كسب رزقه كثيراً من الجهد والتعب والمشقة ، وإن أي خطر يمكن أن يهدده في رزقه يثير فيه الخوف والفزع . وكان بعض العرب قبل الإسلام يقتلون أولادهم خشية الفقر ، فنهاهم القرآن عن ذلك ، وأخبرهم بأن رزقهم ورزق أولادهم بيد الله .

---

(١) محمد علي التسخيري : التوازن في الإسلام . بيروت : الدار الإسلامية ، ١٩٧٩ ، ص ٥٩ ، ٦٠ .
(٢) المنافقون : ١٠ .
(٣) الجمعة : ٦ ، ٧ .
(٤) يوسف القرضاوي : الإيمان والحياة ، ط ٦ . القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٩٧٨ ، ص ١٤٦ ، ١٤٧ .

« وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا »[1]

« .. وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ .. »[2]

ومن شأن الإيمان بالله أن يقضي على الخوف من الفقر . فالمؤمن الصادق الإيمان يعلم يقيناً أن الرزق بيد الله ، فلا داعي إذن للخوف من الفقر .

« إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ »[3]

« وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ »[4]

وعلى ذلك ، يصبح الخوف الحقيقي الذي يشعر به المؤمن هو الخوف من الله[5] ، لأن إيمانه بالله لا يجعله يخاف الموت ، أو الفقر ، أو الناس ، أو أي شيء آخر في العالم ، وإنما هو يخاف فقط من غضب الله وسخطه وعذابه .

ويؤدي الخوف من الله وظيفة هامة ومفيدة في حياة المؤمن ، إذ يجنبه ارتكاب المعاصي ، فيقيه بذلك من غضب الله وعذابه ، ويحثه على آداء العبادات والقيام بالأعمال الصالحة ابتغاء مرضاة الله . فالخوف من الله يؤدي ، في نهاية الأمر ، إلى تحقيق الأمن النفسي ، إذ يغمر المؤمن شعور الرجاء في عفو الله تعالى ورضوانه .

« إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ »[6]

---

(١) الإسراء : ٣١ .
(٢) الأنعام : ١٥١ .
(٣) الذاريات : ٥٨ .
(٤) الذاريات : ٢٢ .
(٥) محمد علي التسخيري : مرجع سابق ، ص ٦١ .
(٦) فصلت : ٣٠ .

الغضب

الغضب انفعال هام يؤدي وظيفة هامة للإنسان حيث أنه يساعده على حفظ ذاته . فحينما يغضب الإنسان تزداد طاقته على القيام بالمجهود العضلي العنيف[(١)] مما يمكنه من الدفاع عن النفس أو التغلب على العقبات التي تعوقه عن تحقيق أهدافه الهامة . وقد نوّه القرآن باستخدام الشدة مع الكفار الذين يقاومون انتشار الإسلام ، وهي شدة نابعة من الغضب في سبيل الله وفي سبيل نشر دعوته ، فقال في وصف الرسول عليه الصلاة والسلام ومن معه من المؤمنين :

« مُحَمَّدٌ رَسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ .. »[(٢)]

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ »[(٣)]

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ »[(٤)]

وقد جاء في القرآن وصف لانفعال الغضب وتأثيره في سلوك الإنسان ، نجد ذلك فيما ذكره القرآن عن غضب موسى عليه السلام حينما عاد إلى قومه ووجدهم يعبدون العجل الذي صنعه لهم السامريّ من الذهب فألقى الألواح وأمسك برأس أخيه يجره إليه معاتباً .

« وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ

---

(١) يحدث أثناء انفعال الغضب ، والانفعالات الأخرى بعامة ، كثير من التغيرات الفسيولوجية التي من بينها إفراز هرمون الأدرينالين الذي يؤثر على الكبد ويجعله يفرز كميات زائدة من السكر مما يسبب زيادة الطاقة في الجسم ويجعله متهيئاً لبذل المجهودات العنيفة التي يتطلبها الدفاع عن النفس اثناء الغضب ، أو الجري أثناء الخوف .

(٢) الفتح : ٢٩ .

(٣) التوبة : ١٢٣ .

(٤) التحريم : ٩ .

أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ »[١]

« قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى »[٢]

ويميل الإنسان أن يستجيب لانفعال الغضب بتوجيه العدوان إلى العقبات التي تعوق إشباع دوافعه أو تحقيق أهدافه ، سواء كانت هذه العقبات أشخاصاً ، أو عوائق مادية ، أو قيوداً اجتماعية . غير أن كثيراً ما يحدث ان يُنقل الغضب أو يُحوّل إلى أشخاص آخرين لم يكونوا هم في الحقيقة العقبة التي حالت دون تحقيق أهداف الإنسان ، أولم يكونوا هم السبب الحقيقي في إثارة انفعال الغضب . فقد يغضب الطفل ، مثلاً ، من أبيه فينقل غضبه إلى أخيه الأصغر فيضربه لأتفه الأسباب . وتعرف هذه العملية بالنقل[٣] . وقد ورد في القرآن مثال لنقل الغضب فيما قام به موسى عليه السلام حينما غضب من قومه لعبادتهم العجل ، ولكنه وجه غضبه لأول وهلة إلى أخيه هارون عليه السلام ، فأمسك برأسه ولحيته يجره إليه غاضباً .

وقد يحدث أحياناً أن يغضب الإنسان من شخص ما ، ولكنه في الوقت نفسه يخشى أن يظهر غضبه نحوه لما يمكن أن يلحق به من عقاب . وفي مثل هذه الحالات قد ينقل الغضب أيضاً فيتجه إلى أشخاص آخرين ، أو إلى أشياء مادية فيقوم بتحطيمها ، أو قد يتجه إلى ذاته هو نفسه فيقوم ببعض السلوك العدواني الموجه إلى ذاته . وذكر القرآن مثالاً واقعياً يوضح عملية نقل العدوان وتوجيهه

---

(١) الأعراف : ١٥٠ .

(٢) طه : ٩٢ – ٩٤ .

(٣) Displacement

إلى الذات بدلاً من توجيهه إلى الشخص المثير للغضب في الحقيقة ، وذلك حينما وصف القرآن المنافقين وذكر أنهم يعضون أناملهم من غيظهم من المؤمنين . وحينما يعض الإنسان أنامله من الغيظ ، فهو إنما يوجه العدوان إلى نفسه ويقوم بإيذائها – ولو بشكل رمزي – بدلاً من توجيه العدوان إلى الآخرين وإيذائهم .

« هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ »(١)

وحينما يتملك انفعال الغضب الإنسان تتعطل قدرته على التفكير السليم ، وقد تصدر عنه بعض الأفعال أو الأقوال العدوانية التي قد يندم عليها فيما بعد حينما يهدأ غضبه . وقد رأينا فيما ذكرناه سابقاً من الآيات التي تصف غضب موسى عليه السلام أنه القى الألواح وأمسك برأس أخيه ولحيته وجره إليه غاضباً ومعاتباً ظناً منه أنه قصر في نهيهم عما فعلوا من عبادة العجل . فلما زال غضبه وعاد إلى هدوئه وعرف أنه نهاهم عن ذلك ولكنهم استضعفوه وكادوا يقتلونه ، استغفر الله على ما فعل بأخيه قبل أن يعرف حقيقة ما حدث .

« قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ »(٢)

ولما كان الإنسان يفقد القدرة على التفكير السليم أثناء ثورة الغضب ، وفي أثناء الانفعالات الشديدة بعامة ، فإنه يجدر بالإنسان أن يمتنع في أثناء ثورة الغضب عن القيام بأفعال قد يندم عليها فيما بعد ، كما يجب عليه ان يتعلم كيف يسيطر على غضبه . وتتضح من ذلك الحكمة في توصية الله تعالى للناس بالتحكم في انفعال الغضب ، وكظم الغيظ ، كما سنتعرض لذلك فيما بعد عند كلامنا عن السيطرة على الانفعالات .

---

(١) آل عمران : ١١٩ . وفي المعجم الوسيط : « (غاظه) غيظاً : أغضبه أشد الغضب » ، جـ ٢ ، ص ٦٦٨ .
(٢) الأعراف : ١٥١ .

الحب

يلعب الحب دوراً هاماً في حياة الإنسان . فهو أساس الحياة الزوجية ، وتكوين الأسرة ورعاية الأبناء ، وهو أساس التآلف بين الناس وتكوين العلاقات الإنسانية الحميمة ، وهو الرباط الوثيق الذي يربط الإنسان بربه ويجعله يخلص في عبادته ، وفي اتباع منهجه ، والتمسك بشريعته .

ويظهر الحب في حياة الإنسان في صور مختلفة . فقد يحب الإنسان ذاته ، ويحب الناس ، ويحب زوجته وأولاده ، ويحب المال ، ويحب الله والرسول . ونجد في القرآن ذكراً لهذه الأنواع المختلفة من الحب .

حب الذات :

يرتبط حب الذات ارتباطاً وثيقاً بدوافع حفظ الذات . فالإنسان يحب أن يحيي وينمي إمكاناته ويحقق ذاته ، ويحب كل ما يجلب له الخير والأمن والسعادة . وهو يكره كل ما يعوقه عن الحياة والنمو وتحقيق الذات ، وكل ما يجلب له الألم والأذى والضرر . وقد عبر القرآن عن هذا الحب الفطري في الإنسان لذاته ، وميله إلى طلب كل ما يفيدها وينفعها ، وتجنُّب ما يضرها ويسوؤها ، وذلك حينما ذكر على لسان النبي عليه الصلاة والسلام أنه لو كان يعلم الغيب لاستكثر من الخير لنفسه ، ولدفع عنها السوء والأذى .

«.. وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ..»(١)

ومن مظاهر حب الإنسان لذاته حبه الشديد للمال الذي يستطيع أن يحقق به جميع رغباته ، وأن يهيِّيء لنفسه جميع أسباب الراحة والرفاهية في الحياة . وقد ذكر القرآن حبّ الإنسان الشديد للمال .

« وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ »(٢)

---

(١) الأعراف : ١٨٨ .

(٢) العاديات : ٨ .

ومن مظاهر حب الإنسان لذاته أيضاً انه دائم الدعاء للخير لنفسه من مال وصحة وغير ذلك من خيرات الحياة ونعمها ، وإذا أصابه سوء أو بلاء أو فقر تملكه اليأس الشديد وظن أنه لن يتهيأ له بعد ذلك خير .

« لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ »[1]

ومن مظاهر حب الإنسان لذاته أيضاً أنه إذا أصابه بلاء أو أذى انتابه الجزع والهلع على ما حلّ به ، ويئس من الخير ، وكفر بنعم الله السابقة عليه ، وجحد بها . وإذا أصاب سعة في المال فرح به وبطر وحرص عليه حرصاً شديداً ، وامتنع عن التصدق بجزء منه على الفقراء والمحتاجين .

« إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا »[2]

وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ كَفُورٌ »[3]

غير أن حب الإنسان لذاته يجب ألا يتجاوز حدوداً معينة ، ، ومن الضروري أن يُعَادل بحب الناس وحب الخير لهم .

حب الناس :

لكي يستطيع الإنسان أن يعيش في تآلف وانسجام مع الناس الآخرين ، يجب عليه أن يحد من حبه لذاته وأنانيته ، وأن يعمل على موازنته بحبه للناس الآخرين ومودته لهم ، والتعاون معهم ، وتقديم يد المعونة إليهم . ولذلك فإن الله تعالى حينما أشار إلى حب الإنسان لنفسه الذي يظهر في هلعه وجزعه إذا مسّه الشر ، وحرصه على ما يناله من الخير وبخله به ومنعه عن الناس ، أثنى

---

(١) فصلت : ٤٩ .
(٢) المعارج : ١٩ - ٢١ .
(٣) الشورى : ٤٨ .

سبحانه وتعالى بعد ذلك مباشرة على من يقاوم الإسراف في حبه لذاته ، ويتخلص من مظاهر الهلع والجزع إذا مسه شر ، والبخل إذا ناله خير ، وذلك عن طريق التمسك بالإيمان ، وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والتصدق على الفقراء والمساكين والمحرومين ، والابتعاد عما يبغض الله ، فإن من شأن هذا الإيمان أن يوازن بين حب الإنسان لنفسه وحبه للناس بما يحقق مصلحة الفرد والجماعة .

« إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ۝ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ »(1)

ويشيد القرآن بالمحبة والتآلف بين الناس ، وبتعاونهم وتماسكهم وتآخيهم .

« وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا .. »(2)

« .. هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ »(3)

وأثنى القرآن على الأنصار لما أظهروه من محبة صادقة للمهاجرين من المسلمين ، ولتقديمهم يد العون إليهم إذ آووهم وشاركوهم في مساكنهم وأموالهم . وآثروهم على أنفسهم .

« وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا

(1) المعارج : ١٩ — ٢٧ .
(2) آل عمران : ١٠٣ .
(3) الأنفال : ٦٢ ، ٦٣ .

يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ »(١)

ويدعو القرآن المؤمنين إلى أن يحب كل منهم الآخر كما يحب الأخ اخاه . وفي ذلك توجيه للإنسان إلى عدم الإسراف في حبه لنفسه ، وتوجيه له إلى حب إخوانه في الإيمان مما من شأنه أن يعادل حبه لنفسه ، ويحدّ من شدته .

« إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ »(٢)

« وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ..»(٣)

وعن الرسول عليه الصلاة والسلام أنه قال : « لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تُؤمنوا حتى تحابوا . أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام بينكم »(٤) . وقال عليه الصلاة والسلام أيضاً : « والذي نفسي بيده ، لا يؤمن عبد حتى يحب لجاره أو قال لأخيه ما يحب لنفسه »(٥) .

الحب الجنسي :

يرتبط الحب بالدافع الجنسي ارتباطاً وثيقاً ، فهو الذي يعمل على استمرار التآلف والانسجام والتعاون بين الزوجين ، وهو أمر ضروري لاستمرار الحياة الأسرية .

«وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ »(٦)

---

(١) الحشر : ٩ .
(٢) الحجرات : ١٠ .
(٣) التوبة : ٧١ .
(٤) الحديث رقم ٤٢ من مختصر صحيح مسلم للحافظ المنذري ، تحقيق ناصر الدين الألباني ، ط ٣ . بيروت : المكتب الإسلامي ، ١٩٧٧ .
(٥) الحديث رقم ٢٤ ، المرجع السابق .
(٦) الروم : ٢١ .

« زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ . . »(١)

وأشار القرآن أيضاً إلى الحب الجنسي أثناء ذكره لقصة يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز .

« وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ »(٢)

« قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ۝ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ »(٣)

وقد سبق أن بينا أثناء كلامنا عن الدافع الجنسي في الفصل السابق الخاص بدوافع السلوك في القرآن ، أن الإسلام يعترف بالدافع الجنسي ولا ينكره ، وهو بطبيعة الحال يعترف بالحب الجنسي المصاحب له لأنه انفعال فطري في طبيعة الإنسان لا ينكره الإسلام ، ولا يقاومه ولا يكبته ، ولكن الإسلام يدعو فقط إلى السيطرة على هذا الحب والتحكم فيه وذلك عن طريق إشباعه بالطريق المشروع وهو الزواج .

الحب الأبوي :

تكلمنا في الفصل الأول عن دافع الأمومة كأحد الدوافع الفسيولوجية ، إذ يوجد أساس فسيولوجي لدافع الأمومة هو التغيرات الفسيولوجية والبدنية التي تحدث في الأم أثناء الحمل والولادة والرضاعة . وتربط هذه التغيرات

---

(١) آل عمران : ١٤ .

(٢) يوسف : ٣٠ .

(٣) يوسف : ٣٢ ، ٣٣ .

الفسيولوجية والبدنية الأم بوليدها برباط قوي يظهر واضحاً في دافع الأمومة الذي يتميز بحب الأم لأولادها ، وحنوها عليهم ، ورعايتها لهم ، مما سبق أن أشرنا إليه أثناء كلامنا عن دافع الأمومة .

ولما كان الأب لا يرتبط بأبنائه بمثل هذه الارتباطات الفسيولوجية التي تربط الأم بأبنائها ، فإن علماء النفس المحدثين لا يعتبرون دافع الأبوة دافعاً فسيولوجياً كدافع الأمومة ، ولكنهم يعتبرونه دافعاً نفسياً . ويظهر دافع الأبوة واضحاً في حب الآباء لأبنائهم ، فهم مصدر متعة وسرور لهم ، ومصدر قوة وجاه ، وعامل هام في استمرار دور الأب في الحياة ، وفي بقاء ذكراه بعد موته . يتضح ذلك من دعاء زكريا عليه السلام ربه أن يهبه غلاماً يرثه ويرث آل يعقوب .

«قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ۝ وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ۝ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا» (١)

ويلاحظ أن حب البنين جاء في القرآن مقروناً بحب المال في كثير من الآيات ، فكل من البنين والمال من أسباب القوة والمتعة للإنسان .

«ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ..» (٢)

« ثُمَّ رَدَدۡنَا لَكُمُ ٱلۡكَرَّةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَمۡدَدۡنَٰكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ أَكۡثَرَ نَفِيرًا » (٣)

«وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا » (٤)

(١) مريم : ٤ – ٦ .
(٢) الكهف : ٤٦ .
(٣) الإسراء : ٦ .
(٤) نوح : ١٢ .

« ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا »(١)

وأشار القرآن إلى الحب الأبوي أثناء ذكره لقصة نوح عليه السلام ، وما كان يكنه من حب لابنه حينما ناداه في عطف ومحبة وحنان مطالباً له ركوب السفينة لينجو من الغرق .

« .. وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ »(٢)

كما يظهر ذلك الحب أيضاً في دعاء نوح عليه السلام لله تعالى أن ينجي ابنه .

« وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ »(٣)

ويظهر الحب الأبوي واضحاً أيضاً في حب يعقوب عليه السلام لابنه يوسف عليه السلام وأخيه الأصغر ، مما جعل إخوته يغارون منهما ويحقدون عليهما .

« إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ »(٤)

ويظهر هذا الحب الأبوي أيضاً حينما عارض يعقوب في أول الأمر ذهاب يوسف مع اخوته خوفاً عليه .

« قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ »(٥)

---

(١) المدثر : ١١ – ١٣ .
(٢) هود : ٤٢ .
(٣) هود : ٤٥ .
(٤) يوسف : ٨ .
(٥) يوسف : ١٣ .

ويظهر الحب الأبوي أيضاً بوضوح من بكاء يعقوب حزناً وأسفاً على ابنه يوسف حتى فقد بصره .

«وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ»(١)

ويظهر الحب الأبوي عادة في اهتمام الأب بأبنائه ، وفي رعايته لهم ، ونصحهم وتوجيههم إلى ما فيه مصلحتهم وخيرهم . ويضرب لنا القرآن مثالاً لدور الأب الحكيم في نصح أبنائه وتوجيههم بما جاء على لسان لقمان من نصائح حكيمة نصح بها ابنه (٢) .

حب الله :

إن ذروة الحب عند الإنسان ، وأكثره سمواً وصفاءً وروحانية هو حبه لله سبحانه وتعالى ، وشوقه الشديد إلى التقرب منه ، لا في صلواته وتسبيحاته ودعواته فقط ، ولكن في كل عمل يقوم به ، وفي كل سلوك يصدر منه ، إذ يكون توجهه في كل أعماله وتصرفاته إلى الله سبحانه وتعالى راجياً منه تعالى القبول والرضوان .

« قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ »(٣)

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ »(٤)

---

(١) يوسف : ٨٤ .
(٢) انظر سورة لقمان : الآيات : ١٣ – ١٩ .
(٣) آل عمران : ٣١ .
(٤) المائدة : ٥٤ .

وحب المؤمن لله يفوق حبه لأي شيء آخر في الحياة ، يفوق حبه لذاته ولأبنائه ولزوجته ولأبويه ولأهله ولأمواله .

«قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ» (١)

«وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ..» (٢)

وحينما يخلص الإنسان في حبه لله ، يصبح هذا الحب هو القوة الدافعة الموجهة له في حياته ، وتخضع كل أنواع الحب الأخرى لهذا الحب الإلهي ، ويصبح إنساناً يفيض بالحب للناس والحيوان وجميع مخلوقات الله والكون بأسره ، إذ يرى في كل الموجودات من حوله آثار ربه الذي تشده إليه أشواقه الروحية ، وتطلعاته القلبية (٣) .

حب الرسول :

ويأتي بعد حب الله تعالى في ذروة السمو والنقاء والروحانية حب الرسول — صلى الله عليه وسلم — الذي أرسله الله تعالى رحمة للعالمين ، ليهديهم ويزكيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، والذي اصطفاه الله تعالى ليكون خاتم النبيين ،

---

(١) التوبة : ٢٤ .

(٢) البقرة : ١٦٥ .

(٣) يقتصر علماء النفس المحدثون في دراستهم للحب على حب الذات ، والحب الجنسي ، والحب الأسري ، ولكنهم لا يتعرضون لحب الإنسان لله ، وحبه للأنبياء والرسل ، وحبه للمثل الإنسانية العليا كالعدل والصدق الخ ، بالرغم من أن هذه الأنواع من الحب هي من أرقى أنواع الحب الإنساني ، وبها وحدها يتميز الإنسان عن الحيوان .

ورسوله للناس كافة ، وأنزل عليه القرآن الكريم كتاب الله الخالد المصدق لما سبق من الكتب السماوية والمهيمن عليها . ولقد كان الرسول صلوات الله عليه وسلامه المثل الكامل للإنسان في أخلاقه وسلوكه وفيما تحلى به من محاسن الصفات والخصال ، وما أدل على ذلك من وصف القرآن له بأنه على خلق عظيم .

«وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ »[1]

والمؤمن الصادق الإيمان يحمل كل الحب للرسول صلوات الله عليه وسلامه الذي تحمل مشاق الدعوة ، وجاهد جهاد الأبطال حتى نشر الإسلام في ربوع العالم ، ونقل الإنسانية من ظلمات الضلالة إلى نور الهداية . وقد أوصانا القرآن بحب الرسول عليه الصلاة والسلام ، وقرن حب الرسول بحب الله في الآية الرابعة والعشرين من سورة التوبة التي ذكرناها سابقاً أثناء كلامنا عن حب الله .

والمؤمن الصادق الإيمان يتخذ من الرسول عليه الصلاة والسلام المثل الأعلى الذي يقتدي به في أخلاقه ، ويحذو حذوه في سلوكه ، ويهتدي بسيرته العطرة .

«لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا »[2]

الفرح

يشعر الإنسان بانفعال الفرح أو السرور إذا نال ما تمناه ، وحصل ما يحب أن يحصل عليه من مال ، أو نفوذ ، أو نجاح ، أو علم ، أو إيمان وتقوى . فالفرح أمر نسبي يتوقف على أهداف الإنسان في الحياة . فمن كان هدفه في الحياة جمع المال ، والحصول على القوة والنفوذ وغير ذلك من متاع الحياة الدنيا ، كان نجاحه في تحقيق هذه الأهداف باعثاً على فرحه وسروره . ومن كان هدفه في

---

(١) القلم : ٤ .
(٢) الأحزاب : ٢١ .

حياته التمسك بالإيمان والتقوى والعمل الصالح لكي يحصل على السعادة في الحياة الآخرة ، كان ذلك مصدر أمنه وطمأنينته وسروره . وقد ذكر القرآن هذين النوعين من الفرح ، فذكر فرح الكفار بمتاع الحياة الدنيا .

«.. وَفَرِحُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ »[1]

وذكر القرآن أيضاً فرح المؤمنين بما أُنزل إليهم من آيات القرآن الذي يهديهم إلى الحق ، والذي فيه شفاء لهم وهدى ورحمة .

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ »[2]

ومن كان متاع الحياة الدنيا هو مصدر فرحه وسروره ، وهو شأن معظم الناس ، فإنه لا ينعم في الواقع بالحياة السعيدة المطمئنة المستقرة . وذلك لأنه إذا ما أنعم الله عليه بنعمة الصحة وسعة الرزق ووفرة المال شعر بالفرح والسعادة ، وشغله متاع الدنيا ونعمتها عن ذكر الله تعالى وشكره . وإذا ما أصابه ضرر أو بلاء ، وفقد بعض النعم التي كان يتمتع بها ، تملكه اليأس ، وجحد النعم الأخرى التي لا يزال ينعم بها . وهكذا يعيش مثل هذا الإنسان في اضطراب مستمر ، وفي تقلب دائم بين الشعور بالسعادة ، والشعور باليأس .

« وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ۝ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ »[3]

(١) الرعد : ٢٦ .
(٢) يونس : ٥٧ ، ٥٨ .
(٣) هود : ٩ ، ١٠ .

أما من كان مصدر فرحه وسروره هو تمسكه بالإيمان والتقوى والعمل الصالح واتباع منهج الله في حياته فهو يشعر في الواقع بالسعادة الحقيقية المستقرة الدائمة . ويصدق عليه قول الله تعالى :

« مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ »[1]

ويصف القرآن أيضاً السرور الذي يشعر به المؤمن يوم الحساب حينما ينجيه الله تعالى من شر ذلك اليوم ويدخله برحمته في جنة النعيم .

« فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا »[2]

الكره

والكره انفعال مضاد لانفعال الحب ، هو عبارة عن شعور بعدم الاستحسان ، وعدم التقبل ، أو الشعور بالنفور والاشمئزاز ، وبرغبة في الابتعاد عن الموضوعات التي تثير هذا الشعور ، سواء كانت أشخاصاً أو أشياء أو أفعالاً .

وبالرغم من أن الحب هو أساس الحياة الزوجية ، إلا أنه قد يحدث أحياناً بين الزوجين من سوء التفاهم وكثرة المشاحنات والخلافات ما قد يؤدي إلى نشوء الكراهية بينهما . وقد أشار القرآن إلى ما قد يحدث أحياناً بين الأزواج من كراهية ، ودعانا إلى محاولة التغلب عليها حتى يمكن للحياة الزوجية أن تستمر .

« .. وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا »[3]

---

(١) النحل : ٩٦ .
(٢) الإنسان : ١١ .
(٣) النساء : ١٩ .

وقد يكره الإنسان شخصاً آخر أو بعض الأشخصاص الآخرين لاختلافه معهم في الرأي ، أو بسبب الغيرة منهم لتفوقهم عليه في أمر من الأمور ، أو لما يسببونه له من الإحباط ، أو لغير ذلك من الأسباب التي تبعث الكراهية في النفس . وقد كان الكفار والمنافقون يكرهون المؤمنين ويحقدون عليهم .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ۝ هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝ إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ »(١)

والإنسان يحب ذاته ، ويحب الخير لنفسه ، كما أشرنا إلى ذلك سابقاً أثناء كلامنا عن حب الذات . وهو يكره الموت وكل ما يؤذيه ويؤلمه . ولذلك يكره الإنسان القتال لما فيه من احتمال الموت أو إلحاق الأذى بالنفس . وقد وصف القرآن كره الإنسان للقتال في قوله :

« كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ .. »(٢)

وإن إقدام الإنسان على التضحية بنفسه في سبيل عقيدته يقتضي أن تكون قوة العقيدة قد بلغت لديه درجة عالية جداً بحيث أصبحت أكثر قيمة لديه من ذاته ، وأشد قوة من حبه لذاته . ولهذا السبب كان المؤمنون يسارعون إلى

---

(١) آل عمران : ١١٨ – ١٢٠ .

(٢) البقرة : ٢١٦ .

الاستشهاد في سبيل الله ، بينما كره المنافقون الذين لم يستقر الإيمان في قلوبهم أن ينفقوا أموالهم أو أن يضحوا بأنفسهم في الجهاد في سبيل الله ، وآثروا التخلف عن الخروج للجهاد مع رسول الله عليه صلوات الله وسلامه ، كما أخذوا يثبطون غيرهم ويغرونهم بعدم الخروج للجهاد في الحر الشديد .

« فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ »[1]

« .. وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ »[2]

ويؤثر الإيمان أيضاً في نفس المؤمن فيدفعه إلى التخلص من الكراهية لإخوانه المؤمنين . وأشاد القرآن بالمؤمنين الذين جاءوا بعد الأنصار والمهاجرين لدعائهم الله أن يغفر ذنوب المؤمنين الذين سبقوهم ، وألاّ يجعل في قلوبهم كراهية وحقداً للذين آمنوا .

« وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ »[3]

الغيرة

الغيرة انفعال مكدِّر بغيض يشعر به الإنسان عادة إذا شعر أن الشخص المحبوب يوجه انتباهه أو حبه إلى شخص آخر غيره . ومن أنواع الغيرة الشائعة ما يحدث بين الإخوة إذا ما شعر أحدهم أن والديه أو أحدهما يحب أحد إخوته أكثر منه . وقد وصف القرآن الغيرة بين الإخوة فيما رواه عن غيرة إخوة يوسف

---

(١) التوبة : ٨١ .
(٢) التوبة : ٥٤ .
(٣) الحشر : ١٠ .

عليه السلام منه بسبب حب أبيهم يعقوب عليه السلام له ولأخيه الأصغر وتفضيله لهما عليهم .

« إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَـٰلِحِينَ »(١)

وانفعال الغيرة انفعال مركب توجد فيه عناصر من عدة انفعالات أخرى وخاصة انفعال الكره . ولذلك فغالباً ما تكون الغيرة مصحوبة بالكره والحقد والرغبة في إيذاء الشخص الذي يثير الغيرة . وقد وصف القرآن ذلك أيضاً فيما ذكره عن رغبة إخوة يوسف في قتله والتخلص منه ، وفيما قاموا به فعلاً من إلقائه في غور البئر .

الحسد

الحسد انفعال يشعر فيه الإنسان أن شخصاً آخر يمتلك شيئاً ما يتمنى هو أن يكون لديه هذا الشيء بدلاً من أن يكون لهذا الشخص . فقد يحسد الإنسان شخصاً لأنه يمتلك ثروة كبيرة كان يتمنى هو أن تكون لديه هذه الثروة . وقد وصف القرآن هذا النوع من الحسد حينما خرج قارون في زينته على قومه فحسده بعض الناس وتمنوا أن يكون لهم مثل ما لقارون من أموال وذهب .

« فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ »(٢)

ومثل هذا النوع من الحسد شائع بين كثير من الناس . فكثير من الناس يميلون إلى أن يحسدوا غيرهم على ما خصهم الله به من أموال أو أبناء أو صحة

(١) يوسف : ٨ ، ٩ .

(٢) القصص : ٧٩ .

أو نجاح . وقد وصف القرآن حسد اليهود والمشركين للنبي عليه الصلاة والسلام على ما خصه الله به من فضل النبوة ، وحسدهم للمؤمنين على ما خصهم الله به من فضل الإيمان والهداية .

« مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ »(١)

« أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا »(٢)

« وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ »(٣)

وقد يحدث الحسد أيضاً بين الإخوة . فقد يحسد الأخ أخاه على ما فضله الله عليه من مواهب مختلفة . ولذلك كان تحذير يعقوب ليوسف عليهما السلام من أن يقص رؤياه على إخوته خوفاً من حسدهم له ، مما قد يدفعهم إلى إيذائه .

« قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ »(٤)

وإن أول حسد حدث في الأرض هو حسد قابيل لأخيه هابيل حينما تقبل الله قربان هابيل ولم يتقبل قربان قابيل ، مما دفع قابيل إلى قتل أخيه .

---

(١) البقرة : ١٠٥ .

(٢) النساء : ٥٤ .

(٣) البقرة : ١٠٩ .

(٤) يوسف : ٥ .

« وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ »(١)

والحسد ، مثل الغيرة ، يثير الحقد والكراهية ويدفع إلى تمني وقوع الأذى للشخص المحسود . وقد يدفع إلى العدوان وإلحاق الأذى بالشخص المحسود . فقد قتل قابيل أخاه هابيل ، وقام إخوة يوسف عليه السلام بإلقائه في غور البئر (٢) . ولما كان الحسد يؤدي إلى كراهية وعدوان وأذى فقد طلب منا الله تعالى أن نستعيذ من شر الحاسدين .

« .. وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ »(٣)

الحزن

الحزن انفعال مضاد للفرح والسرور ، وهو يحدث إذا فقد الإنسان شخصاً عزيزاً ، أو شيئاً ذا قيمة كبيرة ، أو إذا حلت به كارثة ما ، أو فشل في تحقيق أمر هام . ويشعر الآباء والأمهات عادة بالحزن إذا ما غاب أبناؤهم عنهم ، أو إذا ما لحق بهم أذى أو أصابهم مكروه . وقد أشار القرآن إلى حزن أم موسى عليه السلام حينما ابتعد عنها ابنها بعد أن وضعته في صندوق وألقت به في النهر وقذف به الموج بعيداً عنها .

« فَرَدَدْنَـٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ..»(٤)

« .. فَرَجَعْنَـٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ..»(٥)

ووصف القرآن حزن يعقوب من فقد ابنه يوسف عليهما السلام .

---

(١) المائدة : ٢٧ .

(٢) وقد كان حسد ابليس لآدم عليه السلام وحقده عليه سبباً في إخراجه من الجنة .

(٣) الفلق : ٥ .

(٤) القصص : ١٣ .

(٥) طه : ٤٠ .

« وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ۝ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ۝ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ »[1]

ووصف القرآن أيضاً حالة الحزن التي أَصابت المؤمنين الفقراء الذين جاءوا إلى الرسول عليه صلوات الله وسلامه يطلبون الخروج معه للجهاد ، ولكن الرسول عليه صلوات الله وسلامه قال لهم إنه لا يجد ما يحملهم عليه فتولوا عنه يبكون من الحزن .

« وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ »[2]

ووصف القرآن أيضاً شعور الحزن الذي ألم بأَبي بكر رضي‌الله عنه حينما كان مع الرسول عليه صلوات الله وسلامه في الغار ، وكان الكفار يطاردونهما للفتك بهما .

«.. إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا .. »[3]

وكان النبي صلوات الله عليه وسلامه يشعر بالحزن حينما يرى كفار مكة لا يستجيبون لدعوته بالإِ يمان بالله ، و بما أُنزل عليه من القرآن .

« وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ »[4]

---

(١) يوسف : ٨٤ – ٨٦ .
(٢) التوبة : ٩٢ .
(٣) التوبة : ٤٠ .
(٤) آل عمران : ١٧٦ .

« وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ »[1]

وكان يحزن صلوات الله عليه وسلامه حينما يسمع ما يقول الكافرون في الله تعالى ، وحينما يسمع تكذيبهم له .

« فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ »[2]

« قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ »[3]

ويذكر القرآن في كثير من الآيات الحزن مقروناً مع الخوف ، مما يشير إلى أنهما انفعالان مكدِّران ، إذا ما ألَمّا بالإنسان فإنهما يعكران صفو حياته . كما تشير هذه الآيات أيضاً إلى أن في الإ يمان بالله وتقواه والعمل الصالح وقاية من الخوف والحزن وعلاجاً لهما . ومن أمثلة هذه الآيات :

« قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ »[4]

« يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ »[5]

---

(١) لقمان : ٢٣ .
(٢) يس : ٧٦ .
(٣) الانعام : ٣٣ .
(٤) البقرة : ٣٨ .
(٥) الأعراف : ٣٥ .

« وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ »[1]

« بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ »[2]

الندم

الندم حالة انفعالية تنشأ عن شعور الإنسان بالذنب ، وأسفه على ارتكابه ، ولومه لنفسه على ما فعل ، وتمنيه لو أنه لم يفعل ذلك .

ولوم الإنسان لنفسه ، وندمه على ما فعل من العوامل الهامة في تقويم شخصية الإنسان ، ودفعه إلى تجنب الأفعال المشينة وارتكاب الذنوب التي تسبب له الندم ولوم النفس . ولذلك فقد أقسم الله تعالى بالنفس اللوامة تقديراً لأهميتها في توجيه سلوك الإنسان إلى الابتعاد عن المعاصي التي تسبب له اللوم والندم .

«لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ »[3]

وتقابل النفس اللوامة ما نسميه الضمير ، وما يسميه فرويد والمحللون النفسيون « بالأنا الأعلى » أو « الأنا المثالي » ، وهو الجزء من النفس الذي يحاسب الإنسان على أفعاله ، ويؤنبه على أخطائه ، ويجعله يشعر بالندم على ما ارتكبه من ذنوب .

وأول ندم شعر به الإنسان ما حدث لأبوينا آدم وحواء عليهما السلام وهما في الجنة وقبل هبوطهما إلى الأرض . فقد عصيا أمر ربهما وأكلا من الشجرة

---

(١) الأنعام : ٤٨ .
(٢) البقرة : ١١٢ .
(٣) القيامة : ١ ، ٢ .

التي نهاهما عن الاقتراب منها ، وظهرت سوءاتهما ، فشعرا بالندم وتوجها إلى الله تعالى يطلبان منه المغفرة والتوبة .

« وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَـٰلِدِينَ ۝ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ۝ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ »[1]

« فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَـٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ »[2]

وثاني ندم شعر به الإنسان بعد ذلك حدث عندما قتل قابيل أخاه هابيل ، ثم ندم بعد ذلك على قتله[3] .

« فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ۝ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّـٰدِمِينَ »[4]

ويصف القرآن ما سيحدث يوم القيامة من ندم بعض الكفار لعدم إيمانهم بالله ، وتصديقهم لرسوله صلوات الله عليه وسلامه .

---

(١) الأعراف : ١٩ – ٢٣ .
(٢) البقرة : ٣٧ .
(٣) محمود شلبي : حياة آدم ، ط ٢ . بيروت : دار الجيل (د . ت) ، ص ١٠١ .
(٤) المائدة : ٣٠ ، ٣١ .

« وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ۝ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا »(١)

انفعالات أخرى

وأشار القرآن أيضاً إلى بعض الانفعالات الأخرى غير التي ذكرناها مثل : الحياء ، والخزي ، والزهو أو الكبر.

الحياء انفعال مركب فيه عناصر من الخجل والخوف ، وهو يعتري الإنسان إذا خاف أن يرى الناس فيه ما يمكن أن يعاب أو يذم . وهو من السمات الإنسانية الحميدة ، لأنه يدفع الإنسان إلى تجنب الأفعال القبيحة المعيبة . وقد أشار القرآن إلى انفعال الحياء أثناء ذكره لقصة هرب موسى عليه السلام من فرعون ، والتجائه إلى أرض مدين ، وسقايته لفتاتين كانتا واقفتين بجانب البئر . وعادت إحدى هاتين الفتاتين إليه بعد ذلك تمشي إليه في استحياء ودعته إلى مقابلة أبيها ليأجره على سقايته لهما .

« فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا .. »(٢)

والخزي هو الخجل المصحوب بالشعور بالمهانة والذل والفضيحة والعار . وقد وردت في القرآن كثير من الآيات التي تصف حالة الخزي التي يشعر بها المشركون والمنافقون في الدنيا والآخرة .

« وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ »(٣)

---

(١) الفرقان : ٢٧ ، ٢٨ .
(٢) القصص : ٢٥ .
(٣) البقرة : ١١٤ .

« إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ »(١)

« فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ »(٢)

والزهو حالة انفعالية معقدة نلاحظها بين بعض الناس ، وهي الإعجاب بالنفس والغرور والتعاظم والكبرياء . وقد يصبح الزهو عند بعض الناس سمة سلوكية تتميز بها شخصياتهم . وقد ذمّ القرآن الزهو والكبر والتعالي على الناس .

« وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا »(٣)

« وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ »(٤)

والإعجاب بالنفس يؤدي إلى التعاظم والتعالي على الناس ومعاملتهم في تحقير واستكبار . وقد ذمّ القرآن في كثير من الآيات استكبار المشركين والمنافقين وعنادهم في قبول الحق تكبراً . ومن أمثلة هذه الآيات :

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ »(٥)

---

(١) المائدة : ٣٣ .
(٢) فصلت : ١٦ .
(٣) الإسراء : ٣٧ .
(٤) لقمان : ١٨ . لا تصعّر خدك للناس أي لا تمل خدك للناس تكبراً .
(٥) المنافقون : ٥ .

«وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ»(١)

ويعطينا القرآن في قصة فرعون نموذجاً من الشخصيات المتطرفة في الزهو والتعالي والاستكبار .

« فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ۝ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ » (٢)

« وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى . . »(٣)

«وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ »(٤)

التغيرات البدنية المصاحبة للانفعال

إذا انفعل الإنسان حدثت تغيرات فسيولوجية كثيرة في بدنه ، كما حدثت تغيرات في هيئة بدنه الخارجية ، وفي ملامح وجهه . ومن بين هذه التغيرات الفسيولوجية التي تحدث أثناء الانفعال شدة دقات القلب ، وتقلص الأوعية الدموية في الأمعاء والأحشاء ، واتساع الأوعية الدموية على سطح البدن والأطراف مما يؤدي إلى تدفق كميات كبيرة من الدم إلى القلب . وامتلاء القلب بالدم يسبب ازدياداً في حجمه مما يجعله يصل إلى القصبة الهوائية ، حيث يوجد القلب من الوجهة التشريحية تحت تشعب القصبة الهوائية بما يقرب من سنتيمتر ونصف(٥) . وقد وصف القرآن ما يحدث في القلب أثناء انفعال الخوف من

(١) الجاثية : ٧ ، ٨ .

(٢) النازعات : ٢٣ ، ٢٤ .

(٣) القصص : ٣٨ .

(٤) الزخرف : ٥١ ، ٥٢ .

(٥) جمال ماضي أبو العزائم : القرآن وعلم النفس ، ندوة علم النفس والإسلام ، المجلد الأول . من مطبوعات كلية التربية بجامعة الرياض (على الآلة الكاتبة) ، ١٩٧٨ م ، ص ٢١ .

اضطراب شديد بسبب شدة الخفقان وكثرة تدفق الدم إليه مما يزيد من حجمه ويجعله يقترب من القصبة الهوائية .

« إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۝ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا »[1]

ويصف القرآن حالة الفزع التي تصيب الناس يوم القيامة .

« وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ »[2]

ومن التغيرات البدنية التي تصاحب الانفعال أيضاً تغير ملامح الوجه ، بحيث يستطيع الإنسان أن يلاحظ حالة الانفعال من التغيرات التي تحدث في ملامح وجه المنفعل . وقد أشار القرآن إلى هذه الظاهرة في كثير من الآيات . ومن أمثلة ذلك :

« وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا .. »[3]

« وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَـٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ »[4]

وفي القرآن آيات كثيرة تصف انفعالات الحزن والكآبة ، والسرور والسعادة التي يشعر بها الناس يوم القيامة ، وما يظهر على ملامح وجوههم من تعبيرات

---

(١) الأحزاب : ١٠ ، ١١ . تصف هاتان الآيتان الخوف الذي انتاب المسلمين أثناء موقعة الخندق .

(٢) غافر : ١٨ .

(٣) الحج : ٧٢ .

(٤) الزخرف : ١٧ .

تعكس حالتهم الانفعالية . قال تعالى في وصف حالة الحزن والكآبة التي تنتاب الكافرين يوم القيامة لما ينتظرون أن يلحق بهم من العذاب ، فتبدو وجوههم عابسة مسودة من الحزن والكآبة :

« وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ..» (١)

« وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ۝ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ » (٢)

« وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ » (٣)

ويصف القرآن أيضاً حالة السرور والسعادة التي تظهر على وجوه المؤمنين يوم القيامة لما ينتظرهم من نعيم ، فيبدون ضاحكين مستبشرين .

« وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ » (٤)

« إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ » (٥)

« وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ » (٦)

« وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ » (٧)

---

(١) الزمر : ٦٠ .

(٢) القيامة : ٢٤ ، ٢٥ . « باسرة » معناها كالحة شديدة العبوس . « ويفعل بها فاقرة » يعني تحل بها داهية تكسر فقرات الظهر .

(٣) عبس : ٤٠ – ٤٢ . « غبرة » : غبار ، « وقترة » : كدورة . والمعنى أن وجوههم يغشاها سواد من الخزي والمذلة والهوان .

(٤) عبس : ٣٨ ، ٣٩ . مسفرة : مضيئة مشرقة .

(٥) المطففين : ٢٢ – ٢٤ .

(٦) الغاشية : ٨ – ١٠ .

(٧) القيامة : ٢٢ ، ٢٣ .

ومن التغيرات البدنية التي تصاحب حالة الانفعال ، وخاصة انفعال الخوف اتساع حدقة العين .

« وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ۝ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ »(١)

« وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ »(٢)

وقوله تعالى « تشخص فيه الأبصار » و« لا يرتد إليهم طرفهم » وصف دقيق لما يحدث أثناء انفعال الخوف من اتساع حدقة العين ، وشدة التحديق بها ، وعدم غمضها لشدة الفزع من هول ما ترى .

وتتغير أثناء الانفعال هيئة البدن كله على وجه عام . ففي حالة السرور ، والفرح ، مثلاً ، يبدو الإنسان نشيطاً ، منتصب القامة ، مرفوع الرأس ، متسع الصدر . وفي حالة الخزي والشعور بالذنب والندم ، يبدو الإنسان ذليلاً ، مطاطيء الرأس ، منكمش الجسم كأنما يريد أن يتوارى عن الأنظار . ونجد في القرآن وصفاً لهذه التغيرات في هيئة البدن التي تصاحب الانفعال .

« وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ »(٣)

« وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ .. »(٤)

---

(١) ابراهيم : ٤٢ ، ٤٣ .
(٢) الأنبياء : ٩٧ .
(٣) السجدة : ١٢ .
(٤) الشورى : ٤٥ .

« خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٌ .. » (١)

ومن التغيرات البدنية التي تحدث أثناء انفعال الخوف أيضاً انتصاب شعر الرأس وجميع الشعر على سطح الجلد . يظهر ذلك واضحاً عند بعض الحيوانات كالقطط التي يلاحظ فيها انتصاب شعرها في حالة انفعال الخوف . ويحدث مثل ذلك أيضاً عند الإنسان ولكن في صورة أقل وضوحاً مما نراه لدى الحيوانات . وانتصاب الشعر الموجود على سطح جلدنا أثناء انفعال الخوف هو ما يجعلنا نحس بنوع من القشعريرة أثناء انفعال الخوف . وقد ذكر القرآن هذا الشعور بالقشعريرة المصاحب لانفعال الخوف .

« ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ » (٢)

وقوله تعالى : « ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله » إشارة إلى حالة الاسترخاء والاطمئنان اللتين يحدثهما في النفس ذكر الله والتوجه إليه بالعبادة والتسبيح .

وقد يعبر الإنسان أيضاً عن انفعالاته بحركات يديه ، وقد ذكر القرآن ما يقوم به الإنسان في حالة الندم من تقليب كفيه .

« وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدًا » (٣)

وقد يضع الإنسان يده في فمه ليعبر عن استغرابه واستنكاره . قال تعالى

---

(١) القلم : ٤٣ .
(٢) الزمر : ٢٣ .
(٣) الكهف : ٤٢ .

« أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ »[1]

ويحدث أيضاً أثناء الانفعال أن تتعطل عملية التفكير ، فلا يستطيع الإنسان أن يفكر فيما يجابهه من مشكلات تفكيراً سليماً كما يحدث عادة في الأوقات التي لا يكون فيها منفعلاً . وقد أشار القرآن إلى تعطيل عملية التفكير أثناء الانفعال في الآية رقم ٤٣ من سورة ابراهيم التي ذكرناها سابقاً والتي فيها يقول القرآن :

« .. لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ »[2]

وتشير عبارة «وأفئدتهم هواء إلى تعطيل عملية التفكير أثناء الخوف ، إذ تصبح عقول الظالمين خالية من العقل والتفكير[3] .

السيطرة على الانفعالات

بالرغم من أن للانفعالات وظائف هامة في حياة الإنسان إذ أنها ، كما أشرنا إلى ذلك من قبل ، تعينه على حفظ ذاته وبقائه ، إلا أن الإسراف فيها يضر بصحة الإنسان البدنية والنفسية . فانفعال الخوف ، مثلاً ، مفيد للإنسان لأنه يدفعه الى اتقاء الأخطار التي تهدد حياته ، أما إذا أسرف الإنسان في خوفه فأصبح يخاف من أشياء كثيرة ليس فيها ما يهدده بأخطار حقيقية ، فإن الخوف يصبح في هذه الحالة مضراً . ووجود مثل هذه المخاوف الكثيرة يعتبر في العادة دليلاً على اضطراب الشخصية . وقد بينت الدراسات الحديثة في الطب النفسجسمي (السيكوسوماتي) أن اضطراب الناحية الانفعالية عند الإنسان من الأسباب الهامة في نشوء كثير من أعراض الأمراض البدنية . وأشارت بعض الإحصائيات

(١) ابراهيم : ٩ .
(٢) ابراهيم : ٤٣ .
(٣) تفسير القرطبي ، جـ ٩ ، ص ٣٧٧ ، ٣٧٨ ؛ تفسير الجلالين ، ص ٢١٥ .

أن نسبة كبيرة من المرضى الذين يترددون عادة على عيادات الأطباء إنما هم يشكون أساساً من اضطرابات انفعالية ناشئة عن مشكلاتهم النفسية ، وأن ما يحتاج إليه هؤلاء المرضى ليس علاجاً طبياً ، وإنما هم في الحقيقة في حاجة إلى علاج نفسي . وقد أصبح من المعروف الآن بين الأطباء أن أحسن ما ينصح به هؤلاء المرضى هو التخلص من القلق . وقد سبق القرآن العلوم الطبية والنفسية الحديثة في الاهتمام بتوجيه الناس إلى التحكم في انفعالاتهم والسيطرة عليها لما في ذلك من فوائد صحية كثيرة لم تعرف معرفة علمية دقيقة إلا في العصر الحديث .

السيطرة على الخوف من الموت :

حرص القرآن على أن يوجه الناس إلى عدم الخوف من الأمور التي من شأنها أن تثير الخوف في الناس عادة ، كالموت ، والفقر . ففيما يتعلق بالخوف من الموت فقد بين لنا القرآن أن الحياة الدنيا حياة فانية ، وأن نعيمها زائل ، وأن الحياة الآخرة هي الحياة الباقية ، وأن نعيمها خالد لا يزول ، وأن الموت ليس إلا مرحلة تنقلنا من هذه الحياة الفانية إلى الحياة الباقية الخالدة . ولذلك فإن المؤمن الصادق الإيمان لا يخاف الموت ، لأنه يعلم أن الموت سينقله إلى نعيم الحياة الخالدة الباقية التي وعد الله بها عباده المتقين .

« وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ »(١)

« وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ »(٢)

« يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ »(٣)

---

(١) العنكبوت : ٦٤ .
(٢) الأنعام : ٣٢ .
(٣) غافر : ٣٩ .

وكان هذا الإيمان بالحياة الآخرة الباقية وما وعد الله تعالى المؤمنين فيها من نعيم خالد من العوامل الهامة التي جعلت المسلمين الأوائل يقاتلون في سبيل الله في شجاعة وإقدام غير هيابين من الموت ، وكانوا يندفعون في جرأة بالغة بين صفوف الكفار وهم يتمنون الشهادة في سبيل الله والفوز بنعيم الجنة .

« وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ »(١)

« وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ »(٢)

« فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا »(٣)

« إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ »(٤)

وكان المؤمنون الصادقو الإيمان يعلمون يقيناً أن الموت حق ، وأنه لا مفر منه ، فكانوا يتقبلونه كأمر واقعي محتوم بلا خوف أو جزع ، وكانوا يعلمون أنه مهما طالت أعمارهم في الحياة الدنيا فهي إلى زوال ، وأن الموت سينقلهم الى حياة البقاء والخلود .

(١) آل عمران : ١٦٩ ، ١٧٠ .
(٢) آل عمران ١٥٧ ، ١٥٨ .
(٣) النساء : ٧٤ .
(٤) التوبة : ١١١ .

« كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ »[1]

« كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ »[2]

« كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ »[3]

« قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا »[4]

« أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ »[5]

ولقد كان عدم خوف المؤمنين من الموت ، وحرصهم الشديد على نيل الشهادة في الجهاد في سبيل الله من أهم العوامل التي ساعدت على انتصارهم في حروبهم وانتشار الإسلام السريع في العالم .

السيطرة على الخوف من الفقر :

وأوصانا القرآن أيضاً بعدم الخوف من الفقر ، فالرزق بيد الله سبحانه وتعالى ، وهو الرزاق ذو القوة المتين .

« إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ »[6]

« وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ »[7]

---

(١) آل عمران : ١٨٥ .
(٢) الأنبياء : ٣٥ .
(٣) العنكبوت : ٥٧
(٤) الأحزاب : ١٦ .
(٥) النساء : ٧٨ .
(٦) الذاريات : ٥٨ .
(٧) الذاريات : ٢٢ .

« وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ »[١]

« وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ »[٢]

« ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ »[٣]

« مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ »[٤]

السيطرة على الغضب :

وأوصانا القرآن أيضاً بالتحكم في انفعال الغضب . فحينما يغضب الإنسان يتعطل تفكيره ، ويفقد قدرته على إصدار الأحكام الصحيحة . ويحدث أيضاً أثناء الغضب – وكذلك أثناء الخوف والانفعالات الأخرى بعامة كما أشرنا إلى ذلك من قبل – أن تفرز الغدتان الكظريتان هرمون الأدرينالين الذي يؤثر على الكبد ويجعله يفرز كمية أكبر من السكر مما يؤدي إلى زيادة الطاقة في الجسم ويجعله أقدر على بذل المجهود العضلي اللازم للدفاع عن النفس . وإن زيادة الطاقة في الجسم أثناء انفعال الغضب يجعل الإنسان أكثر استعداداً وتهيؤاً للاعتداء البدني على من يثير غضبه . ولذلك كان التحكم في انفعال الغضب مفيداً من عدة وجوه . فأولاً ، يحتفظ الإنسان بقدرته على التفكير السليم ، وإصدار الأحكام الصحيحة ، فلا يتورط في أعمال أو أقوال يندم عليها فيما بعد . وثانياً ، يحتفظ الإنسان باتزانه البدني ، فلا ينتابه التوتر البدني الناشئ

---

(١) هود : ٦ .
(٢) العنكبوت : ٦٠ .
(٣) العنكبوت : ٦٢ .
(٤) فاطر : ٢ ، ٣ .

عن زيادة الطاقة التي تسببها زيادة إفراز الكبد للسكر ، وبذلك يتجنب الإنسان الاندفاع في القيام بأعمال عنيفة كالاعتداء البدني على الخصم الذي كثيراً ما يحدث أثناء انفعال الغضب . ثالثاً ، إن التحكم في انفعال الغضب وعدم الاعتداء على الغير ، بدنياً أو لفظياً ، والاستمرار في معاملتهم بالحسنى وفي هدوء من شأنه أن يبعث الهدوء في نفس الخصم ، ويدفعه إلى مراجعة نفسه . ولا شك أن ذلك يؤدي إلى كسب صداقة الناس ومحبتهم ، ويساعد على حسن العلاقات الإنسانية بوجه عام .

« .. ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ »(١)

ورابعاً ، إن التحكم في انفعال الغضب مفيد أيضاً من الناحية الصحية لأنه يجنب الإنسان كثيراً من الأمراض البدنية التي تحدث عادة نتيجة للانفعالات الشديدة كما سبق أن أشرنا إلى ذلك .

وتتضح من كل ما تقدم الحكمة في دعوة الله سبحانه وتعالى الناس إلى التحكم في الغضب وإلى العفو عن الناس ، ووعد من يتحكم في غضبه ثواباً عظيماً .

« وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ »(٢)

« فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ »(٣)

---

(١) فصلت : ٣٤ .
(٢) آل عمران : ١٣٣ ، ١٣٤ .
(٣) الشورى : ٣٦ ، ٣٧ .

« وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ »[1]

« وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ »[2]

« .. فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ »[3]

« .. وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ »[4]

« .. فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ »[5]

ولقد كان لدعوة القرآن إلى كظم الغيظ والعفو عن الناس تأثير كبير في نفوس المسلمين ، فانتشر بينهم التسامح . نذكر مثالاً لذلك ما يروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه . فقد قال له رجل : «إنك لا تقضي بالعدل ، ولا تعطي الجزل ، فتغير عمر ، وظهر ذلك على وجهه . فقال له أحد الحاضرين : يأمير المؤمنين ، ألم تسمع قول الله سبحانه وتعالى : (خذ العفو ، وأمر بالمعروف ، وأعرض عن الجاهلين) . فقال عمر : صدقت ، وكأنما كانت نار فأطفئت »[6] .

السيطرة على الحب :

وأوصانا القرآن أيضاً بالتحكم في حبنا لأهلنا من آباء وأزواج وأولاد ، وفي حبنا لأصدقائنا وعشيرتنا ووطننا وأموالنا وممتلكاتنا حتى لا ينسينا كل ذلك حبنا لله ، ويلهينا عن طاعته والجهاد في سبيله .

---

(١) الشورى : ٤٣ .
(٢) الشورى : ٤٠ .
(٣) الحجر : ٨٥ .
(٤) النور : ٢٢ .
(٥) المائدة : ١٣ .
(٦) محمد الصادق عفيفي : الفكر الإسلامي . مبادئه ، مناهجه ، قيمه ، أخلاقياته . القاهرة : مكتبة الخانجي ، (د . ت) ، ص ٢٥٦ .

«يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ» (١)

«قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ» (٢)

ويؤكد القرآن على أن حب المؤمن لله تعالى يفوق حبه لكل الناس الآخرين حتى أقربهم إليه كالآباء والأبناء والأقارب والأصدقاء . وإذا ما تعارض حب المؤمن لله مع حبه لأي من هؤلاء جميعاً فإنه يختار حب الله .

«لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ» (٣)

وضرب الله مثلاً بابراهيم عليه السلام ومن آمن معه على سيطرة الإنسان على حبه لأهله وترجيح كفة حب الله على حب الأهل .

«قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا

(١) التغابن : ١٤ ، ١٥ . «إن من ازواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم» بمعنى انكم تحبونهم وتعملون على تحقيق رغباتهم مما قد يصرفكم عن طاعة الله ، فكونوا منهم على حذر .

(٢) التوبة : ٢٤ .

(٣) المجادلة : ٢٢ .

بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ . .»[(١)]

السيطرة على انفعالات أخرى :

وأوصانا القرآن أيضاً بعدم الزهو والكبرياء . وقد ذكرنا سابقاً بعض الآيات التي نهانا القرآن فيها عن الزهو والكبرياء والتعالي على الناس ، وذلك أثناء كلامنا عن انفعال الزهو .

وأوصانا القرآن أيضاً بالسيطرة على كل من انفعال الحزن والفرح . فلا يجب أن نسرف في الحزن على ما يصيبنا من نوائب الدهر وكوارثه ، سواء في النفس أو الأبناء أو الأموال والممتلكات . كما لا يجب أن نسرف في الفرح على ما يأتينا من خير ، أو نناله من نجاح أو تفوق أو شهرة أو جاه ، ولا يجب أن يدفعنا ذلك إلى الزهو والاستكبار والتفاخر . فإن كل ما يلحق بنا من أذى أو مصيبة ، أو نناله من خير فهو مكتوب في اللوح المخطوط ، وثابت في علم الله من قبل أن يحدث لنا . وما يجدي حزننا في تغيير ما حدث ، أو في تغيير نتائجه ، كما لا يجدي فرحنا وزهونا في الاستزادة من الخير ، أو في الاحتفاظ به وعدم زواله ، إذ أن كل شيء من ذلك إنما هو في علم الله تعالى وحده ، ومرهون بمشيئته وحده .

« مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ »[(٢)]

وعلى وجه عام ، فإن الله سبحانه وتعالى يوصينا بضبط انفعالاتنا ، والتحكم فيها ، والسيطرة عليها . وإن الإيمان بالله إيماناً صادقاً ، واتباع منهجه الذي رسمه لنا في القرآن ، وبينه لنا الرسول صلوات الله عليه وسلامه يمدنا بعزيمة

(١) الممتحنة : ٤ .

(٢) الحديد : ٢٢ ، ٢٣ .

وقوة إرادة تمكننا من التحكم في انفعالاتنا والسيطرة عليها . إن المؤمن الصادق الإيمان لا يخاف إلا من الله تعالى وحده . فهو لا يخاف الموت ، أو الفقر ، أو الناس ، أو أي شيء آخر في الوجود . وهو يكظم غضبه فلا يثور لأتفه الأسباب ، وهو لا يغضب إلا لما يغضب الله . وهو يسيطر على حزنه لأنه يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له . وهو متواضع لأنه يعلم حق قدره ، فلا يزهو بنفسه ، ولا يتفاخر ، ولا يستكبر .

وقد وردت في القرآن آيات كثيرة تبين أن الإيمان بالله وقاية من الخوف وعلاج له . وسوف نعود إلى ذلك فيما بعد في الفصل العاشر الخاص بالعلاج النفسي في القرآن .

الفصل الثالث

الإدراك الحسّي في القرآن

لقد أرادت مشيئة الله سبحانه وتعالى أن يزود الإنسان والحيوان بكل الإمكانات والوظائف الضرورية للحياة والبقاء ، فزودهما ، بالإضافة إلى الدوافع والانفعالات ، بأجهزة يدركان بها العالم الخارجي وما يدور حولهما من أحداث ، كما يدركان بها عالمهما الداخلي وما يحدث فيه من تغيرات . والإدراك الحسي وظيفة هامة في الحياة ، فبه يدرك الكائن الحي ما يؤذيه فيتجنبه ، وما يفيده فيسعى إليه .

ويتم إدراكنا للعالم الخارجي بالحواس الظاهرة وهي السمع والبصر والشم والذوق والحواس الجلدية ، كما يتم عن طريق الإحساس الداخلي إدراكنا لما يحدث في بدننا من اختلال في الاتزان العضوي والكيميائي كالجوع والعطش ، مما يجعلنا نقوم بالسلوك الملائم سواء لظروف العالم الخارجي ، أو لسد النقص في أنسجة البدن وإعادته إلى حالته السابقة من الاتزان العضوي والكيميائي .

والإدراك الحسي وظيفة يشترك فيها كل من الإنسان والحيوان . غير أن الله سبحانه وتعالى قد خص الإنسان بوظيفة إدراكية أخرى هامة يتميز بها عن الحيوان ، ألا وهي العقل ، الذي به يستطيع الإنسان أن يعلو بإدراكه عن الأشياء المحسوسة ، فيفكر في المعاني المجردة كالخير والشر ، والفضيلة والرذيلة ، والحق والباطل ، والذي به يستطيع أن يستدل على المبادئ العامة من الملاحظات والتجارب . فبالعقل ، مثلاً ، يستطيع الإنسان أن يستدل من بديع خلق الله تعالى للكون بأسره وللإنسان نفسه ، على وجود الخالق وقدرته سبحانه وتعالى .

«سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ »[1]

غير أن قدرة العقل الإنساني على الإدراك والمعرفة محدودة ، ثم إن تفكير الإنسان معرض للخطأ . فقد تطرأ ظروف معينة تعوق الإنسان عن التفكير السليم ، ويصبح الإنسان محتاجاً إلى من يرشده ويوجهه ويعلمه . ولذلك أرسل الله سبحانه وتعالى الأنبياء والرسل إلى الناس ، وأنزل الكتب المقدسة لكي يرشدهم إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم .

«وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ..»[2]

«إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ »[3]

« كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ »[4]

فالحواس والعقل ، إذن ، وسيلتان يستعين بهما الإنسان في الإدراك والمعرفة ، ولكنهما غير كافيتين وحدهما للوصول إلى المعرفة اليقينية في كثير من الأمور . فهما لا يستطيعان ، مثلاً ، معرفة الأمور الغيبية التي لا يستطيع أن يدركها الإنسان بحسه أو بعقله ، ولذلك يصبح من الضروري أن يتلقى الإنسان المعرفة من الله سبحانه وتعالى لكي ينظم حياته على الأرض بما يكفل له تحقيق السعادة في الدنيا والآخرة . ويتلقى الإنسان هذه المعرفة من الله تعالى عن طريق الرسل والأنبياء ، أو عن طريق الإلهام والفيض الإلهي الذي يخص الله به بعض أوليائه .

وسنحاول أن نتناول في هذا الفصل موضوع الإدراك الحسي في القرآن ،

---

(١) فصلت : ٥٣ .
(٢) النحل : ٣٦ .
(٣) فاطر : ٢٤ .
(٤) البقرة : ١٥١ .

مؤجلين الكلام عن التفكير والمعرفة الربانية التي يتلقاها الإنسان عن الله تعالى عن طريق الوحي والإلهام إلى فصول تالية .

الحواس في القرآن :

يولد الطفل لا يعلم شيئاً ، ثم لا يلبث أن تبدأ حواسه في أداء وظائفها ، فهو يتأثر بما يقع عليه من مؤثرات خارجية محدثة فيه إحساسات مختلفة هي الأساس الذي يتكون منه فيما بعد إدراكه ومعرفته بالعالم الخارجي . وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة في كثير من الآيات ، نذكر منها على سبيل المثال :

« وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ »[1]

« وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ »[2]

« قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ »[3]

« ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ »[4]

واكتفى القرآن بذكر السمع والبصر كأداتين من أدوات الإحساس وذلك ، أولاً ، لأهميتهما القصوى في عملية الإدراك الحسي ؛ وثانياً ، لأن في ذكرهما ما يكفي للدلالة على أهمية جميع الحواس في عملية الإدراك الحسي . وهذه خاصة من خصائص أسلوب القرآن الذي يتميز بالإيجاز البليغ والذي يكتفي

(١) النحل : ٧٨ .
(٢) المؤمنون : ٧٨ .
(٣) الملك : ٢٣ .
(٤) السجدة : ٩ .

بالتلميح والإشارة إلى الحقائق الأساسية العامة ، ويتغاضى عن التفصيلات . فليس القرآن كتاب علم ، وانما هو كتاب هداية للناس . وإنه ليكفي هنا في هذا الصدد للدلالة على نعمة الله تعالى على الإنسان بتزويده بأدوات للإدراك الحسي أن يشير القرآن فقط إلى السمع والأبصار .

ويأتي ذكر السمع في القرآن قبل الأبصار في كثير من الآيات ، وذلك ، فيما يبدو ، لعدة اعتبارات . فأولاً ، إن السمع أهم من البصر في عملية الإدراك الحسي ، والتعلم ، وتحصيل العلوم . فمن الممكن للإنسان إذا فقد بصره أن يتعلم اللغة ويحصل العلوم ، ولكنه إذا فقد سمعه تعذر عليه تعلم اللغة وتحصيل العلوم . ومما يدل على أهمية السمع في الإدراك وفي تعلم اللغة – وهي من أهم أدوات التفكير وتحصيل العلوم – أن القرآن ذكره وحده مع العقل للدلالة على العلاقة الوثيقة بينه وبين العقل .

« وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ » (١)

ولهذه العلاقة الوثيقة بين السمع والعقل فإن القرآن يذكر في كثير من الآيات السمع بمعنى الفهم والتدبر والتعقل .

« رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا » (٢)

« إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ » (٣)

« وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ .. » (٤)

« وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ

---

(١) الملك : ١٠ .
(٢) آل عمران : ١٩٣ .
(٣) النور : ٥١ .
(٤) الجن : ١٣ .

ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ »[١]

«.. وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ »[٢]

وثانياً ، إن حاسة السمع تعمل عقب الولادة مباشرة حيث يستطيع الوليد أن يسمع الأصوات عقب ولادته مباشرة ، بينما يحتاج الوليد إلى فترة من الزمن لكي يستطيع أن يرى الأشياء بوضوح[٣] . وثالثاً ، إن حاسة السمع تؤدي وظيفتها باستمرار دون توقف ، بينما حاسة البصر قد تتوقف عن أداء وظيفتها إذا أغمض الإنسان عينيه ، أو إذا نام . ويستطيع الصوت الشديد أن يوقظ الإنسان من نومه . ولذلك فقد ذكر الله تعالى في قصة أهل الكهف أنه ضرب على آذانهم حتى يستغرقوا في النوم فلا يوقظهم صوت :

« فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا »[٤]

ورابعاً ، إن حاسة السمع تسمع في كل الأوقات سواء في الضوء أو في الظلام ، بينما حاسة البصر لا ترى إلا في الضوء[٥] .

ويذكر القرآن السمع مفرداً ، بينما يذكر الأبصار في معظم الآيات في صيغة الجمع ، وذلك من أدلة الإعجاز في أسلوب القرآن ، حيث أن حاسة السمع تستقبل الأصوات الصادرة من جميع الجهات ، بينما العين لا ترى إلا إذا

---

(١) المائدة : ٨٣ .

(٢) الأعراف : ١٠٠ .

(٣) بينت البحوث الفسيولوجية الحديثة أن الطفل الحديث الولادة يستجيب للأصوات العالية ، ولكنه لا يستجيب للأصوات الخافتة الضعيفة . وبينت هذه البحوث ايضاً ايضاً ان الصور لا تبدو في عيني الطفل الحديث الولادة واضحة جلية حتى الشهر السادس إذ أن نمو التكوين الشبكي لا يتم إلا في نهاية الشهور الستة الأولى بعد الميلاد . وسنتعرض لهذا الموضوع فيما بعد عند كلامنا على النمو في القرآن وذلك في الفصل التاسع الخاص بالشخصية .

(٤) الكهف : ١١ .

(٥) محمد متولي الشعراوي : معجزة القرآن ، جـ ١ ، القاهرة : كتاب اليوم ، ١٩٨٠ ، ص ٩٥ – ٩٨ .

اتجه الإنسان ببصره نحو الشيء الذي يريد أن يراه[1] . وإذا حدث صوت في مكان يجتمع فيه جمع من الناس فإنهم جميعاً يسمعون نفس الصوت تقريباً ، بينما هم يرون الشيء الواحد من زوايا مختلفة ، وبذلك لا تكون رؤيتهم للشيء الواحد متماثلة تماماً . كما أنهم قد يرون في نفس الوقت أشياء مختلفة تبعاً للجهة التي ينظرون إليها . وفضلاً عن ذلك ، فنحن إذا سمعنا صوتاً صادراً من مكان يقع أمامنا مباشرة ، فإن الموجات الصوتية تصل إلى الأذنين في وقت واحد ، كما أن شدة تأثيرها على طبلتي الأذنين يكون متماثلاً . أما إذا نظرنا إلى شيء ما موضوع أمامنا فإن الصورة التي تنطبع على شبكية العين اليمنى تختلف عن الصورة التي تنطبع على شبكية العين اليسرى . فالعين اليمنى ترى الشيء من جانبه الأيمن ، بينما ترى العين اليسرى الشيء من جانبه الأيسر[2] .

الحواس الجلدية :

بينت الدراسات الفسيولوجية الحديثة أنه توجد في بشرة الإنسان خلايا حسية كثيرة مختلفة الشكل ، وهي متخصصة لاستقبال أنواع معينة من الإحساسات . فبعضها يحس بالحرارة ، وبعضها يحس بالبرودة ، وبعضها يحس باللمس والضغط ، وبعضها يحس بالألم . وقد أشار القرآن إلى وجود أعضاء الحس الخاصة بالإحساس بالألم في بشرة الإنسان ، وذلك في قوله تعالى :

« إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ

---

(١) محمد اسماعيل ابراهيم : القرآن وإعجازه العلمي . القاهرة : دار الفكر العربي ، ١٩٧٧ ، ص ١٠٩ — ١١١ ؛ محمد متولي الشعراوي : مرجع سابق ، ص ٩٥ — ٩٨ .

(٢) محمد عثمان نجاتي : مرجع سابق ، ص ٣٠٠ — ٣٠٢ . إذا نظرت إلى شيء أمامك مباشرة فإنك تستطيع أن تلاحظ الفرق فيما تراه العينان من هذا الشيء إذا ما وضعت يدك على عينك اليمنى ، ثم وضعتها بعد ذلك على عينك اليسرى ، فإنك سوف تلاحظ أن الشيء الذي تراه يتحرك يساراً ويميناً ، وذلك لأنك حينما تضع يدك على عينك اليمنى فإنك ترى الجانب الأيسر من هذا الشيء ، ثم حينما تضع يدك على عينك اليسرى يختفي الجانب الأيسر ، وترى الجانب الأيمن من هذا الشيء . ولذلك يبدو هذا الشيء كأنه يتحرك يساراً ويميناً . أما الصوت الصادر من جهة تقع أمامك مباشرة فإنهما يؤثران على أذنيك في وقت واحد . أما إذا كان الصوت صادراً من جهة تقع على يمينك أو يسارك ، فإن الموجات الصوتية تصل إلى الأذن التي تكون في ناحية مصدر الصوت قبل وصولها إلى الأذن الأخرى ، غير أن الفارق الزمني صغير جداً لا يلاحظ .

جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا »[١]

وتشير هذه الآية إلى وجود الخلايا الحسية المتخصصة في الإحساس بالألم في الجلد ، كما بينت الدراسات الفسيولوجية الحديثة . فإذا احترق الجلد وزالت هذه الخلايا انتفى الإحساس بالالم ، ولذلك يبدل الله تعالى الكافرين جلوداً جديدة بخلايا حسية جديدة لكي يستمر إحساسهم بالألم .

وأشار القرآن أيضاً إلى حاسة اللمس كأداة يستعين بها الإنسان لتحسس الأشياء للتعرف عليها .

« وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ »[٢]

الإدراك الحسي الخارج عن نطاق الحواس :

هناك نوع آخر من الإدراك الحسي غير العادي ، وهو الذي يسميه علماء النفس بالإدراك الحسي الخارج عن نطاق الحواس[٣] ، مثل الاستشفاف وهو رؤية الأشياء أو الأحداث البعيدة الخارجة عن مجال حاسة الإ بصار ، والتخاطر وهو إدراك خواطر وأفكار شخص آخر يكون أيضاً في الغالب في مكان بعيد ، والاستهتاف وهو سماع نداء أو حديث من مكان بعيد خارج عن مجال حاسة السمع . وقد اهتم بعض علماء النفس في العصر الحديث بدراسة هذه الظواهر ، وأجروا عليها كثيراً من التجارب ، غير أن النتائج التي توصلوا إليها لم تكن من الدقة والثبات بحيث تمدنا بفهم واضح لهذه الظواهر .

وهذا النوع من الإدراك الحسي الخارج عن نطاق الحواس لا يلاحظ عند جميع الناس ، ولكنه يحدث فقط لبعض الأشخاص الذين يتمتعون باستعداد خاص ، قد يكون عبارة عن شفافية روحية تمدهم بقوة إدراكية خارقة للعادة

---

(١) النساء : ٥٦ .

(٢) الأنعام : ٧ .

(٣) Extrasensory Perception.

تمكنهم من تجاوز حدود المكان ليدركوا أشياء وأحداثاً بعيدة عنهم ، أو محجوبة عنهم بحواجز المكان . وقد ذكر القرآن مثالاً لهذا النوع من الإدراك الحسي غير العادي حدث ليعقوب عليه السلام حينما شم ريح ابنه يوسف عليه السلام حينما تحركت القافلة التي تحمل قميصه من أرض مصر بعيداً عن المكان الذي يوجد فيه يعقوب عليه السلام بمسيرة عدة أيام .

« وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ »(1)

إن قيام يعقوب عليه السلام بشم رائحة يوسف عليه السلام من هذا المكان البعيد الذي لا تقطعه الإبل إلا بعد مسيرة بضعة ايام ليشير إشارة واضحة إلى ظاهرة الإدراك الحسي الخارج عن نطاق الحواس .

ومن معجزات عيسى عليه السلام التي أخبر بها القرآن أنه كان يخبر الناس بما يأكلون في بيوتهم من طعام ، وما يدخرون فيها من أشياء .

« .. وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ .. »(2)

ومن المحتمل أن تكون هذه المعجزة نوعاً من الاستشفاف الذي خص الله تعالى به رسوله عيسى عليه السلام ، فمكنه به من إدراك أشياء غير منظورة وخارجة عن نطاق مجاله البصري . ومن المحتمل أيضاً أن يكون ذلك نوعاً من الإلهام الإلهي .

وتوجد في كتب السنة وتاريخ الصحابة والتصوف نماذج من الإدراك الحسي الخارج عن نطاق الحواس والذي يسميه المتصوفون بالكشف . ويروي مسلم عن الرسول صلوات الله عليه وسلامه أنه قال : « أتموا الركوع والسجود ، فوالله إني لأراكم من بعد ظهري إذا ما ركعتم وإذا ما سجدتم »(3) . ويروي البخاري

---

(1) يوسف : ٩٤ .
(2) آل عمران : ٤٩ .
(3) كتاب الصلاة ، جـ ٤ ، ص ١٥٠ . صحيح مسلم بشرح النووي . القاهرة . المطبعة المصرية ومكتبتها (د . ت) .

أن الرسول عليه الصلاة والسلام قال : « هل ترون قبلتي ها هنا ؟ فوالله ما يخفى عليّ خشوعكم ولا ركوعكم ، إني آراكم من وراء ظهري »[1] . إن رؤية النبي عليه الصلاة والسلام للصحابة من وراء ظهره وهم يركعون ويسجدون إنما هو أيضاً مثال للاستشفاف إذ استطاع النبي عليه الصلاة والسلام ، بسبب صفائه القلبي وشفافيته الروحية ، أن يرى أشياء لا تقع في مجال بصره . وفي الحديث أن النبي عليه الصلاة والسلام مر يوماً مع نفر من الصحابة بقبرين ببقيع الفرقد دفن فيهما رجلان حديثاً ، فتوقف وقال : « من دفنتم ههنا اليوم ؟ قالوا : فلاناً وفلاناً . قالوا يا نبي الله وما ذاك ؟ قال : أما أحدهما فكان لا يتنزه من البول ، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة . وأخذ جريدة رطبة فشقها ثم جعلها على القبرين . فقالوا : يا نبي الله ، لم فعلت هذا ؟ قال : ليخفف عنهما . قالوا يا رسول الله حتى متى يعذبان ؟ قال : غيب لا يعلمه إلا الله ، ولولا تمرغ قلوبكم ، وتزيدكم في الحديث لسمعتم ما أسمع »[2] . وقوله عليه الصلاة والسلام : « ولولا تمرغ قلوبكم ، وتزيدكم في الحديث لسمعتم ما أسمع » يشير إلى أن النبي عليه الصلاة والسلام قد سمع ما لم يستطع من معه من الصحابة أن يسمعوه . ويشير ذلك أيضاً إلى أنه من الممكن أن يكتسب الإنسان القدرة على « الاستسماع » إذا صفى قلبه من شواغل الدنيا ، وامتنع عن اللغو في الحديث . وعن حنظلة الأُسَيْدي رضي الله عنه وكان من كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال قلت : « .. يا رسول الله ، نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة كأنا رأي عين ، فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات ونسينا كثيراً . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والذي نفسي بيده لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم ، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة ثلاث مرات » ، رواه مسلم والترمذي في الرقائق[3] . ويدل هذا الحديث على إمكانية رؤية الصحابة للملائكة إذا داوموا على الحال التي يكونون فيها أثناء مصاحبتهم للنبي عليه الصلاة والسلام من صفاء القلب وشفافية الروح وذكر الله .

---

(١) كتاب الصلاة ، الحديث رقم ٤١٨ . فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، جـ ٣ ، ص ٧٤ . القاهرة : مكتبة الكليات الأزهرية ، ١٩٧٨ .

(٢) سعيد حوى : تربيتنا الروحية ، ط ٢ . القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٩٧٩ ، ص ١٥١ .

(٣) المرجع السابق . ص ١٥١ .

ويروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه بينما كان يخطب خطبة الجمعة بالمدينة في أحد الأيام إذا به يتوقف عن الخطبة وينادي : « يا سارية بن حصن ! الجبل ... الجبل ! ومن استرعي الذئب ظلم » . فلما قضى الصلاة سأله عليّ رضي الله عنه عما نادى به . فقال : « وقع في خلدي أن المشركين هزموا إخواننا وركبوا أكتافهم ، وأنهم يمرون بجبل .. فإن عدلوا إليه قاتلوا من وجدوه وظفروا ، وإن جاوزوه هلكوا ، فخرج مني هذا الكلام » . ثم جاء البشير بعد شهر فقال إنهم سمعوا في ذلك اليوم وفي تلك الساعة حينما جاوزوا الجبل نداء يشبه صوت عمر يناديهم : « يا سارية بن حصن ! الجبل ... الجبل ... ! » . فرجعوا إليه ، ووفقهم الله وانتصروا »[1] .

الخداع البصري :

الخداع البصري هو إدراك بصري خاطيء لا ينطبق على حقيقة الشيء المرئي . وهناك بعض أنواع من الخداعات البصرية العامة بين الناس جميعاً ، فهم يدركونها جميعاً بطريقة متشابهة[2] . ومن أمثلة ذلك ما يحدث أحياناً حينما يرى الناس عن بعد سراباً فيظنونه ماءً . وقد ذكر القرآن السراب في تصويره البليغ لعدم جدوى ما يقوم به الكافرون من أعمال حسنة إذ ستكون يوم الحساب هباءً منثوراً كالسراب الذي يظنه الظمآن ماءً فإذا وصله لم يجده شيئاً .

«وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ »[3]

تأثير الدوافع والقيم في الانتباه والإدراك الحسي :

تؤثر دوافع الفرد وقيمه في انتباهه وإدراكه . وقد بينت ذلك نتائج كثير من الدراسات التجريبية الحديثة[4] . وقد أشار القرآن إلى هذه الحقيقة في أكثر من موضع حينما ذكر كيف كان الإيمان يجعل المؤمنين في حالة تهيؤ وانتباه

---

(١) عباس محمود العقاد : عبقرية عمر . بيروت : دار الكتاب العربي ، ١٩٦٩ ، ص ٢٤ .

(٢) محمد عثمان نجاتي : مرجع سابق ، ص ٢٨٦ ، ٢٨٧ .

(٣) النور : ٣٩ .

(٤) محمد عثمان نجاتي : مرجع سابق ، ص ٢٨٩ – ٢٩٣ .

إلى الاستماع إلى ما ينزل من آيات القرآن فيدركونها إدراكاً واعياً ، ويفهمونها فهماً دقيقاً ، بينما كانت هذه الآيات نفسها لا تحدث لدى المشركين نفس التأثير ، وإنما كانوا في غفلة عن سماعها وإدراكها وفهمها . وفيما يلي أمثلة مما قاله القرآن في وصف هذه الحالة من الغفلة عن الإدراك بسبب الشرك وعدم الإيمان بالله مما عطل حواس المشركين عن أداء وظيفتها :

« وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ » (١)

« قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ » (٢)

« أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ » (٣)

« أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ » (٤)

« مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ۝ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ » (٥)

« وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ .. » (٦)

---

(١) الأعراف : ١٧٩ .

(٢) فصلت : ٤٤ . قال ابن كثير في تفسير (ينادون من مكان بعيد) : « قال مجاهد يعني بعيد من قلوبهم . قال بن جرير معناه كأن من يخاطبهم يناديهم من مكان بعيد لا يفهمون ما يقول » . تفسير ابن كثير ، جـ ٤ ، ص ١٠٣ .

(٣) محمد : ٢٣ .

(٤) الزخرف : ٤٠ .

(٥) البقرة : ١٧ ، ١٨ .

(٦) الأنعام : ٣٩ .

« أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ »(١)

« إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ۝ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ »(٢)

ومن مظاهر تأثير الدوافع على الإدراك أيضاً ما يحدث في الإدراك من تحريف وتشويه لحقيقة الشيء . فقد يرى الإنسان الشيء الحسن قبيحاً ، وقد يرى الشيء القبيح حسناً . وقد أشار القرآن إلى ما تحدثه الدوافع والميول والأهواء من تحريف في الإدراك .

« أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا . . »(٣)

« أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم »(٤)

وقد بينت دراسات التحليل النفسي أن الإنسان يميل إلى عدم إدراك الأشياء التي تقلقه وتزعجه ، والأمور التي تتعارض مع رغباته وأهوائه . ولا شك أن مشركي قريش وكثيراً من اليهود والنصارى لم يكونوا راضين عن الدين الجديد الذي جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام لأن في انتشاره تهديداً لسلطتهم ونفوذهم . وإن كراهيتهم لهذا الدين الجديد جعلتهم غير متهيئين نفسياً للاستماع إلى القرآن استماع تدبر وتفهم ، كما جعلهم غير مستعدين عقلياً إلى إدراك معانيه ، وتصديق ما جاء به من الحق .

---

(١) الجاثية : ٢٣ .
(٢) النمل : ٨٠ ، ٨١ .
(٣) فاطر : ٨ .
(٤) محمد : ١٤ .

الفَصْل الرّابع

التَفكيرُ في القُرآن

يشترك الإنسان مع الحيوان في وظيفة الإدراك الحسي ، غير أن الإنسان يتميز عن الحيوان بما وهبه الله تعالى من عقل ، ومن قدرة على التفكير تمكنه من النظر والبحث في الاشياء والأحداث ، واستخلاص الكليات من الجزئيات ، واستنباط النتائج من المقدمات . إن قدرة الإنسان على التفكير هى التي جعلته أهلاً للتكليف بالعبادات ، وتحمل مسؤولية الاختيار والإرادة ، وهذا هو ما جعله أهلاً لخلافة الله تعالى في الأرض .

وتكوِّن المعلومات التي يستمدها الطفل عن طريق الإدراك الحسي في المرحلة الأولى من حياته المادة التي يستعين بها الطفل فيما بعد في تفكيره . فهو يستعيدها في ذاكرته ، ويتخيلها ، ويقارن بعضها ببعض ، وينظمها بطريقة جديدة تساعده على اكتشاف معلومات جديدة . وتضاف المعلومات الجديدة التي يتوصل إليها الإنسان من عملية التفكير إلى ذخيرة معلوماته السابقة . ويقوم الإنسان بصفة مستمرة بعملية تنظيم المعلومات القديمة ، واكتشاف معلومات وحقائق جديدة ، وهذا هو أساس تطور البحث العلمي خلال عصور التاريخ المختلفة ، وسبب ما يحدث من تقدم مستمر في العلوم النظرية والتطبيقية .

ولقد حث الله تعالى الإنسان على التفكير في الكون ، والنظر في الظواهر الكونية المختلفة ، وتأمل بديع صنعه ، ومحكم نظامه . كما حثَّه على تحصيل العلم ومعرفة سنن الله وقوانينه في جميع ميادين العلوم المختلفة . ونحن نجد هذه الدعوة إلى الملاحظة والتفكير والبحث والتحصيل العلمي في أكثر من موضع في القرآن الكريم :

« قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ .. » [1]

« أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ » [2]

« أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ .. » [3]

« قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ .. » [4]

« أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۝ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ » [5]

« إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » [6]

« وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ

---

(١) العنكبوت : ٢٠ .
(٢) الحج : ٤٦ .
(٣) الأعراف : ١٨٥ .
(٤) يونس : ١٠١ .
(٥) الغاشية : ١٧ – ٢١ .
(٦) البقرة : ١٦٤ .

أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ »[1]

«فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۝ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۝ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۝ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۝ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ۝ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۝ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ »[2]

في هذه الآيات وأمثالها دعوة صريحة إلى النظر والملاحظة والتفكير والبحث العلمي في السماوات والأرض ، وفي جميع المخلوقات ، وفي جميع الظواهر الكونية . ولم يحث القرآن الإنسان على التفكير والبحث العلمي في الظواهر الطبيعية فقط ، وانما حثه أيضاً على التفكير في نفسه ، في أسرار تكوينه البيولوجي والنفسي . وهو بذلك يدعوه إلى ارتياد ميادين العلوم البيولوجية والفسيولوجية والطبية والنفسية .

«أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى . . »[3]

« فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ »[4]

« سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ . . »[5]

ويتضح حرص القرآن الكريم على دعوة الناس إلى التفكير من ورود كثير من

---

(١) الأنعام : ٩٩ .
(٢) عبس : ٢٤ — ٣٢ .
(٣) الروم : ٨ .
(٤) الطارق : ٥ — ٧ .
(٥) فصلت : ٥٣ .

الآيات التي تتضمن مثل هذه العبارات : «أفلا يعقلون» ، «أفلا يتفكرون» ، «لعلكم تعقلون» ، «لعلكم تتفكرون» ، «إن كنتم تعقلون» ، «أفلا يعقلون» ، «لعلهم يتفكرون» ، «أفلا يتدبرون» ، «أفلا يتذكرون» ، «لقوم يتفكرون» ، «لقوم يعقلون» .

وقد بينّ القرآن أهمية التفكير في حياة الإنسان ، ورفع من قيمة الإنسان الذي يستخدم عقله وتفكيره .

« .. قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ » (١)

وقد حط القرآن من شأن من لا يستخدم عقله وتفكيره بأن جعله أدنى درجة من الحيوان .

« إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ » (٢)

« أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا » (٣)

خطوات التفكير في حل المشكلات :

يصادف الإنسان في حياته كثيراً من المشكلات التي تحتاج إلى حلول . وكل سؤال يوجهه الإنسان إلى نفسه ولا يعرف الإجابة عليه يعتبر مشكلة . ويجابه الإنسان عادة في حياته كثيراً من المواقف التي تعتبر مشكلة ، وذلك حينما يكون له هدف معين يسعى إلى تحقيقه ولكنه لا يعرف الطريق الذي يمكن أن يؤدي إلى هدفه ، أو كانت هناك عقبات تحول دون الوصول إليه . وحينما يفكر الإنسان في حل أية مشكلة تعترضه فإنه يتتبع عادة خطوات معينة قام علماء النفس بدراستها وتحليلها . ويمكن أن نلخص خطوات التفكير في حل المشكلات فيما يلي (٤) :

---

(١) الزمر : ٩ .

(٢) الأنفال : ٢٢ .

(٣) الفرقان : ٤٤ .

(٤) محمد عثمان نجاتي : مرجع سابق ، ص ٣١٦ - ٣١٩ .

أولاً – الشعور بوجود مشكلة :

يبدأ التفكير بشعور الإنسان بوجود مشكلة لها أهمية بالنسبة له ، ويشعر بدافع قوي يدفعه إلى حلها لكي يصل إلى هدفه الذي يسعى إلى تحقيقه . إن الشعور بالمشكلة هو الخطوة الأولى في عملية التفكير .

ثانياً – جمع بيانات حول موضوع المشكلة :

حينما يشعر الإنسان بوجود مشكلة فإنه يقوم عادة بفحص موضوع المشكلة من جميع نواحيه لكي يفهمه جيداً ، ويقوم بجمع جميع المعلومات والبيانات المتعلقة به ، ويقوم بفحصها لمعرفة درجة ملاءمتها لموضوع المشكلة أو عدم ملاءمتها ، ويبقى ما هو ملائم منها ، ويستبعد ما هو غير ملائم . إن جمع المعلومات والبيانات الملائمة لموضوع المشكلة يساعد على توضيح المشكلة وفهمها وتحديدها بدقة مما يمهد لوضع فروض لحلها .

ثالثاً – وضع الفروض :

في أثناء جمع المعلومات والبيانات المتعلقة بموضوع المشكلة تطرأ على الذهن بعض الحلول المحتملة للمشكلة ، أو بعض الفروض . والفرض هو حل مقترح للمشكلة .

رابعاً – تقييم الفروض :

وحينما يضع المفكر فرضاً لحل مشكلة ما فإنه يقوم عادة بتمحيص هذا الفرض ومناقشته على ضوء ما لديه من معلومات وبيانات للتأكد من ملاءمته ومن صلاحيته لحل المشكلة . وقد يجد المفكر أن الفرض الذي وضعه لا يتفق ولا يتلاءم مع بعض ما لديه من معلومات وحقائق عن موضوع المشكلة ، فيقوم باستبعاد هذا الفرض باعتباره غير صالح لحل المشكلة . ثم يقوم بوضع فرض آخر ، ويقوم بتمحيصه ومناقشته كما فعل بالفرض الأول . وقد ينتهي الأمر إلى استبعاده . وتتكرر هذه العملية حتى يصل أخيراً إلى فرض مقبول وملائم لما لديه من معلومات وحقائق عن موضوع المشكلة ، ويرى أنه صالح لحل المشكلة .

خامساً – التحقق من صحة الفرض :

بعد استبعاد الفروض غير الملائمة ، والوصول إلى فرض ملائم وصالح لحل المشكلة ، يقوم المفكر عادة بجمع بيانات أخرى وإجراء ملاحظات جديدة أو إجراء تجارب للتأكد من صحة هذا الفرض .

هذه هي الخطوات التي يتبعها التفكير عادة في حل المشكلات . ونحن نتبع هذه الخطوات في حلنا لجميع المشكلات التي تعترضنا في حياتنا اليومية . كما أن العلماء الذين يقومون بإجراء التجارب العلمية في مختبراتهم إنما يتبعون أيضاً نفس هذه الخطوات ، ولكنهم يستخدمون وسائل أكثر موضوعية وأكثر دقة وضبطاً في إجراء الملاحظات ، وجمع البيانات ، وتسجيلها ، وتحليلها .

ويمدنا القرآن بمثال واضح للخطوات التي يتبعها التفكير في حل المشكلات نجده في قصة إبراهيم عليه السلام وفي الطريقة التي اتبعها في التفكير للوصول إلى معرفة الإله العظيم القدير الذي خلق هذا الكون[1] .

« وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ۝ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَـٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ ۝ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَـٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ۝ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـٰذَا رَبِّى هَـٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَـٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ »[2]

---

(١) علي عبد العظيم : فلسفة المعرفة في القرآن الكريم . القاهرة : مجمع البحوث الإسلامية ، ١٩٧٣ ، ص ٢٤٤ – ٢٥١ .

(٢) الأنعام : ٧٤ – ٧٩ .

لقد شعر إبراهيم عليه السلام ببطلان عبادة الأصنام التي كان يعبدها قومه ، لأن الإنسان هو الذي يصنع هذه الأصنام . فكيف يعبد الإنسان شيئاً يصنعه بيديه ؟

« قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ »(1)

ثم إن هذه الأصنام لا حول لها ولا قوة ، فلا يمكن أن تتصف بالألوهية . فالإله قوي ، قادر ، متحكم في الكون ، واهب النعم ، وموزع الأرزاق .

« قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ »(2)

إن شعور إبراهيم عليه السلام ببطلان عبادة الأصنام ، وعدم استحقاقها للربوبية ، قد أثار في نفسه مشكلة أخذت تلح عليه ، وتسيطر على تفكيره ، وهي : من هو آله هذا الكون ؟ .

حينما شعر إبراهيم عليه السلام بهذه المشكلة ، شعر بدافع قوي يدفعه إلى التفكير فيها بهدف الوصول إلى معرفة إآله الكون وخالقه . وقد ساعد على نشوء هذا الدافع لديه فطرته السليمة ، وروحه الصافية ، وعقله الراجح ، هذا فضلاً عن هداية الله وتوفيقه .

انتقل إبراهيم عليه السلام بعد ذلك إلى مرحلة الملاحظة وجمع المعلومات والبيانات . فأخذ يلاحظ الظواهر الكونية المختلفة في السماوات والأرض لعله يهتدي منها إلى معرفة الإآله . فنظر في الكواكب والقمر والشمس ، وفي غيرها من الظواهر الكونية الأخرى سواء في السماوات أو في الأرض . ويستفاد ذلك من قوله تعالى : « وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين » .

---

(1) الصافات : ٩٥ .

(2) الأنبياء : ٦٦ .

وفي أثناء مرحلة الملاحظة وجمع المعلومات عن الظواهر الكونية المختلفة ، وضع إبراهيم عليه السلام بعض الفروض . فلما جنّ الليل ورأى كوكباً يتلألأ في السماء المظلمة وضع فرضاً مؤداه أن هذا هو الإله . ولكنه حينما تبين له أن هذا الكوكب قد أصابه التغير ، إذ أنه أفل ولم يعد ظاهراً ، استبعد هذا الفرض لأنه فرض غير ملائم ، إذ أن الإله يجب أن يكون ثابتاً لا يصيبه التغير ، وموجوداً دائماً لا يغيب . ولما رأى القمر ساطعاً في جوف الظلام ، وضع فرضاً آخر مؤداه أن القمر هو الإله . ولكنه لما رآه يغيب أيضاً استبعد هذا الفرض أيضاً لعدم ملاءمته لصفات الألوهية . ولما رأى الشمس ساطعة تملأ الدنيا ضياء ودفئاً ، وأكبر حجماً من الكواكب الأخرى ، وضع فرضاً آخر فقال إن الشمس هي الإله . ولكنه لما رآها تغيب أيضاً استبعد هذا الفرض لعدم ملاءمته لصفات الألوهية .

بعد استبعاد هذه الفروض جميعاً لعدم ملاءمتها ، قام إبراهيم عليه السلام أخيراً بوضع فرض مؤداه أن الإله هو الذي خلق الكواكب جميعاً والسماوات والأرض وجميع ما فيها من مخلوقات . فقال : «إني وجهت وجهي للذي فطر السماواتِ والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين» . ولا شك أنه فكر في هذا الفرض الذي اهتدى إليه أخيراً ، وجمع كثيراً من الملاحظات الأخرى عن الظواهر الكونية فلم يجد ما ينقض هذا الفرض ، بل وجد أن جميع ما يشاهده من بديع خلق الله وصنعه ، ومما في الكون من نظام محكم يدل على وجود إله قوي قادر حكيم ، هو الذي خلق هذا الكون وما فيه من مخلوقات في هذا النظام المحكم الدقيق .

وهكذا نرى في هذه الآيات التي تذكر قصة اهتداء ابراهيم عليه السلام إلى معرفة الله تعالى كيف وصف القرآن خطوات عملية التفكير في حل المشكلات وصفاً دقيقاً واضحاً .

أخطاء التفكير :

إن التفكير معرض للخطأ . فقد يعترض التفكير بعض العوائق فتحرفه عن

طريقه السوي ، وتحول بينه وبين الوصول إلى الحقيقة . وإذا تراكم على الإنسان كثير من عوائق التفكير ، أصيب تفكيره بالجمود ، وأصبح غير قادر على تقبل الآراء والأفكار الجديدة . وإذا وصل الإنسان إلى هذه الحالة فقد التفكير قيمته العظيمة في حياته ، فلم يعد يؤدي وظيفته الطبيعية في عملية التمييز بين الحق والباطل ، وبين الخير والشر ، وفي اكتشاف الحقائق ، واكتساب العلوم ، والترقي بالإنسان في مدارج الرقي والكمال . وإذا تعطل تفكير الإنسان وجمد فقد الإنسان الميزة الرئيسية التي تميزه عن الحيوان ، بل أصبح كالحيوان أو أضل سبيلاً .

« أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا »(١)

ووصف القرآن هذه الحالة من جمود التفكير « بالطبع على القلوب » ، أو « بالختم » عليها ، أو بوضعها في « أكنة » ، أو بوضع « أقفال » عليها .

« أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ »(٢)

« خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ »(٣)

« كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ »(٤)

« أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝ تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ

(١) الفرقان : ٤٤ .
(٢) النحل : ١٠٨ .
(٣) البقرة : ٧ .
(٤) الروم : ٥٩ .

عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآئِهَا وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ »(١)

« وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ ..»(٢)

« وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ »(٣)

« وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ..»(٤)

« أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ »(٥)

وقد ذكر القرآن أهم العوامل التي تعوق التفكير وتؤدي إلى جموده ، فتحول بينه وبين معرفة الحقيقة ، وبين إصدار الأحكام الصحيحة فيما ينظر فيه من الأمور . وهذه العوامل هي التمسك بالأفكار القديمة ، وعدم كفاية البيانات ، والتحيز الانفعالي والعاطفي .

أ – التمسك بالأفكار القديمة :

إن التمسك بالأفكار القديمة ، وبما جرى عليه العرف والتقاليد ، من العوامل الهامة التي تسبب جمود التفكير وعدم تقبله لما يعرض عليه من أفكار جديدة . والإنسان يميل عادة إلى التمسك بما هو مألوف لديه ، وبما اعتاده من قبل ودرج عليه ، ويصبح تخليه عن عاداته وأفكاره القديمة أمراً يحتاج إلى قدر

---

(١) الأعراف : ١٠٠ ، ١٠١ .
(٢) الإسراء : ٤٦ .
(٣) فصلت : ٥ .
(٤) الأنعام : ٢٥ .
(٥) محمد : ٢٤ .

من الجهد والإرادة والعزم ، كما يتطلب القدرة على النظر إلى الأمور نظرة تحليلية محايدة تمكنه من التمييز بين الحق والباطل . وليس هذا أمراً يسيراً على كثير من الناس . وقد وصف القرآن تمسك كثير من الناس في جميع عصور التاريخ بعقائد آبائهم وعباداتهم ، وعدم قدرتهم على النظر في عقيدة التوحيد التي كان يدعوهم إليها الأنبياء والرسل بفكر متحرر من قيود العادات والتقاليد والأفكار القديمة . فتقليد الآباء ، والتمسك بأفكارهم وعاداتهم وتقاليدهم كان من العوامل الهامة في جمود تفكير كثير من الناس ، فلم يكن من السهل عليهم التخلي عنها ، وقبول دين التوحيد الذي دعاهم إليه الأنبياء والرسل .

« قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا .. »(١)

« بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ »(٢)

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ »(٣)

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ »(٤)

« قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا .. »(٥)

---

(١) يونس : ٧٨ .
(٢) الزخرف : ٢٢ ، ٢٣ .
(٣) المائدة : ١٠٤ .
(٤) البقرة : ١٧٠ .
(٥) الأعراف : ٧٠ .

«وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ . .»[1]

ولما كان جمود التفكير مضراً أكبر الضرر بالإنسان لأنه يفقده الاستفادة من الخاصية الرئيسية التي خصه الله تعالى بها وميّزه بها عن الحيوان ، مما يهبط به إلى مستوى الحيوان ، بل إلى أدنى من مستوى الحيوان ، فقد حرص القرآن على حث الناس على التحرر من القيود التي تكبل تفكيرهم ، وتعطل عقولهم . وقد وجه القرآن نقداً لاذعاً إلى المشركين الذين كانوا يقلدون آباءهم في أفكارهم وعقائدهم ، ويلغون عقولهم ، ويعطلون تفكيرهم ، فيقومون برفض كل فكرة جديدة دون أن يحاولوا التفكير فيها تفكيراً متحرراً من قيود التقليد . وقد سبق أن أشرنا إلى دعوة القرآن للناس إلى السير في الأرض ، وملاحظة ما في العالم من مخلوقات ، وإلى التأمل والتفكير في الظواهر الكونية المختلفة . وليست هذه الدعوة إلا دعوة إلى تحرير التفكير من القيود التي تكبله ، وحثه إلى الانطلاق في آفاق المعرفة والبحث العلمي .

وحرص القرآن أيضاً على دعوة الناس إلى التحرر من الأوهام والخرافات التي تعطل التفكير وتعوقه عن معرفة الحقيقة . فقد كان للعرب في الجاهلية بعض الخرافات التي تتعلق بنوع وعدد نسل الإبل والغنم . فإذا نسلت عدداً معيناً ، أو إذا نسلت إناثاً فقط ، أو إذا نسلت ذكوراً وإناثاً معاً ، فإنهم كانوا بناء على ذلك يطلقون سراحها ، أو يمتنعون عن شرب لبنها . وقد نهى القرآن عن الأخذ بهذه الخرافات[2] .

«مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ»[3]

---

(١) سبأ : ٤٣ .

(٢) محمد البهي : الإسلام في حياة المسلم ، ط ٢ . القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٩٧٣ ، ص ١٦٧ – ١٦٩ .

(٣) المائدة : ١٠٣ . جاء في تفسير ابن كثير : «البحيرة : هي التي يمنع درّها للطواغيت فلا يحلبها أحد من الناس . والسائبة : كانوا يسيبونها لآلهتهم لا يحمل عليها شيء .... والوصيلة : الناقة البكر تبكر =

ب – عدم كفاية البيانات :

ليس من المتيسر للإنسان أن يفكر تفكيراً سليماً في موضوع ما ، دون أن تكون لديه البيانات الكافية والمعلومات الضرورية المتعلقة بالموضوع الذي يفكر فيه ، ولا يستطيع أن يصل بتفكيره إلى نتيجة سليمة دون أن تتجمع لديه الأدلة والبراهين الكافية الّتي تؤيد صحة ما يصل إليه من نتيجة . ويختلف الناس في مدى اتباعهم القواعد المنطقية السليمة في تفكيرهم وفي مناقشاتهم وفيما يصدرون من آراء وأحكام . والعلماء والحكماء من الناس وأصحاب الفطنة السليمة يتحرجون أشد الحرج في إبداء الرأي أو إصدار الأحكام دون أن تكون لديهم الأدلة الواضحة البيّنة الّتي يستندون إليها فيما يصدرون من آراء وأحكام . غير أن كثيراً من الناس لا يتبعون القواعد المنطقية السليمة في تفكيرهم ، فهم كثيراً ما يتعجلون في إبداء الرأي في الأمور دون أن تكون لديهم البيانات الكافية ، وكثيراً ما يتعجلون في إصدار الأحكام دون أن تتجمع لديهم الأدلة الواضحة الّتي تؤيد صحة ما يصدرون من أحكام . وإن عدم توافر البيانات والمعلومات والأدلة الكافية من العوامل الهامة لكثير من أخطاء التفكير الشائعة بين الناس . وقد أشار القرآن إلى أهمية المعرفة بالموضوع في الوصول إلى الحق فيه ، ونهانا عن الكلام وإبداء الرأي فيما ليس لنا به علم. كما نهانا عن اتباع ما نسمعه من أقوال وآراء دون أن يكون لدينا علم بها ، ودون أن تتّضح لنا الأدلة والبراهين على صحتها .

« وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا »[1]

« وَمِنَ ٱلنَّاسِ من يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ »[2]

= في أول نتاج الإبل ثم تثني بعد بأنثى ، وكانوا يسيبونها لطواغيتهم إن وصلت إحداهما بالأخرى ليس بينهما ذكر . والحام : فحل الإبل يضرب الضراب المعدود ، فإذا قضى ضرابه ودعوه للطواغيت ، وأعفوه من الحمل ، فلم يحمل شيء ، وسموه الحامي ..» . تفسير ابن كثير ، جـ ٢ ، ص ١٠٧ .

(١) الإسراء : ٣٦ .

(٢) الحج : ٣ .

«وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ»[1]

«ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ»[2]

«إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ»[3]

وعندما لا تتوافر للإنسان جميع البيانات الهامة المتعلقة بالموضوع الذي يفكر فيه ، فإنه قد يلجأ إلى الظن ، وافتراض الحلول التي يحتمل أن تكون صحيحة أو خاطئة . وكثيراً ما يلجأ الإنسان إلى الظن في حكمه على الأشياء دون أن يكون على بينة من صحة ظنه ، وقد يتبين له فيما بعد خطأ ظنه . ولذلك ، فإن الظن ليس طريقاً سليماً للوصول إلى الحقيقة ، بل لا بد من أن يحاول الإنسان أن يمحص ظنه على ضوء بيانات وأدلة جديدة ليتأكد من صحته أو عدم صحته . فالظن هو عبارة عن افتراض يحتمل الصحة والخطأ .

«وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ»[4]

«وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ»[5]

---

(١) الحج : ٨ .

(٢) غافر : ٣٥ . « بغير سلطان أتاهم » : أي « بغير دليل وحجة معهم من الله تعالى » . تفسير ابن كثير ، جـ ٤ ، ص ٧٩ .

(٣) غافر : ٥٦ .

(٤) يونس : ٣٦ .

(٥) الجاثية : ٣٢ .

ولذلك فإنه من الضروري ألا ينساق الإنسان في تفكيره وراء ظنونه ، فكثيراً ما يكون الظن خاطئاً ، وليس الظن طريقاً مأموناً للوصول إلى الحقيقة . وهذا هو معنى قوله تعالى في الآية التي ذكرناها سابقاً : «.. إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً »(١) .

ومن الضروري ، لكي يفكر الإنسان في موضوع ما تفكيراً سليماً يؤدي به إلى معرفة الحقيقة ، أن يقوم بجمع أكبر قدر من البيانات المتعلقة بهذا الموضوع عن طريق الملاحظة الدقيقة والبحث العلمي المنظم(٢) . وقد أشرنا سابقاً إلى اهتمام القرآن بحثّ الإنسان على الملاحظة والتفكير والبحث العلمي .

---

(١) ترد كلمة الظن في القرآن بمعان ثلاثة . المعنى الأول هو العلم بغير يقين والذي لا يرجح صدقه . ومن أمثلة ذلك : « وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن وإن هم ألا يخرصون » (الأنعام : ١١٦) . « ألا إن لله مَنْ في السماوات ومن في الأرض وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون (يونس : ٦٦) . « وقولهم إنا قتلنا المسيحَ عيسى ابن مريم رسولَ الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبِّهَ لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم بن من علم إلا اتباعَ الظن وما قتلوه يقيناً » (النساء : ١٥٧) . « .. فقال له فرعون إني لأظنك يا موسى مسحوراً » (الإسراء : ١٠١) . « .. لعلي اطلع إلى إلّه موسى وإني لأظنه من الكاذبين » (القصص : ٣٨) . والمعنى الثاني هو العلم بغير يقين ، والذي يحتمل الصدق والخطأ . هو افتراض يحتاج إلى أدلة لتأييده أو تفنيده . والظن بهذا المعنى مماثل « للفرض » العلمي الذي سبق أن تكلمنا عنه أثناء كلامنا عن خطوات عملية التفكير . ومن أمثلة الظن بهذا المعنى الآيات الثلاث التي ذكرناها في متن الكتاب . والمعنى الثالث هو العلم الذي يرجح صدقه ، أو العلم مع اليقين بصدقه . ومن أمثلة ذلك : «واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين ، الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهّم وأنهم إليه راجعون » (البقرة : ٤٥ ، ٤٦) . « ... قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئةً كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين » (البقرة : ٢٤٩) . « ورأى المجرمون النار فظنوا أنّهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مَصْرِفاً » (الكهف : ٥٣) . « وضلَّ عنهم ما كانوا يدعون من قبل وظنوا ما لهم من محيص » (فصلت : ٤٨) .

(٢) كان اهتمام القرآن بحثّ الناس على الملاحظة والاستقراء والبحث العلمي من أهم العوامل التي دفعت المفكرين المسلمين إلى تحصيل العلوم بجد واجتهاد ، وبعقول متفتحة ومتحررة من القيود التي كانت تكبل عقول المفكرين الأوروبيين في ذلك الوقت مما ساعد على سرعة التقدم العلمي بين المسلمين . ولقد كان لهذه النهضة العلمية بين المسلمين أكبر الأثر فيما بعد في إيقاظ الفكر الأوروبي إبان عصور النهضة الأوروبية . فقد استعان المفكرون الأوروبيون ببحوث المفكرين المسلمين ومؤلفاتهم العلمية في ميادين العلوم المختلفة ، كما استعانوا بمنهجهم في البحث . وكانت كتب العلماء المسلمين تدرس في الجامعات الأوروبية خلال العصور الوسطى حتى قبيل النهضة الأوروبية الحديثة .

جـ – **التحيز الانفعالي والعاطفي :**

تؤثر ميول الإنسان ودوافعه وانفعالاته وعواطفه في تفكيره وتجعله يقع في أخطاء التحيز . وقد بينت بعض الدراسات التجريبية الحديثة في علم النفس حدوث أخطاء في التفكير نتيجة التحيز الانفعالي والعاطفي . ففي إحدى هذه التجارب قدمت إلى مجموعة من الطلبة بعض البراهين القياسية ، وطلب منهم أن يبيّنوا ما إذا كانت النتيجة تعتبر منطقية من المقدمتين المستخدمتين في القياس . وكان نصف هذه البراهين القياسية يتعلق بأمور الحياة العادية ، ونصفها الآخر يتعلق بأمور من شأنها أن تثير الانفعال . وتبين من نتائج هذه التجربة أن جميع الطلبة وقعوا في عدد من الأخطاء في البراهين المثيرة للانفعال أكثر من عدد الأخطاء التي وقعوا فيها في البراهين الأخرى العادية غير المثيرة للانفعال . وتوضح نتائج هذه التجربة أن حالتنا الانفعالية والعاطفية تؤثر في تفكيرنا وتميل به إلى التحيز والوقوع في الخطأ فيما يصدره من أحكام(١) .

وقد أشار القرآن إلى تأثير الهوى في الإنسان ، وما يؤدي إليه من الانحراف بتفكيره عن اتجاهه السليم ، فيضل سبيله ويعجز عن التمييز بين الحق والباطل ، وبين الخير والشر ، وبين الهدى والضلال .

« فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ..»(٢)

« يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ .. »(٣)

«.. فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا ..»(٤)

---

(١) محمد عثمان نجاتي : مرجع سابق ، ص ٣٢٣ ، ٣٢٤ .
(٢) القصص : ٥٠ .
(٣) ص : ٢٦ .
(٤) النساء : ١٣٥ .

« أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ »[1]

« إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ »[2]

« بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ .. »[3]

---

(١) الجاثية : ٢٣ .
(٢) النجم : ٢٣ .
(٣) الروم : ٢٩ .

الفصل الخامس

التعلّم في القرآن

من فضل الله تعالى على الإنسان أنه زوده كذلك – بالإضافة إلى نعمة الإدراك الحسي والتفكير – باستعداد فطري للتعلم واكتساب المعرفة والعلوم والمهارات والصناعات مما يزيد من قدرته على تحمل مسؤولية الحياة على الأرض وعمارتها ، ومما يمكنه من تنمية قدراته ومهاراته بما يكفل له بلوغ ما شاء الله تعالى له من الكمال الإنساني .

مصادر العلم :

ويكتسب الإنسان العلم أو المعرفة من مصدرين رئيسيين : مصدر إلّهي ، ومصدر بشري . وهذان النوعان من العلم متكاملان ، ويرجعان أساساً إلى الله سبحانه وتعالى الذي خلق الإنسان ، وأمدّه بأجهزة وأدوات للإدراك واكتساب العلم[1] . ونعني بالعلم الصادر من مصدر إلّهي ذلك النوع من العلم الذي يأتينا مباشرة عن الله سبحانه وتعالى عن طريق الوحي أو الإلهام أو الرؤيا الصادقة . ونعني بالعلم الصادر من مصدر بشري ذلك النوع من العلم الذي يتعلمه الإنسان من خبراته الشخصية في الحياة ، ومن مجهوده الخاص في الاستطلاع والملاحظة ومحاولة حل ما يجابهه من مشكلات عن طريق المحاولة والخطأ ، أو عن طريق التربية والتعليم من والديه ومن المؤسسات التعليمية ، أو عن طريق البحث العلمي .

وسوف نتناول في هذا الفصل العلم الذي يتعلمه الإنسان من مصدر بشري ، مرجئين الكلام عن العلم الذي يتعلمه الإنسان من الله سبحانه وتعالى عن طريق الوحي أو الإلهام أو الرؤيا الصادقة إلى الفصل التالي .

---

(١) عبد الفتاح جلال : من الأصول التربوية في الإسلام . المركز الدولي للتعليم الوظيفي للكبار في العالم العربي بجمهورية مصر العربية ، ١٩٧٧ ، ص ٩٤ .

تعلم اللغة :

إن من أعظم النعم التي خص الله تعالى بها الإنسان ، وميزه بها على الحيوان هي قدرته على تعلم اللغة . فاللغة هي آداة الإنسان الرئيسية في التفكير واكتساب المعرفة وتحصيل العلوم . فاللغة ، باعتبارها رموزاً للمفاهيم ، قد مكنت الإنسان من تناول جميع المفاهيم في تفكيره بطريقة رمزية ، مما ساعده على أن يحقق ما حققه من تقدم هائل في اكتساب المعرفة وتحصيل العلوم والصناعات المختلفة .

وتستطيع الحيوانات الثديية أن تكون المفاهيم . فقد بينت دراسات علماء النفس المحدثين أن الحيوانات الثديية تستطيع أن تستجيب استجابة معينة لشكل المثلث فقط من بين مجموعة من الأشكال الهندسية الأخرى المختلفة ، مما يدل على أن الحيوان استطاع أن يكون مفهوم « المثلث » . غير أن الحيوان لا يستطيع أن يتعلم «كلمة » ترمز إلى مفهوم المثلث . والأطفال الصغار قبل تعلمهم اللغة يستطيعون ، مثل الحيوان ، أن يكونوا مفاهيم قبل أن يتعلموا كلمات ترمز إليها[1] . ولكن حينما يبدأ الطفل في تعلم اللغة فإنه سرعان ما يكون لنفسه حصيلة لغوية تمكنه من تناول المفاهيم المختلفة بسهولة في تفكيره بما يتجاوز حدود المكان والزمان ، فتزيد بذلك قدرته على التفكير في الماضي والمستقبل ، وتعلم أشياء جديدة ، واكتشاف العلاقات بين الأشياء ، واستنباط المبادئ والقوانين ، والاختراع والابتكار .

تعلم آدم للغة :

ولما كان للغة هذا القدر العظيم من الأهمية في حياة الإنسان ، وفي تمكينه من التقدم المستمر في تعلمه وتفكيره ، فقد كان أول شيء علمه الله تعالى لآدم عليه السلام هو أسماء جميع الأشياء :

« وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ

(١) محمد عثمان نجاتي : مرجع سابق ، ص ٣١٠ - ٣١٢ .

إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم
بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا
كُنتُمْ تَكْتُمُونَ » (١)

وتعلم أسماء الأشياء يعني تعلم «كلمات» ترمز إلى مفاهيم أو معانٍ كلية . فنحن حينما نطلق اسم «حصان» على مجموعة معينة من الحيوانات ، فإننا نستخدم رمزاً لغوياً يدل على مفهوم أو معنى كلي ينطبق على جميع الأحصنة الأخرى . وعلى ذلك فإننا نفهم من قوله تعالى : «وعلم آدمَ الأسماءَ كلَّها» أنه علمه اللغة التي يسمي بها الأشياء كلها ، أي علمه الأسماء التي ترمز إلى مفاهيم .

وتعلم «اسم» يرمز إلى مفهوم معين يتضمن معرفة الصفات والخصائص التي يشترك فيها جميع أفراد النوع الذي يشمله هذا المفهوم . فنحن حينما نتعلم استخدام كلمة «حصان» لنشير بها إلى جميع الأحصنة التي نراها ، فإن ذلك يتضمن أننا قد تعلمنا من قبل أن جميع الأحصنة التي شاهدناها تشترك في صفات معينة . ولذلك فإننا نفهم أيضاً من قوله تعالى : «وعلم آدم الأسماء كلها» أنه تعالى قد علمه أيضاً صفات هذه الأشياء وخواصها وأفعالها (٢) .

وعملية التعلم هذه التي مرّ بها آدم أبو البشرية عليه السلام إنما يمر بها أيضاً جميع أفراد ذريته من بعده . فالإنسان يلاحظ منذ طفولته أن بعض الأشياء تتشابه في بعض الخصائص ، وتختلف عن غيرها في بعض الخصائص الأخرى . ولا يستطيع الإنسان أن يدرك كل هذه الأشياء الكثيرة التي حوله وأن يستجيب لها باعتبار أن كلا منها مستقل عن الآخر ، بل إنه يميل الى تبسيط عملية إدراكه لهذه الأشياء الكثيرة التي حوله وذلك بتجميع الأشياء المتشابهة في بعض الخصائص

---

(١) البقرة : ٣١ – ٣٣ .

(٢) يقول ابن كثير في تفسير ذلك : «.. علمه أسماء الأشياء كلها ، ذواتها وصفاتها وأفعالها» . تفسير ابن كثير ، جـ ١ ، ص ٧٢ – ٧٥ .

في مجموعة أو نوع معين ويكوّن لها مفهوماً معيناً ، ويطلق عليها اسماً معيناً ، ويستجيب لها جميعاً استجابة معينة . وهكذا يقوم الإنسان بتصنيف الأشياء لتقليل الكثرة والتعقيد في الأشياء التي حوله ، وذلك بتبسيطها عن طريق تكوين « مفهوم » يمثل عدة أشياء كثيرة ، وتكوين « اسم » يرمز لهذا المفهوم . وقد ساعدت قدرة الإنسان على تعلم اللغة على سرعة تكوينه للمفاهيم ، وعلى استخدامها في عملية التفكير ، وفي تعلم معلومات جديدة[1] . فباستخدام المفاهيم في التفكير ، وباستخدام الكلمات كرموز لهذه المفاهيم استطاع الإنسان أن يتناول جميع الأشياء في تفكيره بطريقة رمزية ، كما استطاع أن يقوم في تفكيره بعملية التحليل والتركيب ، والمقارنة والتمييز ، واكتشاف العلاقات ، واستخلاص المبادئ والقوانين ، مما ساعد على سرعة تطور البحث العلمي وتقدمه .

وللتنويه بأهمية تعلم اللغة في حياة الإنسان فإن أول سورة نزلت من القرآن الكريم كانت تحث على القراءة ، وتشير إلى فضل الله تعالى على الإنسان إذ أوجد في طبيعته القدرة على تعلم اللغة ، وتعلم القراءة والكتابة والعلوم والصناعات المختلفة ، والهدى والإيمان ، وما لم يكن يعلم الإنسان من قبل أن يهديه الله تعالى إلى تعلم ما وصل إليه من علم . قال الله جلّ شأنه :

« ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ »[2]

ونوّه القرآن أيضاً بتميز الإنسان عن غيره من المخلوقات بالقدرة على تعلم اللغة واستخدامها في الإبانة عن نفسه .

« خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ »[3]

(١) محمد عثمان نجاتي : مرجع سابق ، ص ٣١٠ - ٣١٢ .
(٢) العلق : ١ - ٥ .
(٣) الرحمن : ٢ ، ٣ .

تعلم إرادة الاختيار واتخاذ القرار :

وأراد الله سبحانه وتعالى أيضاً أن يعلم أبوينا آدم وحواء عليهما السلام بعض العادات السلوكية المفيدة في حياتهما ، والتي تلائم طبيعة تكوينهما الإنساني من مادة وروح ، وما قد ينشأ عنهما من صراع بين مطالب كل من البدن والروح . فقد أرادت مشيئة الله تعالى أن يعلمهما إرادة الاختيار واتخاذ القرار ، وتحمل مسؤولية ما يقومان به من اختيارات ، وما يتخذانه من قرارات ، وذلك بأن نهاهما عن الاقتراب من الشجرة .

« وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ۝ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَـٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ »(١)

ومن الواضح أن مثل هذا التعلم كان ضرورياً لتدريب أبوينا آدم وحواء عليهما السلام وتهيئتهما لحياتهما فيما بعد على الأرض ، وهو أمر كان مقدراً لهما في علم الله تعالى . فهما في حياتهما على الأرض سيجابهان كثيراً من المواقف التي تتطلب منهما أن يتخذا منها موقفاً ، وأن يصدرا فيها حكماً ، وأن يقوما ازاءها بالاختيار بين بدائل مختلفة ، وعليهما أن يتحملا مسؤولية اختياراتهما وقراراتهما .

طرق التعلم في القرآن

يتعلم الإنسان بطرق مختلفة . فقد يتعلم عن طريق التقليد . فالطفل عادة يقلد والديه ويتعلم منهما كثيراً من العادات وأنماط السلوك . ويتعلم الإنسان أيضاً عن طريق التجربة العملية أو المحاولة والخطأ كثيراً من الحلول المفيدة

---

(١) البقرة : ٣٥ – ٣٧ .

لمشكلات حياته ، ومما ينفعه في أمور معاشه . وقد يتعلم الإنسان أيضاً عن طريق التفكير والاستدلال العقلي .

التقليد :

يتعلم الإنسان كثيراً من سلوكه وعاداته في المرحلة المبكرة من حياته عن طريق تقليد والديه وإخوته . فهو ، مثلاً ، يبدأ تعلمه للغة بمحاولة تقليد والديه وإخوته في النطق ببعض المقاطع الصوتية التي يكررونها أمامه عدة مرات . كما يبدأ تعلمه المشي بمحاولة تقليد والديه وإخوته فيما يقومون به من اعتدال القامة ، وحركات القدمين والساقين . وهكذا يتعلم الإنسان كثيراً من عاداته وسلوكه عن طريق تقليد أفراد أسرته .

وقد ذكر القرآن مثالاً يبين كيف يتعلم الإنسان عن طريق التقليد ، وذلك حينما قتل قابيل أخاه هابيل ولم يعرف كيف يتصرف في جثة أخيه ، فبعث الله تعالى له غراباً ينبش في الأرض ليدفن غراباً ميتاً ، فتعلم منه قابيل كيف يواري جثة أخيه .

« فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّـٰدِمِينَ »(١)

ولما كان الإنسان يميل بطبيعته إلى التقليد ، ويتعلم كثيراً من سلوكه عن طريق التقليد ، كانت للقدوة الحسنة أهمية كبيرة في التربية والتعليم . وقد كان النبي عليه الصلاة والسلام قدوة حسنة للصحابة رضي الله عنهم ، يتعلمون منه كيف يؤدون العبادات . فكانوا يرونه ، مثلاً ، وهو يتوضأ ، وهو يصلي ، وهو يقوم بشعائر الحج ، وكانوا يتعلمون منه كيف يقومون بهذه العبادات عن طريق تقليده والاقتداء به . وعن أبي حازم رضي الله عنه أن النبي عليه الصلاة والسلام

---

(١) المائدة : ٣١ .

صلى مرة على المنبر ، ولما انتهى من صلاته أقبل على الناس فقال : « يا أيها الناس إني إنما صنعت هذا لتأتموا بي ولتعلَّموا صلاتي »[1] . وقد كان عليه الصلاة والسلام قدوة حسنة للصحابة رضي الله عنهم ، يقتدون به ، ويتعلمون منه ، ليس فقط شعائر العبادات ، وإنما كانوا يتعلمون منه كذلك حسن السلوك ، ومكارم الاخلاق ، وآداب التعامل الإنساني على وجه عام . وقد أوصانا القرآن بالاقتداء بالرسول عليه الصلاة والسلام والتعلم منه .

«لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا»[2]

وطالب القرآن المسلمين بالاقتداء بابراهيم عليه السلام والذين معه في تبرُّئهم من قومهم المشركين ، ودعاهم أن يكفوا مثله عن ولائهم لأقربائهم من المشركين .

« قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ..»[3]

«لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ »[4]

وطالب القرآن النبي عليه الصلاة والسلام بأن يقتدي بالأنبياء والرسل السابقين فيما هداهم الله تعالى إليه من عقيدة التوحيد وفضائل الأعمال .

---

(١) الحديث رقم ٤٠٨ . مختصر صحيح مسلم للحافظ المنذري .
(٢) الأحزاب : ٢١ .
(٣) الممتحنة : ٤ .
(٤) الممتحنة : ٦ .

« أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ .. » (١)

ويتعلم الإنسان عن طريق القدوة الحسنة عاداته الحسنة وأخلاقه الكريمة ، كما يتعلم عن طريق القدوة السيئة عاداته السيئة وأخلاقه القبيحة . وقد سبق أن أشرنا أثناء كلامنا عن جمود التفكير في الفصل الرابع الخاص بالتفكير في القرآن الى أن الاقتداء بالآباء في عباداتهم ، والتمسك بآرائهم وتقاليدهم كان من العقبات التي عانى منها الرسل والأنبياء في جميع العصور وحالت دون قبول المشركين لدعوة التوحيد .

التجربة العملية والمحاولة والخطأ :

ويتعلم الإنسان أيضاً عن طريق التجربة العملية في مواجهة مشكلات الحياة المختلفة ، ومحاولة حلها والتغلب عليها . ويقابل الإنسان دائماً في حياته مواقف جديدة لم يتعلم من قبل كيف يستجيب لها ، أو كيف يتصرف فيها . ويتوافق الإنسان دائماً لمثل هذه المواقف الجديدة بأن يحاول أن يستجيب لها باستجابات مختلفة ، فيخطئ في بعضها ، وقد يصيب أحياناً . وهكذا يتعلم الإنسان دائماً ، عن طريق ما يسميه علماء النفس المحدثون المحاولة والخطأ ، استجابات جديدة للمواقف الجديدة ، وحلولاً لما يقابله من مشكلات في حياته العملية .

ولقد حثّ القرآن الإنسان في كثير من آياته على السير في الأرض ، والملاحظة والتفكير في آيات الله في الكون . وقد ذكرنا كثيراً من هذه الآيات من قبل في الفصل السابق الخاص بالتفكير في القرآن . ولا شك أن اهتمام القرآن بدعوة الناس إلى الملاحظة والتفكير في الكون وما فيه من مخلوقات إنما يشير بوضوح إلى اهتمام القرآن بدعوة الناس إلى التعلم عن طريق ملاحظتهم للأشياء وتجربتهم العملية في الحياة ، وعن طريق تفاعلهم مع الكون وما فيه من مخلوقات وأحداث ،

---

(١) الأنعام : ٩٠ .

سواء كان ذلك عن طريق التجربة العملية والمحاولة والخطأ ، أو عن طريق التفكير وهو ما سوف نتناوله فيما بعد .

وقد أشار النبي عليه صلوات الله وسلامه إلى أهمية التعلم من التجربة العملية في الحياة . فعن طلحة بن عبد الله رضي الله عنه قال : (مررت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوم على رؤوس النخل فقال : « ما يصنع هؤلاء ؟ » ، فقالوا : يلقحونه ، يجعلون الذكر في الأنثى فيتلقح ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما أظن يغني ذلك شيئاً » ، قال : فأُخبروا بذلك فتركوه ، فأُخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ، فقال : « إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه ، فإني إنما ظننت ظناً ، فلا تؤاخذوني بالظن ، ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئاً فخذوا به ، فإني لن أكذب على الله عز وجل »)[1] . وفي رواية أخرى قال : « أنتم أعلم بأمور دنياكم »[2] . وقول الرسول عليه صلوات الله وسلامه : « إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه » ، وقوله كذلك : « أنتم أعلم بأمور دنياكم » إنما يشير إلى تعلم الإنسان عن طريق التجربة العملية استجابات جديدة لما يقابله من مواقف جديدة ، وحلولاً لما يجابهه من مشكلات في حياته العملية . وإلى هذا النوع من التعلم عن طريق التجربة العملية أو المحاولة والخطأ يشير القرآن بقوله :

« يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ »[3]

ويقول القرطبي في تفسير « يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا » : « يعني أمر معاشهم ودنياهم : متى يزرعون ومتى يحصدون ، وكيف يغرسون وكيف يبنون »[4] . وقال ابن كثير في تفسير ذلك : « أي أكثر الناس ليس لهم علم

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الفضائل ،جـ ١٥ ، ص ١١٦ ، ١١٧ .
(٢) المرجع السابق ، ص ١١٨ .
(٣) الروم : ٧ .
(٤) تفسير القرطبي ، جـ ١٤ ، ص ٧ .

إلا بالدنيا وأكسابها وشؤونها وما فيها ، فهم حذاق أذكياء في تحصيلها ووجوه مكاسبها »[1] .

التفكير :

ويتعلم الإنسان أيضاً عن طريق التفكير . فحينما يفكر الإنسان في حل مشكلة معينة فإنه يقوم في الواقع بنوع من المحاولة والخطأ ذهنياً . فهو يستعرض في ذهنه الحلول المختلفة للمشكلة ، ويرفض الحلول الخاطئة أو غير الملائمة ، ثم يختار الحل الذي يراه ملائماً وصحيحاً . فعن طريق التفكير يتعلم الإنسان حلولاً جديدة لمشكلاته ، ويكتشف علاقات بين الأشياء والأحداث ، ويستنبط مباديء ونظريات جديدة ، ويهتدي الى ابتكارات واختراعات جديدة . ولذلك يسمي علماء النفس المحدثون عملية التفكير «بعملية التعلم العليا» .

والمناقشة والحوار واستشارة أهل الرأي من العوامل التي تساعد على توضيح التفكير مما يؤدي إلى الاهتداء إلى الحق ، والوصول إلى حلول سليمة للمشكلات التي تبحث . وقد حثّ القرآن على الشورى ، ونوّة بفضل المؤمنين الذين يتشاورون في أمورهم بغية الوصول إلى الحق وتحقيق العدل في المجتمع .

« وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ »[2]

وطالب الله جل شأنه النبي عليه صلوات الله وسلامه أن يستشير أهل الرأي من الصحابة رضي الله عنهم :

«.. وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ..»[3]

---

(١) تفسير ابن كثير ، جـ ٣ ، ص ٤٢٧ .

(٢) الشورى : ٣٨ .

(٣) آل عمران : ١٥٩ .

واستخدم القرآن أسلوب المناقشة والحوار مع المشركين ، وساق لهم الأدلة العقلية التي تثبت بطلان عبادتهم للأوثان بغية إثارة تفكيرهم في أمر آلهتهم ، وبهدف إقناعهم بوضاعتها وحقارتها وعجزها حتى يتضح لهم عدم جدارتها بالألوهية . ومن أمثلة ذلك :

« أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ۝ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ۝ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ »(1)

مبادئ التعلم في القرآن

تتم عملية التعلم في يسر ونجاح إذا ما توافرت مبادئ معينة . وقد تتعثر عملية التعلم ، وقد تفشل إذا لم تتوافر هذه المبادئ . وإذا درسنا المنهج الذي اتبعه القرآن في دعوته لعقيدة التوحيد ، وفي تربيته للمؤمنين وغرس المبادئ والقيم الإسلامية في نفوسهم ، لاستطعنا أن نستخلص من هذا المنهج بعض المبادئ الهامة لعملية التعلم التي استخدمها القرآن في تغييره لسلوك المؤمنين ، وفي تعليمهم العقائد والقيم الإسلامية . وسنرى أن هذه المبادئ التي استخدمها القرآن في التربية الروحية للمؤمنين لم يكشف علماء النفس عن أهميتها في عملية التعلم إلا أخيراً في أوائل القرن العشرين . وسنحاول فيما يلي أن نستعرض مبادئ التعلم في القرآن .

الدافع :

للدافع أهمية كبيرة في التعلم . فإذا توافر الدافع القوي للحصول على هدف

---

(٢) الأعراف : ١٩١ – ١٩٥ .

معين توافرت الظروف المناسبة لكي يقوم الإنسان ببذل الجهد الضروري لتعلم الطرق الصحيحة للوصول إلى هذا الهدف . وإذا جابه الإنسان مشكلة ، وشعر بحاجة شديدة إلى حل هذه المشكلة ، فإنه يقوم في العادة بكثير من المحاولات لحل هذه المشكلة ، حتى ينتهي به الأمر إلى تعلم الحل الصحيح لهذه المشكلة . وقد بينت كثير من الدراسات التجريبية التي أجريت حديثا على الحيوان والإنسان أهمية الدافع في حدوث التعلم . وقد استخدم القرآن في تربيته الروحية للمسلمين أساليب مختلفة في إثارة دوافعهم إلى التعلم . فاستخدم الترغيب والترهيب ، واستخدم القصص للتشويق ، كما استعان بالأحداث الجارية الهامة التي تثير دوافع الناس وانفعالاتهم وتجعلهم متهيئين لتعلم العبرة من هذه الأحداث .

أ – إثارة الدافع بالترغيب والترهيب :

حينما يكون لدى الإنسان دافع قوي للحصول على هدف ما ، فإن الحصول على هذا الهدف الذي يشبع دافعه يعتبر ثواباً أو مكافأة تسبب الشعور باللذة ، أو السرور والرضا . والفشل في الحصول على هذا الهدف يعتبر نوعاً من العقاب الذي يسبب له الشعور بالألم ، أو الضيق والكدر. والإنسان – وكذلك الحيوان – يميل بطبيعته إلى ما يسبب له اللذة ، ويتجنب ما يسبب له الألم . ولذلك كان الإنسان ميالاً بطبيعته إلى تعلم الاستجابات أو الأفعال التي تؤدي الى الحصول على الثواب ، وإلى تجنب الاستجابات أو الأفعال التي تؤدي الى الفشل أو العقاب . وقد أثبتت التجارب الكثيرة التي أجراها علماء النفس المحدثون هذه الحقيقة .

وقد اهتم القرآن في دعوته إلى الإيمان بعقيدة التوحيد بإثارة دوافع الناس بترغيبهم في الثواب الذي سيحظى به المؤمنون في نعيم الجنة ، وبترهيبهم من العقاب أو العذاب الذي سيلحق بالكافرين في نار جهنم . وآيات الترغيب التي تصف نعيم الجنة تبعث في المسلمين الأمل في الحصول على هذا النعيم ، وتدفعهم إلى التمسك بالتقوى ، والإخلاص في أداء العبادات ، والعمل الصالح ، والجهاد في سبيل الله ، وعمل ما يرضي الله ورسوله ، آملين أن يكونوا من أهل الجنة .

والآيات التي تصف عذاب جهنم تبعث فيهم الرهبة من هذا العذاب الأليم الذي ينتظر الكافرين والمنافقين والعاصين لأوامر الله تعالى ، ويدفعهم ذلك إلى الابتعاد عن ارتكاب الذنوب والمعاصي وكل ما يغضب الله ورسوله ، آملين أن ينجيهم الله من عذاب جهنم . وهكذا كان المسلمون متأثرين بدافعين قويين ، أحدهما يدفعهم إلى القيام بالعبادات والتكاليف وكل ما يأمرهم به الشرع ، والآخر يدفعهم إلى تجنب القيام بالذنوب والمعاصي وكل ما ينهاهم عنه الشرع . وشعور الإنسان بهذين الدافعين القويين المتكاملين والمتفقين في الهدف يجعلانه في حالة استعداد تام وتهيؤ كامل للطاعة التامة لله والرسول ولتلبية كل ما يطلب منه من واجبات ومسؤوليات ، ولتعلّم كل ما يوجهه إليه الإسلام من نظام جديد للحياة ، وطريقة جديدة في التفكير والسلوك ، ولتجنب كل ما ينهى عنه الله سبحانه وتعالى ورسوله صلوات الله عليه وسلامه .

ويلاحظ أن القرآن لا يعتمد فقط في إثارة الدافع لقبول الإسلام على تخويف الناس وترهيبهم من العذاب الأليم في نار جهنم ، وانما يعتمد أيضاً في نفس الوقت على ترغيبهم في الاستمتاع بنعيم الجنة . وذلك لأن استخدام الترهيب وحده ، أو الترغيب وحده قد لا يكون مفيداً الفائدة المرجوة في تعديل السلوك وتوجيهه . فاستخدام الترهيب وحده قد يؤدي إلى طغيان الرهبة على النفس فتيأس من رحمة الله ، واستخدام الترغيب وحده قد يؤدي الى استيلاء الأمل في رحمة الله على النفس مما قد يوكلها إلى الدعة والتهاون والغفلة ، فتتمنى على الله ما ليس لها[1] . وفي هذا المعنى قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ليس الإيمان بالتمني ، ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل . إن قوماً ألهتهم أماني المغفرة حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم ، وقالوا نحسن الظن بالله ، وكذبوا ، لو أحسنوا الظن بالله لأحسنوا العمل له »[2] .

ولذلك ، فإن القرآن لا يعتمد على الترهيب فقط ، أو الترغيب فقط ، وإنما

(١) محمد سعيد رمضان البوطي : منهج تربوي فريد في القرآن ، مجلة الوعي الإسلامي (الكويت) ، السنة السابعة ، العدد ٨١ ، اكتوبر ١٩٧١ ، ص ٧٤ ٧٥ .
(٢) البهي الخولي : مرجع سابق ، ص ١٨٥ .

يعتمد على مزيج منهما : الخوف من عذاب الله ، والرجاء في رحمته وثوابه . وقد عبّر القرآن عن ذلك في وصف أصفياء الله من الأنبياء وعباده الصالحين فقال عنهم :

« .. إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ »(١)

« تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ »(٢)

وهذا المزيج من الخوف والرجاء كفيل بإثارة الدافع القوي لدى المسلمين لتعلم ما جاء به الإسلام من نظام جديد في الحياة ، وما تضمنه ذلك من تعلّم عقائد وقيم جديدة ، وأساليب جديدة في التفكير والسلوك . ومن أمثلة آيات الترغيب والترهيب التي تذكر النعيم الذي سيناله المؤمنون ، والعذاب الذي سيلحق بالكافرين في الحياة الآخرة :

« بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ »(٣)

« لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ۝ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ۝ لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ »(٤)

---

(١) الأنبياء : ٩٠ .

(٢) السجدة : ١٦ .

(٣) البقرة : ٨١ ، ٨٢ .

(٤) آل عمران : ١٩٦ ، ١٩٨ .

«إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا »[1]

« وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ »[2]

« إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ »[3]

«فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝ وَٱلَّذِينَ سَعَوْاْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ »[4]

« ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ »[5]

«وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ۝ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ۝ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْءَاخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ »[6]

---

(١) النساء : ٥٦ ، ٥٧ .
(٢) المائدة :٩ ، ١٠ .
(٣) طه : ٧٤ . ٧٥ .
(٤) الحج : ٥٠ ، ٥١ .
(٥) الحج : ٥٦ ، ٥٧ .
(٦) الروم : ١٤ – ١٦ .

ولا تقتصر آيات الترغيب والترهيب في القرآن على ذكر النعيم الذي سيلقاه المؤمنون ، والعذاب الذي سيلحق بالكافرين في الحياة الآخرة فقط ، بل إنها تذكر أيضاً ما يناله المؤمنون من خير ، وما يلحق بالكافرين من ألم وعذاب في الدنيا أيضاً . ومن أمثلة الآيات التي تذكر ما يناله المؤمنون من خير في الحياة الدنيا :

« وَيَـٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ »(١)

« فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا »(٢)

ومن أمثلة الآيات التي تذكر ما يصيب الكافرين من عذاب في الحياة الدنيا :

« ..وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ »(٣)

« وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ »(٤)

وذكرت بعض الآيات الأخرى حدوث الثواب للمؤمنين ، ووقوع العذاب للكافرين في كل من الحياة الدنيا والحياة الآخرة معاً. ومن أمثلة ذلك :

---

(١) هود : ٥٢ .
(٢) نوح : ١٠ - ١٢ .
(٣) الرعد : ٣١ .
(٤) هود : ٩٤ .

« فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ »(1)

« لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ »(2)

ب – إثارة الدافع بالقصص :

والقصص من الوسائل الهامة التي استخدمها القرآن أيضاً لإثارة الدافع للتعلم ، وذلك لما تثيره من التشويق لدى المستمعين ، ولما تستدعيه من الانتباه إلى تتبع الأحداث التي تروى في القصة . وكان القرآن يبث في ثنايا القصص ما يريد أن يبلغه للناس من أغراض دينية متعلقة بالعقائد ، أو من عبر وحكم يريد أن يعلمها لهم .

« لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ .. »(3)

ثم إن ما يمتاز به القصص القرآني من جمال فني يجعل ورود الأغراض الدينية إلى النفس أيسر ، وتأثيرها في وجدانهم أعمق(4) .

ويلاحظ في بعض قصص القرآن أنه يبدأ أولاً بذكر ملخص القصة ، ثم يعرض بعد ذلك تفصيلات القصة من بدايتها إلى نهايتها ، كما هو واضح مثلاً في قصة « أصحاب الكهف » . وذكر ملخص القصة قبل سرد تفصيلاتها إنما يؤدي إلى تشويق المستمعين وإثارة انتباههم لتتبع تفصيلات القصة(5) .

ويلاحظ في بعض القصص الأخرى أنها تبدأ أولاً بذكر عاقبة القصة ومغزاها ،

---

(1) آل عمران : ١٤٨ .
(2) الرعد : ٣٤ .
(3) يوسف : ١١١ .
(4) سيد قطب : التصوير الفني في القرآن ، ط ٣ . القاهرة : دار المعارف ، ١٩٧٥ ، ص ١٤٨ .
(5) المرجع السابق ، ص ١٤٨ ، ١٤٩ .

ثم تأتي بعد ذلك تفصيلات القصة ، كما هو ملاحظ في قصة موسى عليه السلام ، الواردة في سورة القصص . وذكر مغزى القصة أولاً يؤدي أيضاً إلى إثارة تشويق المستمعين وانتباههم لتتبع وقائع القصة لمعرفة كيف تحققت هذه الغاية [١] .

جـ – الاستعانة بالأحداث الهامة :

ومن العوامل التي تساعد على إثارة الدافع والانتباه وقوع بعض الأحداث أو المشكلات الهامة التي تهز وجدان الناس وتثير اهتمامهم وتشغل بالهم . ويكون الناس عادة تحت تأثير هذه الأحداث الهامة التي تمر بهم في حالة تهيؤ واستعداد لتعلم العبرة المتضمنة في هذه الأحداث . وقد استعان القرآن بالأحداث الهامة التي كانت تمر بالمسلمين لتعليمهم بعض العبر المفيدة لهم في حياتهم . ومن الطبيعي أن يكون المسلمون في أوقات وقوع هذه الأحداث المثيرة لوجدانهم أكثر استعداداً ، وأكثر قبولاً لتعلم العبرة واستيعابها [٢] . ومن أمثلة ذلك ما حدث في غزوة حنين حينما أعجب المسلمون بكثرتهم وقوتهم واطمأنوا إلى أنهم سينتصرون على الكفار ونسوا أن النصر بمشيئة الله وحده ، فأراد الله تعالى أن يعلم المسلمين أن الكثرة لا تؤدي بالضرورة إلى النصر ، وإنما ينصر الله من يشاء من عباده الذين يعمر الإيمان والتقوى قلوبهم حتى ولو كانوا قلة [٣] .

« لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ۝ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ » [٤]

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٤٩ .

(٢) محمد شديد : منهج القرآن في التربية . بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٩٧٩ ، ص ٢٧٧ .

(٣) عبد الفتاح جلال : مرجع سابق ، ص ١١٩ .

(٤) التوبة : ٢٥ ، ٢٦ .

التكرار :

إن تكرار عرض آراء وأفكار معينة على الناس يؤدي عادة إلى استقرار هذه الآراء والأفكار وتثبيتها في أذهان الناس . وقد بينت دراسات علماء النفس المحدثين أهمية التكرار في عملية التعلم . وقد فطنت المؤسسات التجارية والصناعية إلى أهمية التكرار في تثبيت الفكرة في أذهان الناس ، فقاموا بإنفاق الأموال الطائلة على الإعلانات التجارية التي تقوم بتكرار عرض أفكار معينة على الناس بهدف التأثير في اتجاهاتهم لترويج سلعهم التجارية .

ونحن نجد في القرآن تكراراً لبعض الحقائق المتعلقة بالعقيدة والأمور الغيبية التي يريد القرآن أن يثبتها في الأذهان ، كعقيدة التوحيد ، وأن الله تعالى هو وحده مصدر جميع الأديان ، والإيمان بالبعث ، ويوم القيامة ، والحساب ، والثواب والعقاب في الحياة الآخرة . إن كثيراً من آيات القرآن يكرر هذه المعاني لتثبيتها في الأذهان . ومن أمثلة تكرار عقيدة التوحيد ما جاء في سورة النمل وهي سورة مكية – من تكرار عبارة : «أإله مع الله» خمس مرات حتى تثبت هذه العقيدة في الأذهان .

«أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ۝ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ»(١)

---

(١) النمل : ٦٠ – ٦٤ .

وتكررت الدعوة الى التوحيد وعبادة الله الواحد الأحد أربع مرات في سورة هود وهي مكية . فقد ذكر القرآن في هذه السورة ما قاله بعض الأنبياء السابقين لأقوامهم حينما كانوا يدعونهم إلى عقيدة التوحيد . فذكر ما قاله نوح عليه السلام لقومه :

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ..»(1)

ثم ذكر القرآن ما قاله كل من هود وصالح وشعيب عليهم السلام إلى أقوامهم بصيغة واحدة تكررت ثلاث مرات في السورة :

« وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ..»(2)

« وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ..»(3) .

« وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ .. »(4)

كما تكررت عبارة « اعبدوا الله ما لكم من إله غيره » مرتين في سورة « المؤمنون » وهي مكية ، وذلك في الآيتين رقم ٢٣ و٣٢ .

ولقد جاء في القرآن أيضاً تكرار لقصص الأنبياء لكي يثبت في الأذهان حقيقة أن جميع الأديان من عند الله(5) . فهو سبحانه وتعالى الذي أرسل جميع أنبيائه إلى الناس في فترات التاريخ المختلفة لهدايتهم ودعوتهم للتوحيد وعدم الشرك بالله ، ولكي يبينّ أيضاً لكفار قريش المصير الذي لقيه من قبل من كذبوا

(١) هود : ٢٥ ، ٢٦ .
(٢) هود : ٥٠ .
(٣) هود : ٦١ .
(٤) هود : ٨٤ .
(٥) سيد قطب : مرجع سابق ، ص ١٠٩ .

الأنبياء ، ويحذرهم من المصير الذي ينتظرهم إذا ما هم كذبوا النبي صلى الله عليه وسلم . فنجد ، مثلاً ، في سورة القمر ، وهي مكية ، تكراراً لذكر العذاب الذي سيلقاه الكافرون ، ولإنذار الله تعالى لهم بهذا العذاب ، وذلك بهدف إثارة انتباه كفار قريش وتذكيرهم بالمصير الذي لاقاه الذين كذبوا أنبياءه من قبل ، وتحذيرهم من لقاء نفس هذا المصير إذا ما استمروا في تكذيبهم للنبي عليه صلوات الله وسلامه[1] . فقد تكررت في هذه السورة الآية التالية ثلاث مرات :

« فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ »[2]

كما تكررت الآية التالية أربع مرات في نفس السورة :

« وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ »[3]

ويلاحظ أيضاً في سورة المرسلات ، وهي أيضاً مكية ، أن عبارة : « ويل يومئذٍ للمكذبين » قد تكررت عشر مرات . وكانت هذه السورة تذكر كثيراً من النعم التي أنعم الله تعالى بها على الناس ، وكثيراً من النقم التي أنزلها الله تعالى بهم ،فكانت هذه العبارة تأتي بعد كل نعمة يذكرهم الله بها ، وبعد كل نقمة يخوفهم منها ، وذلك ليثير انتباههم إلى هذه النعم والنقم ليكون ذلك رادعاً لهم عن التمادي في التكذيب ، وزاجراً لهم عن الاستمرار في الكفر . هذا فضلاً عما في تكرار جملة واحدة عدة مرات خلال الكلام من تأثير خطابي ، وهو أمر « مألوف للعرب معهود في خطبهم وأشعارهم »[4] .

وفي القرآن أيضاً آيات كثيرة تتكلم عن البعث ، ويوم القيامة ، ويوم

---

(١) انظر أيضاً في هذا الموضوع : عبد الوهاب حمودة : القرآن وعلم النفس . القاهرة : دار القلم ، ١٩٦٢ ، ص ٩٥ ، ٩٦ .

(٢) القمر : ١٦ ، ٢١ ، ٣٠ .

(٣) القمر : ١٧ ، ٢٢ ، ٣٢ ، ٤٠ .

(٤) عبد الوهاب حموده : مرجع سابق ، ص ٩٦ ، ٩٧ .

الحساب ، ونعيم الجنة ، وعذاب جهنم ، وخلق آدم وحواء ، وعداء إبليس لهما . ويهدف القرآن من تكراره لذكر هذه الأمور الغيبية إلى استقرار الإيمان بها في النفوس ، وإلى تثبيت ما يبثه أثناء سرده لها من عقائد وعبر وعظات .

وليس تكرار القصص في القرآن تكراراً تاماً ، وإنما كان القرآن يذكر من القصة الأحداث التي تتفق مع سياق المعاني الواردة في السورة . وإذا كرر القرآن حلقة من القصة فإنه عادة ما يورد فيها شيئاً جديداً لم يذكره من قبل ، ويحدث في ألفاظها بعض التعديل ، وتقديم وتأخير مما تتطلبه العبرة المقصودة من ذكر القصة . فالقرآن لا يسرد قصص الأنبياء باعتبارها تاريخاً يراعي فيه الترتيب الزمني للوقائع ، وإنما هو يذكرها لما في أحداثها من عبر وعظات . ولذلك فهو يذكر من وقائع القصة ما يناسب العبرة التي يريد أن يبثها في الناس [1] .

ولا شك أيضاً في أن عرض بعض الأحداث أو الأفكار في صور أو صيغ مختلفة إنما يؤدي إلى إثارة الانتباه ، ويمنع من حدوث الملل الذي يمكن أن ينتاب الإنسان إذا ما عرضت عليه فكرة معينة عدة مرات في صورة واحدة لا تتغير . وقد بينت دراسات علماء النفس المحدثين والمتخصصين في الدعاية والإعلام أهمية تغيير الصيغة التي يُعبرَّ بها عن فكرة معينة لتجنب الملل ولإثارة الانتباه ، وهو أمر يراعيه الآن القائمون بالإعلان التجاري .

والتكرار يثبت التعلم ، سواء كان ما يتعلمه الإنسان عادة حسنة ، أم عادة سيئة . فتكرار الناس للسلوك السيئ يثبته ويجعله عادة مستقرة يصعب التخلص منها إلا بمجهود كبير وإرادة قوية . ولهذا كان تكرار المشركين لعقائدهم وعباداتهم القديمة التي تعلموها عن آبائهم من عوامل استقرارها في سلوكهم بحيث لم يكن من السهل عليهم التخلص منها . وقد أشار القرآن في كثير من الآيات إلى ما لاقاه الأنبياء في جميع عصور التاريخ من صعوبة في إقناع المشركين بعقيدة التوحيد بسبب تمسكهم بعباداتهم القديمة التي نشأوا عليها . وقد سبق أن أشرنا إلى ذلك أثناء كلامنا عن أخطاء التفكير وجموده في الفصل الرابع

---

(١) عبد الوهاب حمودة : مرجع سابق ، ص١٠٣ – ١٠٥ .

الخاص بالتفكير في القرآن . وقد أشار القرآن إلى تأثير تكرار غفلة الإنسان عن الله سبحانه وتعالى ، وتكرار انغماسه في الكفر ، وارتكابه للذنوب والمعاصي ، فإن ذلك يجعل الإنسان غير متهيئ لقبول دعوة التوحيد بسهولة . وهذا ما عبر عنه القرآن في كثير من الآيات بفكرة « الطبع على القلوب » ، وقد سبق أن أشرنا إلى ذلك أيضاً أثناء كلامنا عن جمود التفكير في الفصل الرابع الخاص بالتفكير في القرآن .

ويعبر القرآن أيضاً عن فكرة استقرار العادات السيئة والمعاصي نتيجة للتكرار بحيث يغشى العقل ما يشبه الصدأ فيعوقه عن التمييز ، ويصعب على النفس الإقلاع عما اعتادت عليه من معاصٍ ، وذلك في قوله :

« كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ »(١)

وفي هذا المعنى قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إذا أذنب الرجل نُكِتَتْ على قلبه نكتة سوداء ، فإذا أذنب ثانياً نكتت أخرى . فلا يزال كذلك حتى يصير قلبه كلون الشاة الرمداء » . وفي خبر آخر : « الذنب على الذنب حتى يسود القلب فلا ترجى له الإنابة »(٢) .

الانتباه :

إن الانتباه عامل هام في التعلم واكتساب المعرفة وتحصيل العلم . فإذا لم ينتبه الإنسان ، مثلاً ، إلى محاضرة ما ، فإنه لا يستطيع أن يدرك ما تضمنته من معلومات ، وهو بالتالي لا يستطيع أن يتعلمها وأن يتذكرها فيما بعد . ولذلك فإن المعلمين والمربين يحرصون دائماً على إثارة انتباه تلاميذهم حتى يمكنهم استيعاب الدروس وفهمها وتعلمها . ولقد كان استخدام القرآن للقصص ، كما أشرنا إلى ذلك سابقاً ، عاملاً هاماً في إثارة الانتباه إلى ما تتضمنه من مواعظ وعبر ودعوة إلى التوحيد . وقد نوه القرآن بأهمية الانتباه في استيعاب المعلومات وذلك في قوله :

---

(١) المطففين : ١٤ .

(٢) أبو القاسم الحسن بن محمد بن المفضل الراغب الأصفهاني : مرجع سابق ، ص ٩٧ .

«إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ»(١)

وقد جاءت هذه الآية بعد آية أخرى ذكر الله تعالى فيها أنه أهلك قبل قريش أمماً كثيرة من الكفار كانوا أشد منهم بطشاً . ويشير الله تعالى في هذه الآية الى أن في ذلك عظة لكل من له عقل ، أو استمع إلى هذا الكلام وفهمه وهو حاضر الذهن مركز الانتباه .

ويشير القرآن أيضاً إلى أهمية الانتباه حينما يذكر في سورة المزمل أن القيام بعد النوم يجعل الإنسان أكثر انتباهاً لمعاني القرآن ، وأكثر تفهماً لها . ولعل ذلك راجع إلى راحة الذهن بعد النوم من جهة ، وإلى الهدوء الذي يسود الليل وعدم الانشغال بالأمور المعيشية التي تشغل بال الإنسان عادة أثناء النهار ، من جهة أخرى . يقول القرآن :

«إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا»(٢)

وأشار القرآن أيضاً إلى أهمية الانتباه في الفهم والتعلم بقوله :

«وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ»(٣)

فالاستماع إلى القرآن والإنصات إليه يتضمن معنى الانتباه إلى ما يقرأ من آياته لتدبر معناها وفهمها ، وتعلم ما فيها من عقائد وتعاليم وأوامر ونواهٍ وعبر وحكم . ومن الواضح أن في ذلك إشارة إلى أهمية الانتباه في الفهم والتعلم .

---

(١) ق : ٣٧ .

(٢) المزمل : ٦ . قال ابن كثير في تفسير ذلك : «والمقصود إن قيام الليل هو أشد مواطأة بين القلب واللسان ، وأجمع على التلاوة . ولهذا قال تعالى (هي أشد وطئاً وأقوم قيلا) أي أجمع للخاطر في أداء القراءة وتفهمها من قيام النهار لأنه وقت انتشار الناس ولفظ الأصوات وأوقات المعاش» . تفسير ابن كثير ، جـ ٤ ، ص ٤٣٥ .

(٣) الأعراف : ٢٠٤ .

ومما يساعد على تركيز الانتباه ويسهل عملية التعلم عرض المعاني المجردة بطريقة مبسطة وموضحة وذلك بتمثيلها بأمور واقعية محسوسة حتى يمكن إدراكها وفهمها . ولهذا فإن المعلمين الآن كثيراً ما يستعينون بالوسائل البصرية والسمعية والتجارب العملية في شرح القوانين والنظريات العلمية ، مما يثير انتباه التلاميذ ويساعد على إدراكهم وفهمهم لها . والقصص والأمثال في القرآن إنما هي أساليب استخدمها القرآن لتجسيد المعاني العقائدية للدعوة الإسلامية وتقريبها إلى الأذهان . فالسامع لقصص القرآن يتحول إلى مشاهد لوقائع وأحداث تتجسَّد فيها هذه المعاني[1] ، ويؤدي ذلك بلا شك إلى شد انتباهه إلى هذه المشاهدالتي تتوالى في خياله واحدة بعد أخرى . وتؤدي الأمثال أيضاً في القرآن نفس هذا الدور ، فهي تقوم بتجسيد المعاني بتشبيهها وتصويرها بأشياء محسوسة مما يجعلها أقرب إلى إدراك الناس وفهمهم[2] . ومن أمثلة ذلك المثال الوارد في سورة إبراهيم والذي يشبه فيه الله تعالى عدم انتفاع الكافرين بأعمالهم الخيرة في الدنيا لعدم قيامها على أساس من الإيمان برمادٍ يطير من الريح الشديدة في يوم عاصف فلا يستطيع الإنسان الإمساك به :

«مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ »[3]

ومن أمثلة ذلك أيضاً المثال الذي شبه به الله تعالى الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة التي تفيد الناس بثمرها الطيب ، والضاربة بجذورها في عمق الأرض ، والمرتفعة بساقها وأغصانها في عنان السماء ، وتعطي ثمرها في كل وقت حدده الله تعالى بمشيئته . وكذلك كلمة التوحيد ثابتة في قلب المؤمن ، ويصعد عمله الطيب إلى الله تعالى ، وينال بركته وثوابه في كل وقت . كما شبّه الله تعالى

(١) محمد علي التسخيري : مرجع سابق : ص ١٤١ ، ١٤٢ ؛ سيد قطب : مرجع سابق ، ص ٦٢ – ٧٣ .
(٢) محمد علي التسخيري : مرجع سابق ، ص ١٤٢ ، ١٤٣ .
(٣) ابراهيم : ١٨ .

الكلمة الخبيثة بشجرة خبيثة اقتلعت من الأرض فليس لها ثبات فيها . وكذلك كلمة الباطل داحضة لا ثبات لها [1] .

« أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۞ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۞ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ » [2]

ومن أمثلة ذلك أيضاً المثال الوارد في سورة الرعد الذي بينَّ فيه الله تعالى أن الحق يبقى ، والباطل يزول . وشبه بقاء الحق وزوال الباطل بما تحمله الأنهار في جريانها مما يكون نافعاً للناس فيبقى ، وما لا يكون نافعاً لهم كالزبد فيعلو على سطحها ويذهب جفاء . كما شبه تعالى أيضاً بقاء الحق وزوال الباطل بما يحدث عند صهر المعادن بالنار ، فما ينفع الناس منها يبقى كالذهب والفضة اللذين تصنع منهما الحلى ، وكالحديد والنحاس اللذين تصنع منهما الآلات والأدوات النافعة للإنسان ، وما لا ينفع منها يعلو السطح ويرمى وينبذ .

« أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ » [3]

وتبتدئ بعض سور القرآن بحروف مثل : « الٓمٓ ، الٓر ، الٓمٓصٓ ، الٓمٓر ، كٓهيٓعٓصٓ ، طسٓمٓ » . وقد ذكر المفسرون تفسيرات مختلفة للمراد من هذه

(١) المنتخب في تفسير القرآن الكريم ، ص ٣٦٨ .
(٢) ابراهيم : ٢٤ — ٢٦ .
(٣) الرعد : ١٧ .

الحروف . ومما قيل في تفسيرها أن المقصود منها إثارة انتباه المشركين للاستماع إلى القرآن لما لها من جرس خاص . فقد كان المشركون قد تواصوا بعدم الاستماع إلى القرآن ، وكان الابتداء بهذه الحروف يفتح لاستماعها أسماع المشركين ، حتى إذا ما استمعوا تلي عليهم القرآن المؤلف من هذه الحروف[1] .

ومما يثير الانتباه أيضاً استخدام القسم فاتحة لبعض السور المكية . وقد ورد القسم في القرآن في بداية خمس عشرة سورة . ومن أمثلة ذلك : « والصافاتِ ، والذارياتِ ، والطورِ ، والنجمِ ، والسماءِ ذاتِ البروج ، والسماءِ والطارق ، والفجرِ ، والعصرِ » . وكان ذلك مدعاة لجذب الانتباه إلى الاستماع إلى القرآن ، « فإن البدء به هو جذب لانتباه السامع لوقوع القسم على سمعه في شيء من الرهبة . فإذا حدث ذلك صحبه تهيؤ نفسي لتلقي ما يقال خصوصاً وإن ما يقال مبني على قسم ، والقسم شيء يهول . وفي هذه الحال يكون الإنسان أشد تأثراً بما يسمع مما لو فاتحته بما تريد من طريق الجدل والنقاش »[2] .

وفضلاً عن ذلك ، فإن أسلوب القرآن الذي يتميز بالإعجاز البلاغي ، والإيقاع الموسيقي إنما يهز الوجدان ، ويشد إليه الانتباه . ويمتاز أسلوب القرآن أيضاً بتناسق الجرس اللفظي أروع التناسق مع المعاني التي تؤديها الألفاظ مما يعطي للألفاظ « بعداً آخر غير البعد الدلالي المعتاد ، وإذا بالإنسان يجسد المعنى ضمن سماعه لصوت اللفظ وأدائه »[3] . ولا شك أن ذلك يشد الانتباه ، ويخلق في الإنسان إحساساً بالموقف الذي يصوره القرآن مما يؤدي إلى دقة الاستيعاب والفهم .

المشاركة الفعّالة :

إن تعلم المهارات الحركية يقتضي أن يقوم المتعلم بأداء هذه المهارات بالفعل ،

(١) تفسير ابن كثير ، جـ ١ ، ص ٣٧ ؛ تفسير المنار ، جـ ١ ، ص ١٢٢ .
(٢) عبد الوهاب حمودة : مرجع سابق ، ص ١٦ ، ١٧ .
(٣) محمد علي التسخيري : مرجع سابق ، ص ١٤٣ ، ١٤٤ .

وأن يتدرب عليها حتى يتقنها . وليست الممارسة العملية مهمة فقط في تعلم المهارات الحركية ، بل إنها مهمة أيضاً في تعلم العلوم النظرية ، وفي تعلم السلوك الخلقي والفضائل والقيم وآداب السلوك الاجتماعي . فإن أداء الفرد بنفسه لما يريد أن يتعلم يساعد على سرعة التعلم وإتقانه . وقد تبين من نتائج إحدى الدراسات التجريبية أن الأفراد الذين كانوا يقرأون بأنفسهم بعض الحروف والكلمات المقابلة لها كانوا أسرع في حفظها من الأفراد الذين كانوا يستمعون فقط الى المجرّب يقرأ عليهم هذه الحروف والكلمات ، كما كانوا يرونها في نفس الوقت تعرض أمامهم على الشاشة بوساطة فيلم سينمائي(١) . وقد بينت نتائج هذه التجربة أهمية المشاركة الفعالة في عملية التعلم .

ونحن نجد في القرآن تطبيقاً لمبدأ المشاركة الفعالة ، يتضح ذلك من الأسلوب الذي اتبعه القرآن في تعليم المسلمين الخصال النفسية الحميدة ، والأخلاق والعادات السلوكية الفاضلة عن طريق تدريبهم العملي عليها بما كلفهم القيام به من عبادات مختلفة . فالوضوء وأداء الصلاة في مواعيد معينة كل يوم يعلمان المسلمين النظافة والطاعة والنظام والصبر والمثابرة . والصوم يعلمهم أيضاً الطاعة ، والصبر على تحمل المشاق ، والعطف على الفقراء . والحج يعلمهم الطاعة ، والصبر على تحمل المشاق . وسنتعرض لفوائد العبادات في شيء من التفصيل فيما بعد في الفصل العاشر الخاص بالعلاج النفسي في القرآن .

وقد عني القرآن عناية فائقة ، إلى جانب تعليم المسلمين الإيمان والعقائد الدينية ، بتوجيههم إلى العمل الصالح . فالإيمان الصادق يجب أن يعبر عنه في سلوك المؤمن وعمله ، وذلك بالتحلي بالأخلاق الفاضلة ، وحب الخير للناس ، وبالسبق إلى أداء ما يرضي الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام . وقد ورد الإيمان في كثير من آيات القرآن مصحوباً بالعمل الصالح . ومن أمثلة ذلك :

---

(١) محمد عثمان نجاتي : مرجع سابق ، ص ١٩٥ – ١٩٧ .

« وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ .. »(١)

« وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ »(٢)

« إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ »(٣)

« وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ »(٤)

« وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۙ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ »(٥)

« وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا »(٦)

« وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ »(٧)

توزيع التعلم :

بينت الدراسات التجريبية التي قام بها علماء النفس المحدثون أن توزيع التعلم أو التدريب على فترات متباعدة تتخللها فترات راحة يساعد على سرعة التعلم وتثبيته في الذاكرة ، وأن التعلم الذي يحدث باستخدام طريقة التوزيع أفضل كثيراً من التعلم الذي يحدث باستخدام طريقة التركيز ، وهو

---

(١) البقرة : ٢٥ .
(٢) البقرة : ٨٢ .
(٣) البقرة : ٢٧٧ .
(٤) آل عمران : ٥٧ .
(٥) المائدة : ٩ .
(٦) الكهف : ٨٨ .
(٧) طه : ٨٢ .

التعلم الذي يتم في فترة زمنية متصلة دون أن تتخللها فترات راحة[1] . وقد طبق هذا المبدأ في القرآن ، إذ أنه نزل على فترات متباعدة في مدة طويلة من الزمن قدرها ثلاث وعشرون سنة وذلك حتى يستطيع الناس أن يتعلموه على مهل ، وأن يستوعبوا معانيه ، وقد ساعد ذلك على اتقان تعلمه وفهمه وحفظه . ولو كان القرآن نزل كله دفعة واحدة لكان من الصعب تعلمه ، وفهم معانيه وأغراضه .

« وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا »[2]

« وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا »[3]

التدرج في تعديل السلوك :

إن التخلص من بعض عاداتنا السيئة القوية التي مارسناها مدة طويلة من الزمن بحيث أصبحت ثابته ومستقرة في سلوكنا ليس بالأمر السهل بالنسبة لكثير من الناس ، إذ أن ذلك يحتاج إلى إرادة قوية ، وجهد كبير ، وتدريب طويل ، وهذا أمر قد لا يطيقه كثير من الناس . ولذلك فإن أفضل طريقة يمكن اتباعها للتخلص من عاداتنا السيئة المستحكمة هي أن نعمل على التخلص منها تدريجياً .

إن أحسن طريقة للتخلص من انفعال ما ، كانفعال الخوف مثلاً ، هي أن نقوم بالتدريج بإحلال انفعال معارض لانفعال الخوف كانفعال السرور أو الحب مثلاً محل انفعال الخوف حتى نصل في النهاية إلى التخلص النهائي من الخوف . وقد بينت بعض التجارب التي أجراها بعض علماء النفس المحدثين

---

(١) محمد عثمان نجاتي : مرجع سابق ، ص ١٩٠ – ١٩٤ .

(٢) الإسراء : ١٠٦ . جاء في المنتخب في تفسير القرآن الكريم في تفسير هذه الآية : «وقد فرقنا هذا القرآن ، ونزلناه منجماً على مدة طويلة ، لتقرأه على الناس على مهل ليفهموه» .

(٣) الفرقان : ٣٢ . كذلك : أي لقد أنزلناه كذلك مفرقاً لنثبت به فؤادك ؛ بأنسك به وحفظك له . ورتلناه : فرقناه ، أو قرأناه على لسان جبريل شيئاً فشيئاً على تؤدة وتمهل . انظر المنتخب في تفسير القرآن الكريم .

أنه أمكن بهذه الطريقة تخليص الطفل من خوفه من حيوان ما ، وتعليمه حب هذا الحيوان بدلاً من الخوف منه[1] . وبهذه الطريقة أيضاً يمكن التخلص من عاداتنا السيئة ، بأن نحل محلها عادات معارضة ، وهو أسلوب يتبعه بعض علماء النفس المحدثين في العلاج النفسي .

ولقد كان للعرب قبل الإسلام بعض العادات السيئة المستقرة في سلوكهم ، ولم يكن من السهل في المرحلة الأولى من الدعوة الإسلامية أن يطلب من المسلمين التخلي عن بعض عاداتهم السيئة القوية التي ألفوهامدة طويلة من الزمن ، ولذلك فقد اتبع الإسلام في علاج هذه العادات السيئة أسلوبين . الأسلوب الأول هو تأجيل علاج هذه العادات حتى يستقر الإيمان في قلوب المسلمين بحيث يمكن الاستعانة بقوة الإيمان كدافع قوي يسهل عملية التخلص من العادات السيئة المستحكمة ، وتعلم عادات جديدة بدلاً منها . ولهذا السبب كانت معظم آيات القرآن التي نزلت بمكة في المرحلة الأولى من الدعوة الإسلامية تتعلق أساساً بالدعوة إلى عقيدة التوحيد . وكان الرسول عليه صلوات الله وسلامه يتعهد من يؤمنونبدعوته بالتربية الروحية لترسيخ الإيمان والتقوى في نفوسهم . ولا شك أن ذلك كان مرحلة ضرورية وهامة في الإعداد النفسي للمسلمين بحيث أصبحوا في حالة تهيؤ تام لتغيير سلوكهم وعاداتهم وأفكارهم ونظام حياتهم تغييراً كاملاً . كما جعلهم أيضاً في حالة استعداد لقبول الآيات التي نزلت فيما بعد للنهي عن عادات كانت شائعة بينهم ، ما كان المسلمون في أول عهدهم بالإسلام مستعدين لتقبلها بسهولة كالنهي عن الخمر والربا . ولكن بعد أن رسخ الإيمان في قلوب المسلمين ، كان الإيمان دافعاً قوياً إلى الطاعة التامة لله والرسول ، وإلى تقبلهم عن رضا كل ما يؤمرون به حتى ولو كان ذلك يتطلب منهم الامتناع عن عادات قديمة كانت قد استقرت في سلوكهم من قبل لسنوات طويلة . فحينما نزلت آيات تحريم الخمر فيما بعد ، وكان الإيمان قد استقر في القلوب ، امتنع المسلمون جميعاً عن شربه ، وقاموا بسكب كل ما لديهم منه في شوارع المدينة .

أما الأسلوب الثاني الذي استخدمه القرآن في علاج المسلمين من عاداتهم السيئة المستقرة القوية فقد كان عبارة عن التهيئة المتدرجة لنفوس المسلمين للتخلص

(١) محمد عثمان نجاتي : مرجع سابق ، ص ١٣٧ ، ١٣٨ .

من هذه العادات ، وذلك عن طريق التكوين التدريجي لاستجابة معارضة للاستجابة المطلوب التخلص منها . وقد اتبع القرآن هذه الطريقة في علاج مشكلة شرب الخمر . فقد عمد القرآن في أول الأمر إلى تنفير المسلمين من شرب الخمر ، وتكريههم لها ، دون أن يقوم بتحريمها تحريماً تاماً . ثم تدرج بهم إلى التحريم التام . فكانت أول آية نزلت في الخمر تشير إلى أن مضارها أكبر من منافعها ، وفي هذا تنفير للمسلمين منها ، وحث على الامتناع عن شربها . وقد قام بعض الصحابة فعلاً بترك شرب الخمر بعد نزول هذه الآية ، ولكنهم لم يتركوها كلهم . قال تعالى :

« يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا .. »[1]

ثم تدرج القرآن بعد ذلك إلى درجة أشد حزماً في تنفير المسلمين من شرب الخمر ، وفي حثهم على الامتناع عنها ، حينما كان بعض الصحابة يذهبون إلى الصلاة وهم سكارى فيخطئون في قراءة القرآن ، فحرم عليهم القرآن أن يقربوا الصلاة وهم سكارى . وفي ذلك ، في الواقع ، تحريم لشرب الخمر في معظم أوقات اليوم .

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ .. »[2]

إن الامتناع عن شرب الخمر خمس أوقات في اليوم ، وهي أوقات تشمل معظم ساعات اليوم تقريباً ، إنما كان بمثابة تدريب للمسلمين على الإقلاع عن شرب الخمر . وقد جعلهم هذا التدريب متهيئين نفسياً للانتقال إلى المرحلة التالية وهي الامتناع نهائياً عن تعاطي الخمر ، وذلك حينما نزلت الآية التي حرمت الخمر تحريماً تاماً .

---

(١) البقرة : ٢١٩ .

(٢) النساء : ٤٣ .

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ »(١)

إن هذا الأسلوب في التدرج في تحريم الخمر قام بإضعاف حب المسلمين لها تدريجياً ، وأحل محل الميل إليه والرغبة فيه استجابة معارضة له هي استجابة النفور والكره . وقد تمت هذه العملية تدريجياً حتى وصلت إلى النهاية المطلوبة بنجاح تام . فما نزلت آية التحريم حتى قام جميع مسلمي المدينة بالتخلص مما لديهم من خمر بسكبها في شوارع المدينة . ولو كانت نزلت آية تحريم الخمر في مكة أثناء المرحلة الأولى من الدعوة الإسلامية لما كنا نتوقع أن يكون لها في نفوس المسلمين نفس التأثير الذي احدثته حينما نزلت في المدينة في وقت كان فيه الإيمان قد استقر قوياً في قلوبهم ، وكان التحريم التدريجي للخمر قد هيأهم نفسياً للإقلاع النهائي عن شربها بمجرد نزول آية التحريم . ويروى عن السيدة عائشة رضي الله عنها أنها قالت : « إنما نزل أول ما نزل منه (أي القرآن) سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام . ولو نزل شيء : لا تشربوا الخمر ، لقالوا لا ندع الخمر أبداً . ولو نزل : لا تزنوا ، لقالوا لا ندع الزنا أبداً »(٢) .

وقد اتبع القرآن هذا الأسلوب ذاته في علاج الربا الذي كان متفشياً بين العرب في الجاهلية ، فقام بتحريمه تدريجياً . ويمكن أن نشير إلى أربع مراحل مرّ بها تحريم الربا(٣) .

في المرحلة الأولى أظهر الله تعالى عدم رضاه عن الربا . وذلك في قوله تعالى :

---

(١) المائدة : ٩٠ ، ٩١ .

(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، جـ ١٩ ، ص ٤٨ .

(٣) مصطفى الرافعي : الإسلام ومشكلات العصر . بيروت : دار الكتاب اللبناني ، ١٩٧٢ ، ص ٢٠٠ . ٢٠١ .

« وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ ..»[1]

وفي المرحلة الثانية نزلت آية كان فيها وعيد لليهود بسبب ممارستهم للربا ، وفي ذلك تلويح بالتحريم ، وإن لم يكن نصاً صريحاً بالتحريم .

« فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ۝ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا »[2]

وفي المرحلة الثالثة حرم الله تعالى الربا الفاحش الذي كان يمارسه العرب في الجاهلية ، وذلك بقوله تعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ »[3]

وفي المرحلة الرابعة حرم الله تعالى الربا تحريماً قاطعاً بقوله تعالى :

« الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ »[4]

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝

---

(١) الروم ٣٩

(٢) النساء : ١٦٠ ، ١٦١ .

(٣) آل عمران : ١٣٠ .

(٤) البقرة : ٢٧٥ ، ٢٧٦ .

فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ »[1]

وكانت الآية الأولى التي نزلت عن الربا وهي التي تشير إلى عدم رضا الله سبحانه وتعالى عنه مكية ، أما الآيات الأخرى التي نزلت بعد ذلك وخاصة آيات التحريم القاطع للربا فهي مدنية . ومن ذلك يتبين أيضاً أن التحريم القاطع للربا قد نزل أيضاً بعد أن استقر الإيمان في قلوب المسلمين .

والأسلوب الذي اتبعه القرآن الكريم في علاج تعاطي الخمر والربا هو التكوين التدريجي لاستجابة النفور والكراهية لهما حتى تصل إلى درجة من القوة يمكنها أن تتغلب على استجابة الميل والحب لهما ، وبذلك استطاع القرآن أن يعالج بنجاح هاتين العادتين القويتين المستقرتين في سلوك العرب ، وأن يقضي عليهما بأسلوب مخطط في غاية الدقة والحكمة .

وقد توصل بعض المعالجين النفسيين حديثاً إلى أسلوب في العلاج النفسي مستمد من أبحاث سكنر Skinner في الإشراط الإجرائي ، وهو يشبه كثيراً الأسلوب الذي استخدمه القرآن في علاج تعاطي الخمر والربا . ويعرف هذا الأسلوب في العلاج النفسي «بالتشكيل» ومن أمثلة تعديل السلوك عن طريق التشكيل حالة مريض عقلي نزيل أحد مستشفيات الأمراض العقلية كان يرفض الذهاب إلى حجرة خاصة بالمستشفى أعدت لإجراء بعض التجارب على المرضى ، وكانت تقع هذه الحجرة في الدور الأرضي من المستشفى . وتتلخص الطريقة التي اتبعت مع هذا المريض لدفعه إلى النزول إلى هذه الحجرة في مكافأته على قيامه بالأفعال التي تقترب شيئاً فشيئاً من الاستجابة النهائية المطلوب أداؤها . فحين يدير المريض رأسه لأول مرة نحو الباب الموصل إلى السلم الذي يؤدي إلى الدور الأرضي أسرع المعالج بمكافأته بقطعة من الحلوى التي يحبها . وسرعان ما يعاود المريض الالتفات نحو الباب ، وكان دائماً يكافأ على ذلك بقطعة من الحلوى . وبعد تكرار ذلك عدة مرات وقف المريض في مواجهة الباب . وبعد استكمال

(١) البقرة : ٢٧٨ ، ٢٧٩ .

هذه المرحلة من التدريب ، امتنع المعالج عن مكافأته إلا إذا خطا خطوة نحو الباب . وبعد مكافأة المريض عدة مرات عقب الخطوات التي خطاها نحو الباب ، امتنع المعالج عن مكافأته إلا إذا خطا خطوة في اتجاه السلم الموصل إلى الدور الأرضي . واستمر العلاج على هذا النحو عدة أيام حتى نزل المريض بالفعل الدرج ودخل الحجرة المعدة لإجراء التجارب (١) .

وقد استخدمت طريقة التشكيل أيضاً في تعليم الأطفال بعض الاستجابات الصعبة ، وذلك بالعمل على تكوين هذه الاستجابات لديه تدريجياً . فمثلاً ، إن الطفل الذي لم يتعلم من قبل النظافة والذهاب إلى الحمام في الوقت المناسب ، ويكون قد تجاوز السن الذي يتعلم فيه معظم الأطفال ذلك ، فإنه يمكن أن نعلمه ذلك بأن نبدأ بإثابته بإعطائه حلوى ، مثلاً ، لمجرد أن يقوم باستجابة الذهاب إلى الحمام . فإذا تعلم الطفل ذلك ، ينتقل العلاج إلى الخطوة التالية وهي أن يطلب منه أن يذهب إلى الحمام عند احتمال ظهور حاجته إلى الإخراج بطريقة لا إرادية ، ثم يثاب الطفل عندما يتم الإخراج إثابة أكبر بإعطائه قطعة أكبر من الحلوى ، وبثناء كثير من والديه . ثم أخيراً يثاب الطفل ثواباً أكبر إذا أخبر والديه بأنه يحتاج إلى الذهاب إلى الحمام وقبل أن يتم الإخراج بطريقة لاإرادية (٢) . إن هذا الأسلوب في العلاج يعتمد أساساً على التكوين التدريجي للاستجابة المطلوب تعلمها عن طريق التعلم التدريجي لأنواع من الاستجابات المتوسطة والتي تتجه تدريجياً نحو تكوين الاستجابة المطلوبة . وهذا الأسلوب في العلاج يماثل الأسلوب الذي اتبعه القرآن من قبل في علاج تعاطي الخمر والربا .

واتبع جوزيف وولبى Joseph Wolpe أيضاً « طريقة التدريج » في علاج الخوف المرتبط بأشياء معينة ، وذلك عن طريق تكوين استجابة معارضة للخوف كالاسترخاء لسلسلة متدرجة من الأشياء المشابهة للشيء الأصلي المثير

---

(١) سارنوف أ . مدنيك ، هوارد ر . بوليو ، واليزابث ف . لوفتس : التعلم ، ترجمة محمد عماد الدين اسماعيل ، ومراجعة محمد عثمان نجاتي . بيروت : دار الشروق ، ١٩٨١ ، ص ٢١ ، ٢٢ .

(٢) جوليان روتر : علم النفس الإكلينيكي ، ترجمة عطية محمود هنا ، ومراجعة محمد عثمان نجاتي . ط ٢ ، بيروت : دار الشروق ، ١٩٨٤ ص ١٥٩ ، ١٦٠ .

للخوف ، ولكنها ترتب في نظام متدرج من أقلها إثارة للخوف إلى أكثرها إثارة له ، وبحيث يكون الشيء الأصلي المثير للخوف والمطلوب علاج الفرد من الخوف منه في أعلى هذه السلسلة . ثم يبدأ العلاج بتعليم المريض الاسترخاء أثناء تخيّل الشيء الأدنى في هذه السلسلة حتى يزول الخوف المرتبط به . ثم ينتقل العلاج إلى تعليم المريض الاسترخاء أثناء تخيل الشيء الثاني في السلسلة والذي يثير قدراً أكبر من الخوف ، ويستمر العلاج حتى يزول الخوف المرتبط به . وهكذا يستمر العلاج بالتخلص التدريجي من الخوف المرتبط بهذه السلسلة المتدرجة من الأشياء المثيرة للخوف حتى ينتهي العلاج إلى التخلص من الخوف المرتبط بالشيء الذي يوجد في قمة هذه السلسلة ، وهو الذي بدأ العلاج أساساً للتخلص منه [1] .

إن أسلوب التدريج في تعلم الاستجابات الصعبة ، أو في العلاج النفسي الذي يرمي إلى التخلص من بعض العادات أو الانفعالات غير المرغوب فيها ، والذي توصل إليه علماء النفس المحدثون أخيراً قد سبق أن استخدمه القرآن منذ أربعة عشر قرناً من الزمان في علاج تعاطي الخمر والربا .

(١) ريتشارد م . شوين : علم الأمراض النفسية والعقلية ، ترجمة أحمد عبد العزيز سلامة . القاهرة : دار النهضة العربية ، ١٩٧٩ ، ص ٨٤٦ - ٨٥٤ .

العلم اللدني في القرآن

الإلهام والرؤيا

إن قدرة العقل الإنساني على معرفة الحقائق وتحصيل العلوم محدودة ، فهو لا يستطيع أن يحيط بجميع الحقائق الكونية ، كما أنه عاجز عن أن يصل بجهوده الذاتية إلى معرفة الحقائق الغيبية .

«.. وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا »(١)

وفضلاً عن ذلك ، فإن العقل الإنساني معرض لأخطاء التفكير التي أشرنا إليها في الفصل الرابع الخاص بالتفكير في القرآن ، كما أنه معرض للغفلة والنسيان ، ولذلك كان الإنسان في حاجة من وقت إلى آخر إلى هداية الله تعالى له وتوجيهه إلى ما فيه خيره وصلاحه ، سواء عن طريق الأنبياء والرسل ، أو عن طريق الإلهام والرؤيا . وقد كانت مهمة الأنبياء والرسل الذين بعثهم الله تعالى في عصور التاريخ المختلفة هي هداية الناس وتعليمهم شعائر الدين ، وما فيه خير البشرية .

« كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ..»(٢)

« وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ ..»(٣)

(١) الإسراء : ٨٥ .
(٢) البقرة : ٢١٣ .
(٣) النحل : ٣٦ .

« لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ .. »[1]

وليس العلم اللدني[2] الذي يحصل عن طريق الإلهام والرؤيا خاصاً بالأنبياء والرسل وحدهم ، بل إنه يمكن أن يحصل أيضاً للناس الآخرين من غير الأنبياء والرسل إذا ما توافرت فيهم شروط معينة من الصلاح والتقوى والصفاء القلبي والشفافية الروحية .

والإلهام هو نوع من العلم الذي يفيض الله سبحانه وتعالى به على الإنسان ، ويلقيه في قلبه ، فتنكشف له بعض الأسرار ، وتتضح له بعض الحقائق . وقد وردت في القرآن الكريم آيات كثيرة تشير إلى العلم اللدني الذي أفاض الله تعالى به على أنبيائه ورسله . ومن أمثلة ذلك ما ذكره القرآن في سورة الأنبياء عن داوود وسليمان عليهما السلام حينما قاما بالتحكيم بين رجلين أحدهما صاحب حرث اشتكى بأن غنم الرجل الثاني قد رعت فيه وأفسدته . فحكم داوود عليه السلام لصاحب الحرث برقاب الغنم . وألهم الله تعالى سليمان عليه السلام بالحكم لصاحب الحرث بالانتفاع بدرّ الغنم ونسلها وصوفها إلى أن يعود الحرث كما كان بإصلاح صاحب الغنم لها فيردها إليه . وقد رأى داوود رجاحة رأي سليمان فرجع إليه . قال تعالى :

« وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ۝ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا .. »[3]

ومن أمثلة ذلك أيضاً ما ذكره الله تعالى عن تعليمه لداوود عليه السلام صناعة الدروع ، وكان داوود أول من صنعها .

« وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ »[4]

---

(١) الحديد : ٢٥ .

(٢) العلم اللدني هو العلم الرباني الذي يصل لصاحبه عن طريق الإلهام (انظر المعجم الوسيط) .

(٣) الأنبياء : ٧٨ ، ٧٩ .

(٤) الأنبياء : ٨٠ .

وقال الله تعالى أيضاً عن داوود عليه السلام :

« .. وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ .. »[1]

وعلم الله تعالى يوسف عليه السلام عن طريق الإلهام تأويل الأحلام والرؤى .

« وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ .. »[2]

« .. وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ »[3]

وذكر القرآن ما قاله يوسف عليه السلام لصاحبيه في السجن مؤكداً لهما معرفته بتأويل الأحاديث ، وعلمه بالمغيبات ، وقدرته على الإخبار بها قبل أن تحدث ، وذلك مما علمه الله سبحانه وتعالى وأوحى به إليه .

« قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ .. »[4]

وحينما طلب يوسف عليه السلام من إخوته أن يذهبوا بقميصه ويلقوه على وجه أبيه فيصبح بصيراً ، إنما كان يعلم مقدماً عن طريق الإلهام الإلهي أن أباه سيصبح بصيراً حينما يلقى القميص على وجهه .

« ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا .. »[5]

---

(١) البقرة : ٢٥١ .

(٢) يوسف : ٦ .

(٣) يوسف : ٢١ ، ٢٢ .

(٤) يوسف : ٣٧ .

(٥) يوسف : ٩٣ .

وكان يعقوب عليه السلام يعلم عن ابنه يوسف عليه السلام بإلهام من الله ما لا يعلم أبناؤه .

« قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ »(1)

« فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ »(2)

وقال الله تعالى أيضاً عن يعقوب عليه السلام :

« .. وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ .. »(3)

وقال الله تعالى مخاطباً محمداً صلى الله عليه وسلم ؛

« ..وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا »(4)

وفي القرآن كثير من الآيات التي تشير إلى إلهام الله تعالى أنبياءه ورسلَه العلم والحكمة .

ومن الأمثلة البارزة في القرآن عن العلم اللدني ما جاء في سورة الكهف عن العبد الصالح الذي طلب منه موسى عليه السلام أن يرافقه ليتعلم منه .

« فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا »(5)

---

(1) يوسف : ٨٦ .
(2) يوسف : ٩٦ .
(3) يوسف : ٦٨ .
(4) النساء : ١١٣ .
(5) الكهف : ٦٥ ، ٦٦ .

ومع أن موسى كان نبياً ورسولاً إلا أنه مع ذلك لم يكن يعلم ما خصَّ الله تعالى به العبد الصالح من علم لدنيّ كشف له به من أسرار الغيب ما لم يكن يعلم نبي الله موسى عليه السلام . فقد علم العبد الصالح من الله تعالى أن هناك ملكاً يتعقب السفن ويغتصبها ، ولذلك خرق سفينة يملكها بعض الفقراء والمساكين ليعيبها وينجيها من الملك الظالم . وعلم أيضاً أن الغلام الذي قتله سيرهق والديه الصالحين فأراد الله تعالى أن يبدلهما عنه غلاماً خيراً منه . وعلم أيضاً أنه يوجد تحت الجدار الذي سينقضّ كنز لغلامين فقيرين في المدينة كان والدهما صالحاً ، فأقامه ليحفظه لهما حتى يكبرا ويستخرجا كنزهما . وقال العبد الصالح أن ما فعله لم يكن عن أمره ، وإنما كان عن أمر الله تعالى .

« .. وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ..» (١)

وقد وردت في القرآن آيات كثيرة تدل على أن الإيحاء أو الإلهام الإلهي يمكن أن يحدث لغير الأنبياء والرسل . فقد حدث ذلك لأم موسى .

« إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ۝ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ ..» (٢)

« وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ » (٣)

وألهم الله تعالى أيضاً الحواريين أن يؤمنوا بعيسى عليه السلام .

« وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ » (٤)

---

(١) الكهف : ٨٢ .

(٢) طه : ٣٨ ، ٣٩ .

(٣) القصص : ٧ .

(٤) المائدة : ١١١

ويشير القرآن أيضاً إلى أن الإيمان والتقوى والإخلاص في عبادة الله وما يؤدي إليه ذلك من صفاء القلب وشفافية الروح يجعل الإنسان مهيأً لتلقي الإيحاءات والإلهامات من الله تعالى ليهديه إلى سبل الحق والخير ، وليرشده إلى طرق الفضيلة والهداية .

« وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ »(١)

« وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ »(٢)

«.. وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ..»(٣)

ويوجد في الحديث النبوي الشريف ما يدل على حدوث الإلهام الإلهي لعمر بن الخطاب رضي الله عنه . فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلوات الله عليه وسلامه قال : « لقد كان فيما قبلكم من الأمم ناس محدّثون ، فإن يك في أمتي أحد فإنه عمر » . وقيل في تفسير « محدثون » أي ملهمون(٤) . وفي حديث آخر أخرجه أحمد والبزار عن أبي هريرة أن النبي صلوات الله عليه وسلامه قال : « إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه » . وأخرج ابن عساكر عن طارق بن شهاب قال : « إن كان الرجل ليحدث عمر بالحديث فيكذبه الكذبة فيقول : إحبس هذه ، ثم يحدثه بالحديث فيقول : إحبس هذه ، فيقول له : كل حديثي حق إلا ما أمرتني أن أحبسه(٥) » . ويتضح من الحديثين السابقين ومن رواية ابن عساكر أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يتمتع بقدر كبير من الصفاء القلبي الذي يجعله شديد القابلية لتلقي الإلهامات من الله سبحانه وتعالى .

وقد يحدث الإلهام للناس عن طريق الملائكة وهو ما يسميه الصوفيون بالخاطر

---

(١) محمد : ١٧ .

(٢) العنكبوت : ٦٩ .

(٣) البقرة : ٢٨٢ .

(٤) الحديث رقم ٣٦٨٩ ، كتاب فضائل أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام ، فتح الباري بشرح البخاري ، جـ ١٤ ، ص ١٨٩ .

(٥) سعيد حوي : مرجع سابق ، ص ١٥٤ .

الملكي . وفي الحديث : « في القلب لمتان لمة من الملك إيعاذ بالخير وتصديق للحق ، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله سبحانه وليحمد الله ؛ ولمة من العدو إيعاذ بالشر وتكذيب بالحق ونهي عن الخير ، فمن وجد ذلك فليستعذ من الشيطان الرجيم[(١)] » .

ولا يتعرض علماء النفس المحدثون لدراسة الإلهام الإلهي ، ولكنهم حينما يدرسون التفكير المبدع فإنهم يطلقون مصطلح «الإلهام» أو «الإشراق» على ظهور الأفكار المبدعة التي يبدو أنها تظهر فجأة لبعض المفكرين أثناء تفكيرهم في بعض المشكلات. وهم يفسرون هذا النوع من الإلهام بأنه ينبثق من عقل المفكر نفسه ، وهو ليس شيئاً يفيض عليه من مصدر خارجي . فحينما يفكر الإنسان في مشكلة ما مدة طويلة دون أن يهتدي إلى حلها ، فإنه عادة ما يتركها فترة من الزمن يرتاح فيها ذهنه ، ثم يعود إلى التفكير فيها فيما بعد . وتحدث في هذه الفترة من الراحة ، والتي يسميها علماء النفس بفترة الحضانة ، تغيرات هامة في عملية التفكير . فأولاً ، يتخلص التفكير من بعض الشوائب التي كانت تعوقه عن الوصول إلى الحل . وثانياً ، يرتاح الذهن من الإجهاد الذي يصيبه من مواصلة التفكير في المشكلة ، فإذا عاد إلى التفكير فيها فيما بعد يكون أكثر صفاء ونضارة . وثالثاً ، يحدث نوع من التنظيم في معلومات الإنسان مما يؤدي إلى اتضاح بعض العلاقات التي لم تكن واضحة من قبل ، وظهور بعض الأفكار الجديدة ، والاهتداء إلى حل للمشكلة . ويرى بعض علماء النفس أنه يحدث نوع من التفكير اللاشعوري في المشكلة ، ويبدو أن بعض النشاط العقلي يستمر على نحوٍ ما[(٢)] .

وليس هناك في الواقع تعارض بين التفسير العلمي للإلهام الذي يذهب إليه علماء النفس المحدثون في تفسيرهم للتفكير المبدع ، وبين التفسير الديني له . إن علماء النفس المحدثين يتوقفون فقط في تفسيرهم عند العمليات الفسيولوجية التي تتم في المخ ، والعمليات السيكولوجية المصاحبة لها . غير أن رجل الدين ، مع تسليمه بما يقوله علماء النفس المحدثون عن العمليات الفسيولوجية التي تتم في المخ وما يصاحبها من عمليات سيكولوجية ، إلا أنه يتجاوز هذا المستوى من التفسير ،

(١) المرجع السابق ، ص ١٥٥ .

(٢) محمد عثمان نجاتي : مرجع سابق ، ص ٣٢٨ - ٣٣٠ .

ويذهب إلى أن الله سبحانه وتعالى المتصرّف في كل شيء في الكون ، والمدّبر لأموره ، قد تقتضي مشيئته أن يوجه عملية التفكير لدى بعض الناس على نحوٍ ما بحيث يهديهم إلى اكتشاف بعض الحقائق التي يريد سبحانه أن يلهمهم بها ، فتتضح لهم هذه الحقائق كأنما أشرقت في عقولهم فجأة . وقد تقتضي مشيئة الله تعالى أن يحدث الإلهام أيضاً في غير أوقات التفكير المبدع ، بأن يفيض الله تعالى في أي وقت يشاء على أنبيائه ورسله وغيرهم من عباد الله بما يشاء من إيحاءات وإلهامات .

وقد قام علماء النفس المسلمون الأقدمون بتفسير «الإلهام» تفسيراً يتفق مع مفهوم الدين له ، ومع ما جاء في القرآن عنه . فابن سينا ، مثلاً ، يفسر الوحي أو الإلهام الذي يحدث لبعض الناس سواء في حال اليقظة أو في المنام في صورة رؤيا ، على أنه ناشئ عن اتصال النفس بالملكوت أو الملأ الأعلى ، وتلقي الوحي أو الإلهام عنه [1] .

وكما أن مشيئة الله سبحانه وتعالى قد تقتضي توجيه التفكير لدى بعض الناس إلى الاهتداء إلى الحق بما يفيض سبحانه وتعالى عليهم من إلهامات وإيحاءات ، فكذلك قد تقتضي مشيئته جل شأنه توجيه تفكير بعض الناس الآخرين بعيداً عن الحق بسبب استكبارهم وعنادهم وغفلتهم .

« سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ » [2]

الأحلام والرؤى

الأحلام من الظواهر النفسية المألوفة والشائعة بين الناس . وقد حاول المفكرون

(١) محمد عثمان نجاتي : الإدراك الحسي عند ابن سينا ، بحث في علم النفس عند العرب ، ط ٣ ، بيروت : دار الشروق ، ١٩٨٠ ، ص ٢١٦ .

(٢) الأعراف : ١٤٦ .

والعلماء في جميع عصور التاريخ تفسيرها ومعرفة أسبابها ، ووضعوا لذلك عدة تفسيرات مختلفة . فبعض الأحلام ينشأ نتيجة إحساسات يحس بها الإنسان وهو نائم سواء كانت هذه الإحساسات تحدث نتيجة مؤثرات خارجية تؤثر في حواسه ، أو كانت إحساسات ناشئة عن مؤثرات داخلية تحدث من البدن نفسه . وبعض الأحلام الأخرى يحدث نتيجة استمرار انشغال الفكر بأمور كانت تشغله أثناء اليقظة ، وبعضها الآخر عبارة عن تذكر بعض الأحداث السابقة . وتعتبر نظرية فرويد في تفسير الأحلام أكثر التفسيرات شيوعاً الآن بين علماء النفس ، وهي تذهب إلى أن الأحلام طريقة رمزية للتعبير عن دوافع الإنسان اللاشعورية .

وتنحصر بحوث علماء النفس المحدثين في الأحلام على هذه الأنواع من الأحلام التي أشرنا إليها سابقاً ، وعلى الأخص الأحلام التي تعبر عن دوافعنا اللاشعورية تبعاً لنظرية فرويد في الأحلام . ولا يتعرض علماء النفس المحدثون للأحلام التنبئية ، أو الرؤى الصادقة التي تكشف عن أمور ستحدث في المستقبل ، بالرغم من أن هذا النوع من الرؤى يقع أحياناً لبعض الناس ، كما ورد ذكره في الديانات .

ويذكر القرآن «أضغاث الأحلام» و«الرؤيا» . وأضغاث الأحلام هي الأحلام المختلطة المضطربة الغامضة [١] . ولعل القرآن حينما ذكر أضغاث الأحلام كان يشير إلى جميع أنواع الأحلام التي تناولها علماء النفس بالبحث والتفسير ، والتي أشرنا إليها سابقاً . أما الرؤيا فهي ترد في القرآن فقط بمعنى الرؤيا الصادقة التي يلقي فيها الله سبحانه وتعالى إلى أنبيائه ورسله وغيرهم من الناس بوحي أو إلهام معين ، أو يخبرهم بأمر سيحدث في المستقبل . ومن أمثلة ذلك ما ورد في القرآن عن رؤيا إبراهيم أنه يذبح ابنه اسماعيل عليهما السلام .

«فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ قَالَ يَـٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَـٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾

(١) في المعجم الوسيط : « أضغاث الأحلام : ما كان منها ملتبساً مضطرباً يصعب تأويله » .

« فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ »[1]

ومن أمثلة الرؤى التي وردت في القرآن أيضاً رؤيا يوسف عليه السلام :

« إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ »[2]

وقد تحققت هذه الرؤيا فيما بعد حينما استدعى يوسف عليه السلام أبويه وإخوته ، فلما دخلوا إليه سجدوا له سجود تحية وإكبار .

« وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا .. »[3]

وذكر القرآن أيضاً الرؤيا التي رأى فيها الرسول صلوات الله وسلامه عليه في العام الذي سار فيه إلى الحديبية أنه دخل مكة وطاف بالبيت العتيق :

« لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ .. »[4]

وذكر القرآن أيضاً الرؤيا التي رآها كل من الفتيين اللذين دخلا السجن مع يوسف عليه السلام ، وقيامه بتفسيرهما[5] . كما ذكر الرؤيا التي رأى فيها ملك مصر :

(١) الصافات : ١٠٢ – ١٠٥ .
(٢) يوسف : ٤ ، ٥ .
(٣) يوسف : ١٠٠ .
(٤) الفتح : ٢٧ .
(٥) يوسف : ٣٦ ، ٤١ .

«.. سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ..» (١).

وتفسير يوسف عليه السلام لها (٢).

وفي الخبر أن النبي صلوات الله عليه وسلامه قال : «إن الر ؤيا من الله والحلم من الشيطان» ، وأنه قال أيضاً : «إن الرؤيا الصادقة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة (٣)» .

وكان لما ذكره القرآن عن الرؤيا تأثير كبير في آراء المفكرين المسلمين ففسروها بما جاء في القرآن عنها . ذكر الألوسي في تفسيره : «أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن سليم بن عامر أن عمر بن الخطاب قال : العجب من رؤيا الرجل أنه يبيت فيرى الشيء لم يخطر له على بال فتكون رؤياه كأخذ باليد . ويرى الرجل الرؤيا فلا تكون رؤياه شيئاً . فقال عليّ كرّم الله تعالى وجهه : أفلا أخبرك بذلك يا أمير المؤمنين ؟ يقول الله تعالى : (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى) . فالله تعالى يتوفى الأنفس كلها ، فما رأت وهي عنده سبحانه في السماء فهو الرؤيا الصادقة ، وما رأت إذا أرسلت إلى أجسادها فهي الكاذبة» (٤) .

ونجد تأثير القرآن واضحاً في تفسير الفلاسفة المسلمين للرؤيا . فابن سينا ، مثلاً ، يفسر الرؤيا الصادقة بأنها تحدث نتيجة اتصال النفس بالملكوت أو بالملأ الأعلى أثناء النوم ، وتلقي الوحي أو الإلهام عنه . أما أضغاث الأحلام فهي ، في رأيه ، ناشئة عن تأثير الإحساسات البدنية (٥) .

وذهب حديثاً بعض الباحثين في أسرار القوة الروحية للإنسان إلى أن روح الإنسان تنسحب أثناء النوم وتقوم بسياحات إلى أماكن شتى . وهم يفسرون الأحلام

---

(١) يوسف : ٤٣ .

(٢) يوسف : ٤٧ – ٤٩ .

(٣) محمد بن سيرين : منتخب الكلام في تفسير الأحلام ، بهامش كتاب تعطير الأنام في تعبير المنام لعبد الغني النابلسي . مصر : ١٣٤٧ هـ ، ص ٢ .

(٤) أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوس البغدادي : روح المعاني في تفسير القرآن . القاهرة : المطبعة الأميرية ببولاق ، ١٣٠١ هـ ، جـ ٢ ، ص ٤٠٩ .

(٥) محمد عثمان نجاتي : الإدراك الحسي عند ابن سينا ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢١٧ .

بما تراه الروح أثناء سياحتها والإنسان نائم [1] . ويتفق هذا الرأي مع الرأي الذي قال به المفكرون المسلمون من قبل من حيث انطلاق الروح من الجسم أثناء النوم ، ولكنه يختلف عنه من حيث أن المفكرين المسلمين يرون أن الروح قد تصل أثناء انطلاقها إلى الملأ الأعلى فتتلقى من هناك الوحي والإلهام في صورة رؤيا صادقة ؛ وقد لا تصل إلى الملأ الأعلى ، فيكون ما تراه ، وخاصة وهي متأثرة بالإحساسات البدنية أضغاث أحلام . أما الباحثون الروحيون المحدثون فلا يتعرضون للتفرقة بين أضغاث الأحلام والرؤيا الصادقة كما فعل المفكرون المسلمون .

(١) عبد الرازق نوفل : القرآن والعلم الحديث . بيروت : دار الكتاب العربي ، ١٩٧٣ ، ص ٩٦ - ٩٩ .

الفصل السابع

التّذكّر والنسْيَان في القرآن

للتذكر أهمية عظيمة الشأن في حياة الإنسان ، إذ أن تذكرنا لتعلمنا السابق ، ولمعلوماتنا وخبراتنا السابقة يمكننا من حل ما يواجهنا من مشكلات جديدة في المستقبل ، كما أنه يساعدنا على مواصلة التقدم في اكتساب معلومات جديدة ، وفي اكتشاف حقائق جديدة ، وهو أمر هام في تطور التقدم العلمي والحضاري للإنسان .

وفضلاً عما للتذكر من أهمية في حياة الإنسان العلمية والعملية ، فإن له أيضاً أهمية عظيمة الشأن من الناحية الدينية . فتذكر الإنسان الدائم لله سبحانه وتعالى ، ولفضله ونعمه الكثيرة عليه في الحياة ، وللآخرة ويوم الحساب وما ينتظره من ثواب أو عقاب ، إن تذكر ذلك كله مهم جداً للإنسان لأنه يدفعه إلى التقوى والعمل الصالح والتحلي بفضائل الأخلاق . فالتذكر ، إذن ، مفيد لتحقيق الخير للإنسان سواء في الدنيا أو في الآخرة . وقد حث القرآن الكريم في كثير من آياته على تذكر الله تعالى وآياته في خلقه ، وتذكر ما جاء به المرسلون من بينات وهدى ، وما بشروهم به ، وما أنذروهم منه . وقد ترددت كثيراً في القرآن عبارات مثل : «أفلا تتذكرون» «لعلهم يتذكرون» ، «قليلاً ما تتذكرون» ، «أفلا يذَّكَّرون» ، «لعلهم يذَّكَّرون» ، «قليلاً ما تَذكَّرون» ، «ولِيتذكَّر أولو الألباب» ، «إنما يتذكَّر أولو الألباب» ، «وما يذكَّر إلاّ أولو الألباب» .

ووردت آيات كثيرة في القرآن تشير إلى أن الله سبحانه وتعالى قد بعث النبي صلى الله عليه وسلم ، وأنزل عليه القرآن ليذكِّر الناس بعقيدة التوحيد ، والبعث والحساب في الآخرة ، وبما غفلوا عنه ونسوه من تعاليم الأنبياء والرسل السابقين . ومن أمثلة هذه الآيات :

« كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ »[1]

« هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ »[2]

« وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ »[3]

« كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ »[4]

« فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ »[5]

«.. فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ »[6]

« وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ »[7]

« فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ »[8]

النسيان :

ومن مشكلات الإنسان أنه معرض للنسيان ، وهو أمر مضر به ، وهو يعوقه في

---

(١) الأعراف : ٢ ، ٣ .
(٢) ابراهيم : ٥٢ .
(٣) القصص : ٤٦ .
(٤) ص : ٢٩ .
(٥) الدخان : ٥٨ .
(٦) ق : ٤٥ .
(٧) الذاريات : ٥٥ .
(٨) الغاشية : ٢١ .

كثير من المواقف عن التوافق السليم لما يجابهه من مشكلات الحياة . وقد ذكر القرآن النسيان في كثير من الآيات . ونحن إذا رجعنا إلى هذه الآيات ودرسنا معانيها لوجدنا أن النسيان ورد فيها بعدة معانٍ يمكن تلخيصها فيما يلي [1] .

١ – النسيان الذي يطرأ في الذهن على الأحداث وأسماء الأشخاص والمعلومات المختلفة التي اكتسبها الإنسان من قبل . وهو النسيان العادي الذي يتعرض له الناس نتيجة تزاحم المعلومات وتداخلها . وقد درس علماء النفس هذا النوع من النسيان دراسة مستفيضة وأرجعوه إلى تداخل المعلومات . وميزوا بين نوعين من التداخل : «التداخل الرجعي» و«التداخل اللاحق» . يحدث التداخل الرجعي حينما يؤدي تعلمنا لمواد جديدة إلى إضعاف تذكرنا لمواد سبق أن تعلمناها من قبل . ويحدث التداخل اللاحق في تأثير عاداتنا وأنشطتنا ومعلوماتنا السابقة في تذكرنا لمادة تعلمناها حديثاً . فكثرة المعلومات والأنشطة السابقة تؤدي إلى صعوبة تذكر المادة التي تعلمناها حديثاً ، بينما يكون تذكرنا لهذه المادة أحسن إذا كانت معلوماتنا وأنشطتنا السابقة أقل . ولهذا كان الأطفال أكثر قدرة على تذكر تفاصيل الأحداث الماضية من من الكبار [2] . وقد أشار القرآن إلى هذا النوع من النسيان في قوله تعالى :

«سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ» [3]

٢ – النسيان الذي ينطوي على معنى السهو ، كما ينسى الإنسان شيئاً ما في مكان ما ، أو كما يريد أن يتكلم مع شخص ما في عدة أمور فيتكلم عن بعضها وينسى البعض الآخر ، فلا يذكره إلا فيما بعد . ومثال ذلك ما حكاه القرآن عن فتى موسى في قوله تعالى :

«قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا

---

(١) البهي الخولي : مرجع سابق ، ص ١٨٢ – ١٨٤ .
(٢) سارنوف أ . مدنيك ، هوارد ر . يوليو ، أليزابث ف . لوفاتس : مرجع سابق ، ص ١٥٢ – ١٥٧ .
(٣) الأعلى : ٦ .

﴿ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴾[1]

ومثاله أيضاً ما قاله موسى للعبد الصالح عليهما السلام :

« .. لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ .. »[2]

ويمكن تفسير هذا النوع من النسيان أيضاً بالتداخل اللاحق الذي أشرنا إليه سابقاً .

٣ – النسيان بمعنى ذهاب الاهتمام بأمر ما . ومن أمثلة هذا النوع من النسيان ما جاء في قوله تعالى :

« .. نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ .. »[3]

ومعنى « نسوا الله » أنهم تركوا طاعته لذهاب اهتمامهم بإطاعة أوامره . ومعنى « فنسيهم » أن الله تعالى صرف عنهم فضله وتركهم إلى نفوسهم .

ومن أمثلة هذا النوع من النسيان أيضاً ما جاء في قوله تعالى :

« وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ .. »[4]

ويدخل في هذا المعنى النسيان الذي نسب إلى آدم عليه السلام في قوله تعالى :

« وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا »[5]

ومعنى ذلك أن قلب آدم قد « صار إلى لحظة من الفتور عن عهد الله جل شأنه »[6] ، فنسي ما نهاه الله عنه ، فوسوس له الشيطان وأغواه وأوقعه في الخطيئة .

---

(١) الكهف : ٦٣ .

(٢) الكهف : ٧٣ .

(٣) التوبة : ٦٧ .

(٤) الحشر : ١٩ . ومعنى « أنساهم أنفسهم » : أنساهم ان يقدموا لها خيراً بالعمل الصالح في الدنيا .

(٥) طه : ١١٥ .

(٦) البهي الخولي : مرجع سابق ، ص ١٨٣ .

النسيان والشيطان :

بينت بعض آيات القرآن أن الشيطان يجد في استعداد الإنسان للنسيان مدخلاً للتأثير عليه ، فيجعله يسهو أحياناً عن بعض الأمور الهامة التي فيها مصلحته ، كما يجعله أحياناً أخرى يغفل عن ذكر الله سبحانه وتعالى ، ويهمل في إطاعة أوامره . وقد ذكرنا سابقاً أثناء كلامنا عن النسيان الناشئ عن السهو الآية التي تذكر ما قاله فتى موسى عن نسيانه الحوت ، فقد قال : «وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره» . ومن أمثلة ذلك أيضاً ما جاء في قوله تعالى :

« وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ »(١)

« ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ »(٢)

« وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ »(٣)

ووسيلة الشيطان في إغواء الناس ودفعهم إلى نسيان ذكر الله ، ونسيان ما فيه خيرهم وصلاحهم على وجه عام ، هو التأثير عليهم من ناحية دوافعهم وشهواتهم ، وهي نقطة الضعف في الطبيعة الإنسانية . إذ أن الإنسان يميل بطبيعته إلى إشباع دوافعه ، وإلى الحصول على اللذة والمتعة . ومن تلك الناحية كان مدخل الشيطان إلى نفس آدم عليه السلام(٤) إذ مناه بالخلد ، والملك الذي لا يبلى إذا ما أكل من

---

(١) الأنعام : ٦٨ .
(٢) المجادلة : ١٩ .
(٣) يوسف : ٤٢ .
(٤) البهي الخولي : مرجع سابق ، ص ١٨٤ .

الشجرة ، فنسي آدم عليه السلام ما نهاه الله تعالى عنه فوقع في الخطيئة . ويؤثر الشيطان على البشر جميعاً بنفس هذه الطريقة ، إذ يثير فيهم الشهوات المختلفة ، فيشغلون بالجري وراءها ، ويلهيهم ذلك عن ذكر الله .

« وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ۝ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث..»(١)

علاج النسيان في القرآن :

إن علاج النسيان الناشئ عن غفلة القلب عن الله سبحانه وتعالى إنما يكون بالذكر المستمر لله تعالى ، وذكر نعمه وفضله ، وذكر آياته في خلقه ، وذكر الآخرة ويوم الحساب . وقد ذكر القرآن أهمية ذكر الله تعالى كعلاج لهذا النوع من النسيان . يتضح ذلك من قوله تعالى :

«.. وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ..»(٢)

وامتدح القرآن المؤمنين الذين يذكرون الله فوصفهم بأنهم أولو الألباب

« إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُولِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۝ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ »(٣)

ولما كان ذكر الله تعالى علاجاً للنسيان وغفلة القلب ، فقد أمرنا سبحانه أن

---

(١) الأعراف : ١٧٥ ، ١٧٦ .
(٢) الكهف : ٢٤ .
(٣) آل عمران : ١٩٠ ، ١٩١ .

نذكره كثيراً في النهار والليل ، وفي الصباح والمساء .

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا »[1]

« فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ .. »[2]

« فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ »[3]

إن علاج نسيان الإنسان لله سبحانه وتعالى وغفلته عن الآخرة إنما يكون بالإكثار من ذكره تعالى بصفة مستمرة حتى يكون الله حاضراً في القلب على الدوام ، لا يغفل الإنسان عن ذكره لحظة . وهذا يذكرنا بأحد مبادئ التعلم التي تكلمنا عنها من قبل وهو التكرار . فإن تكرار ذكر الله تعالى ، يكوّن عند الإنسان عادة ذكر الله وتسبيحه ، بحيث تصبح هذه العادة ثابتة ومستقرة في سلوكه ، تصدر عنه في كل لحظة من لحظات حياته دون جهد أو عناء ، فيكون الله سبحانه وتعالى حاضراً دائماً في القلب ، وهي حالة يهدف إلى تحقيقها كثير من الصوفيين من تكرار قيامهم بالتدريبات والرياضات الروحية .

ولما كان القرآن كتاب عقيدة ، وليس كتاب علم ، فإنه من الطبيعي أن يعنى القرآن بمشكلة نسيان الإنسان لله تعالى وغفلته عن الآخرة ، كما يعنى بعلاج هذا النوع من النسيان لما في ذلك من أهمية عظمى بالنسبة لسعادة الإنسان سواء في الدنيا أو في الآخرة . وإذا كان المبدأ الذي يقوم عليه علاج هذا النوع من النسيان هو تكرار ذكر الله ، حتى تثبت هذه العادة وتستقر في سلوك الإنسان ، فإننا

---

(١) الأحزاب : ٤١ ، ٤٢ .
(٢) النساء : ١٠٣ .
(٣) الجمعة : ١٠ .

نستطيع أن نستنتج من ذلك أيضاً أن علاج النسيان العادي للمعلومات ، وهو النسيان من النوعين الأول والثاني اللذين تكلمنا عنهما سابقاً ، إنما يكون أيضاً بتكرار ذكر هذه المعلومات ، أي ، بمراجعتها واستذكارها مرات كثيرة . وهذا هو ما وصلت إليه بحوث علماء النفس المحدثين الذين قصروا معظم اهتمامهم في دراسة النسيان على النوعين الأول والثاني فقط ، ولم يتعرضوا في دراساتهم للنوع الثالث من النسيان الذي ورد في القرآن والذي تكلمنا عنه سابقاً .

الجهاز العصبي والمخ في القرآن

استطاعت الدراسات التشريحية والفسيولوجية الحديثة أن تحدد في لحاء المخ مناطق معينة تقوم بوظائف سيكولوجية معينة . ومن أهم هذه المناطق المنطقة الحركية التي تسيطر على حركة جميع أجزاء الجسم ؛ والمنطقة الحسية التي تنتهي إليها إحساسات اللمس وبعض عناصر الإحساس بالألم ، والإحساس بالتغيرات في درجة الحرارة ، والذوق (وكل جزء من أجزاء الجسم ممثل في كل من المنطقة الحركية والمنطقة الحسية[1]) ؛ والمنطقة البصرية وهي مركز الإبصار حيث تنتهي إليها النبضات العصبية الواردة من العين ؛ والمنطقة السمعية وهي مركز السمع حيث تنتهي إليها النبضات العصبية الواردة من الأذنين ؛ ومنطقة الترابط الجبهية التي توجد في معظم الجزء الأمامي من الفصين الجبهيين ، حيث تتجمع الرسائل الواردة من أجزاء الجسم المختلفة في إحساسات ذات معنى ، كما تتنسق فيها رسالات الحركة الصادرة إلى أجزاء الجسم المختلفة ، كما تتدخل في جميع الأنشطة التي يتحكم فيها المخ ، كما أنها تعتبر مركز العمليات العقلية العليا كالتعلم ، والتفكير ، والكلام ، والكتابة والقراءة[2] .

إن مخ الإنسان يهيمن ويسيطر على كل الأنشطة التي يقوم بها الإنسان . وكل ما يقوم به الإنسان من نشاط يترك أثراً في خلايا المخ . ويبقى هذا الأثر مسجلاً في خلايا المخ على نحو ما لم يعرف العلم كنهه بعد . وهذه الآثار الباقية في خلايا لحاء المخ هي الأساس الذي تقوم عليه العمليات العقلية العليا للإنسان كالتعلم والتذكر

---

(١) تمثل أجزاء الجسم في كل من المنطقة الحركية والمنطقة الحسية من لحاء المخ بطريقة عكسية . فنجد القدمين والساق أعلى ، واليدين والفم والرأس أسفل .

(٢) محمد عثمان نجاتي : علم النفس في حياتنا اليومية ، مرجع سابق ، ص ٥٣ – ٥٨ .

والتخيل والتفكير . ولعلنا نستطيع على ضوء ذلك أن نفسر ما جاء في بعض آيات القرآن الكريم من أن السمع والأبصار والألسنة والجلود ستشهد على الناس يوم الحساب . والله أعلم كيف ستكون هذه الشهادة . ولكن بما أن جميع أنشطة الإنسان تسجل في خلايا مخه ، فمن المحتمل ، والله أعلم ، أن الله سبحانه وتعالى سينطق هذه الخلايا فتردد ما فيها على نحو ما تردد أشرطة التسجيل ما فيها من تسجيلات . وقد اهتم العلماء المحدثون بدراسة ألغاز الذاكرة ، وتسجيل خبرات الإنسان في خلايا المخ . وفي إحدى هذه التجارب أستثير أحد مراكز المخ عند فرد ما بتيار كهربائي ، فسمع هذا الفرد أحد الألحان الموسيقية التي كان قد سمعها من قبل . وعندما استثير مركز آخر في مخه رأى مشهداً معيناً كان قد رآه من قبل[1] . إن مثل هذه التجارب تشير إلى أن خبرات الإنسان تسجل في خلايا مخه ، وأنه من الممكن جعل الإنسان يتذكر خبراته القديمة إذا ما استثيرت خلايا مخه بطريقة معينة . وبناء على ذلك . فإنه من المحتمل ، والله أعلم ، أن الله سبحانه وتعالى سينطق خلايا مخ الإنسان ، ويجعلها تردد ما سجل فيها من أفعال وأقوال ، فيتذكر الإنسان أفعاله وأقواله كأنما هي مشاهد حية يراها ويسمعها . وقد تكون هناك وسائل أخرى يسجل بها الله سبحانه وتعالى كل ما يصدر عن الناس من أفعال وأقوال ، وقد يكون التسجيل في خلايا المخ هو إحدى هذه الوسائل . ومن المحتمل أيضاً أن يكون هناك أيضاً تسجيل يتم في خلايا أنسجة أعضاء الجسم المختلفة بطريقة ما لا يعرف كنهها .

« وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ »[2]

(١) جريدة السياسة ، الكويت ، العدد الصادر في ٨٢/٣/١٢ ، ص ١٣ .

(٢) فصلت : ١٩ - ٢١ .

« يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ »[1]

« ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ »[2]

ويتكون لحاء المخ من بلايين الخلايا العصبية التي توجد في مكان ضيق نسبياً هو داخل الجمجمة ، ولذلك كوَّن لحاء المخ كثيراً من الانخفاضات والارتفاعات . وسطح لحاء المخ في الحقيقة كبير جداً بحيث أنه لو فرش مسطحاً لبلغت مساحته ١٦ قدماً مربعاً . إن هذه المساحة الكبيرة من لحاء المخ ، والتي تتكون من بلايين الخلايا العصبية يمكنها أن تسجل جميع خبرات الإنسان والأنشطة المختلفة التي يقوم بها . إن لحاء منح الإنسان هو في الواقع سجل كبير ضخم لكل ما يقوم به الإنسان . ولعل تسجيل أعمال الإنسان في خلايا مخه ، كما أشرنا من قبل ، هو إحدى وسائل التسجيل التي اقتضت مشيئة الله سبحانه وتعالى أن تسجل فيها أعمال الإنسان حتى تكون حجة عليه لا يستطيع إنكارها .

« وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ۝ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا »[3]

« يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ »[4]

وتسجيل أعمال الإنسان في خلايا مخه لا يمنع أن يكون هناك تسجيل آخر لأعمال جميع الناس في سجل آخر عام شامل هو الكتاب الذي أشارت إليه بعض آيات القرآن .

---

(١) النور : ٢٤ .
(٢) يس : ٦٥ .
(٣) الإسراء : ١٣ ، ١٤
(٤) القيامة : ١٣ — ١٥ .

« وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ».(١)

« وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا »(٢)

« .. وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ »(٣)

وتتأثر أيضاً أعضاء الحس بالتنبيهات الحسية التي تقع عليها من المحسوسات المختلفة ، فتنطلق منها نبضات عصبية تمر خلال الأعصاب حتى تصل إلى مراكز الإحساس بالمخ حيث يحدث الإدراك الحسي .. وقد أشار القرآن إلى بعض أعضاء الحس الهامة في كثير من الآيات التي سبق أن أشرنا إليها في الفصل الثالث الخاص بالإدراك الحسي . ومن أمثلة هذه الآيات :

« وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ »(٤)

« وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ »(٥)

وقد سبق أن ذكرنا أيضاً في الفصل الثالث أثناء كلامنا عن الإدراك الحسي أن القرآن قد أشار إلى وجود أعضاء الحس الخاصة بالألم في بشرة الإنسان ، كما أشار أيضاً إلى وجود حاسة اللمس في بشرة الإنسان وخاصة في أنامل اليد .

---

(١) الزمر : ٦٩ .
(٢) الكهف : ٤٩ .
(٣) المؤمنون : ٦٢ .
(٤) النحل : ٧٨ .
(٥) المؤمنون : ٧٨ .

«إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا »[1]

« وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَـٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ »[2]

(١) النساء : ٥٦ .

(٢) الأنعام : ٧ .

الفصل التاسع

الشخصيّة في القرآن

عندما يفكر الناس في الشخصية ، فإنهم يرونها عادة باعتبارها التأثير الذي يحدثه الفرد في الآخرين ، أو يرونها باعتبارها أهم الانطباعات التي يتركها الفرد في الآخرين كأن يرونه مثلاً شخصاً عدوانياً أو شخصاً مسالماً . أما علماء النفس فإنهم حينما يدرسون الشخصية فإنهم ينظرون إليها باعتبارها الأبنية والعمليات النفسية الثابتة التي تنظم خبرات الفرد وتشكل أفعاله واستجاباته للبيئة التي يعيش فيها ، والتي تميزه عن غيره من الناس . وبعبارة أخرى ، إن الشخصية هي التنظيم الدينامي في الفرد لتلك الأجهزة الجسمية والنفسية التي تحدد طابعه الفريد في توافقه مع بيئته . فعلماء النفس حينما يدرسون الشخصية ، ينظرون إلى الفرد ككل متكامل ، يعمل ويستجيب كوحدة تنتظم وتتفاعل فيها جميع أجهزته البدنية والنفسية ، وتحدد سلوكه واستجاباته بطريقة يتميز بها عن غيره من الناس[1] .

وقد جاء في القرآن الكريم وصف للشخصية الإنسانية وسماتها العامة التي يتميز بها الإنسان عن غيره من مخلوقات الله ، كما جاء فيه أيضاً وصف لبعض الأنماط أو النماذج العامة للشخصية الإنسانية التي تتميز ببعض السمات الرئيسية ، وهي أنماط عامة وشائعة نكاد نراها حتى اليوم في مجتمعنا ، وفي جميع المجتمعات الإنسانية بعامة .

ونجد في القرآن أيضاً وصفاً للشخصية السوية ، والشخصية غير السوية ، ووصفاً للعوامل المكونة لكل من السواء وعدم السواء في الشخصية .

---

(١) لمعرفة مزيد عن تعريف الشخصية انظر : ريتشارد س . لازاروس : الشخصية ، ترجمة سيد محمد غنيم ، ومراجعة محمد عثمان نجاتي : بيروت : دار الشروق ، ١٩٨١ ، ص ١٩ - ٢٢ ؛ محمد عثمان نجاتي : علم النفس في حياتنا اليومية ، مرجع سابق ، ص ٣٩٢ - ٣٩٦ .

ولكي نستطيع أن نفهم شخصية الإنسان فهماً دقيقاً وصحيحاً يجب أن ندرس بدقة العوامل المختلفة التي تحدد الشخصية . وحينما يدرس علماء النفس المحدثون هذه العوامل المحددة للشخصية ، فإنهم يدرسون عادة العوامل البيولوجية والاجتماعية والثقافية . وهم يهتمون عادة في دراسة العوامل البيولوجية بدراسة أثر الوراثة والتكوين البدني وطبيعة تكوين الجهاز العصبي والجهاز الغدي . وحينما يدرسون تأثير العوامل الاجتماعية على الشخصية فإنهم يهتمون عادة بدراسة خبرات الطفولة وبخاصة في الأسرة ، وطريقة معاملة الوالدين ، كما يهتمون أيضاً بدراسة تأثير الثقافات الفرعية ، والطبقات الاجتماعية ، والمؤسسات الاجتماعية المختلفة ، وجماعات الرفاق والأصدقاء على شخصية الفرد . إن العوامل المحددة للشخصية ، إذن ، يمكن تصنيفها إلى مجموعتين رئيسيتين : عوامل وراثية ، وهي عوامل منبعثة من تكوين الفرد ذاته ؛ وعوامل بيئية ، وهي عوامل منبعثة من البيئة الخارجية الاجتماعية والثقافية . وحينما يدرس علماء النفس المحدثون محددات الشخصية المنبعثة من طبيعة تكوين الفرد ذاته ، فإنهم يقصرون اهتمامهم على دراسة العوامل الجسمية البيولوجية فقط ، متناسين أو مغفلين الجانب الروحي من الإنسان ، وذلك تمشياً مع أسلوبهم في البحث العلمي الذي يقتصر على دراسة ما يمكن ملاحظته وإخضاعه للبحث في المختبرات العلمية . ولذلك يهمل علماء النفس المحدثون دراسة الجانب الروحي من الإنسان ، وأثره على الشخصية .

ولعل لعلماء النفس المحدثين الذين يتبعون في بحوثهم المنهج الموضوعي التجريبي بعض العذر في عدم تعرضهم للجانب الروحي في الإنسان ، وذلك لأنهم لا يعرفون كيف يتناولونه بالبحث العلمي الموضوعي . غير أن عجزهم عن تناول الجانب الروحي في الإنسان بالبحث العلمي الموضوعي لا ينبغي أن يؤدي بهم إلى إغفال ذلك الجانب الروحي من الشخصية إغفالاً تاماً في محاولتهم فهم شخصية الإنسان ، وفهم أسباب سلوكه سواء في سوائه أو انحرافه . إن إغفال علماء النفس المحدثين للجانب الروحي من الإنسان في دراستهم للشخصية قد أدى إلى قصور واضح في فهمهم للإنسان ، وفي محاولة معرفتهم للعوامل المحددة للشخصية السوية وغير السوية ، كما أدى ذلك أيضاً إلى عدم اهتدائهم إلى الطريقة المثلى في العلاج النفسي لاضطرابات الشخصية . وقد لاحظ إريك فروم المحلل النفسي قصور علم النفس

الحديث وعجزه عن فهم الإنسان فهماً صحيحاً بسبب إهماله دراسة الجانب الروحي في الإنسان . يبدو ذلك واضحاً في قوله : «... إن التقليد الذي يعد السيكولوجيا دراسة لروح الإنسان دراسة تهتم بفضائله وسعادته – هذا التقليد نبذ تماماً ، وأصبح علم النفس الأكاديمي في محاولته لمحاكاة العلوم الطبيعية والأساليب المعملية في الوزن والحساب – أصبح هذا العلم يعالج كل شيء ما عدا الروح ، إذ حاول هذا العلم أن يفهم مظاهر الإنسان التي يمكن فحصها في المعمل ، وزعم أن الشعور ، وأحكام القيمة ، ومعرفة الخير والشر ، ما هي إلا تصورات ميتافيزيقية تقع خارج مشكلات علم النفس . وكان اهتمامه ينصب في أغلب الأحيان على مشكلات تافهة تتمشى مع منهج علمي مزعوم ، وذلك بدلاً من أن يضع مناهج جديدة لدراسة مشكلات الإنسان الهامة . وهكذا أصبح علم النفس علماً يفتقر إلى موضوعه الرئيسي وهو الروح ، وكان معنياً بالميكانيزمات ، وتكوينات ردود الأفعال ، والغرائز ، دون أن يعنى بالظواهر الإنسانية المميزة أشد التمييز للإنسان : كالحب والعقل والشعور والقيم»[(١)] .

إننا لا نستطيع أن نفهم شخصية الإنسان فهماً واضحاً بدون أن نفهم حقيقة جميع العوامل المحددة للشخصية ، سواء كانت مادية أو روحية ، أو اجتماعية وثقافية . أما الاقتصار على دراسة العوامل الجسمية البيولوجية ، والعوامل الاجتماعية والثقافية فقط ، وإهمال أثر الجانب الروحي في الإنسان ، فإن من شأن ذلك أن يعطينا صورة غير واضحة وغير دقيقة للشخصية .

تكوين الإنسان :

لقد أخبرنا القرآن كيف خلق الله تعالى الإنسان من مادة وروح . فبعد أن مرّ التراب بعدة مراحل من التكوين : من تراب إلى طين ، إلى حمأٍ مسنون ، إلى صلصال كالفخار[(٢)] ، نفخ الله تعالى فيه من روحه فخُلِق آدم عليه السلام .

---

(١) إريك فروم : مرجع سابق ، ص ١١ .

(٢) أشار الله تعالى إلى مراحل خلق آدم في مواضع مختلفة من القرآن . فقال تعالى في موضع إنه خلقه من تراب ، وفي موضع آخر من طين وهو ينشأ من اختلاط التراب بالماء ، وفي موضع آخر من حمأ مسنون وهو الطين الذي يتغير بفعل الهواء ، وفي موضع آخر من طين لازب وهو الطين المتماسك الذي يمكن تشكيله ، وفي موضع آخر من صلصال من حمأ مسنون وهو الطين الذي يبس وجف ويسمع له صوت =

«إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ»(1)

« وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ »(2)

وجاءت كلمة « الروح » في القرآن بعدة معانٍ (3) ، وإن معنى الروح الذي ورد في الآيات التي تشير إلى خلق آدم هو : « روح منه تعالى يكون به استعداد الإنسان لمعالي الصفات ، وموالاة الحق » (4) . « هو عنصر علوي يتضمن استعداد الإنسان لتحقيق معالي الأمور ، وأقدس الصفات ... فهو الذي يؤهله للارتفاع فوق مستوى الحيوان ، ويقرر له أهدافه وغايته العليا في الحياة ، ويرسم له خطوط مناهجه ، ويضيف إلى بشريته النزوع إلى مصدر القيم والمعارف التي تجعل له حقيقة إنسان » (5) .

وبهذا النوع من التكوين يتميز الإنسان عن سائر المخلوقات . فهو يشارك الحيوان في معظم الخصائص الجسمية وما يتطلبه حفظ الذات والبقاء من دوافع وانفعالات وقدرة على الإدراك والتعلم ، ولكنه يتميز عن الحيوان بخصائص روحه التي تجعله ينزع إلى معرفة الله سبحانه وتعالى وعبادته ، والتشوق إلى الفضائل والمثل العليا التي ترتفع به إلى مستويات عالية من الكمال الإنساني ، ولهذا كان الإنسان أهلاً لخلافة الله في الأرض . وباختصار ، نستطيع أن نقول إن ما يميز الإنسان عن الحيوان هو قبسة الروح من الله سبحانه وتعالى التي خصته بالاستعداد لمعرفة الله

= صلصلة إذا قرع ، وفي موضع آخر من صلصال كالفخار وهو الطين الذي وصل إلى تمام جفافه كما يحدث من تحويل الطين إلى فخار بفعل النار . أنظر : أبو القاسم الحسن بن محمد المفضل الراغب الأصفهاني : مرجع سابق ، ص ١٧ ، ١٨ ؛ ومحمد متولي الشعراوي : مرجع سابق ، ص ١١٧ .

(1) ص : ٧١ ، ٧٢ .

(2) الحجر : ٢٨ ، ٢٩ .

(3) « الروح » جاء في القرآن بعدة معان شرحها ابن القيم في كتابه « الروح » ، وشرحها عنه بتصرف البهي الخولي في كتابه : « آدم عليه السلام » الذي سبق أن أشرنا إليه ، ص ٢١ – ٢٤ .

(4) البهي الخولي : مرجع سابق ، ص ٢٢ .

(5) المرجع السابق ، ص ٣٢ ، ٣٣ .

والإيمان به وعبادته ، وتحصيل العلوم وتسخيرها في عمارة الأرض ، والتمسك بالقيم والمثل العليا في سلوكه الفردي والاجتماعي .

ولا توجد الروح والمادة في الإنسان منفصلتين أو مستقلتين احداهما عن الأخرى ، وإنما هما ممتزجتان معاً في وحدة متكاملة متناسقة . وتتكون من هذا المزيج المتكامل المتناسق ذات الإنسان وشخصيته . ونحن لا نستطيع أن نفهم شخصية الإنسان فهماً دقيقاً إلا بالنظر إلى هذا الكيان الإنساني بأكمله ، المكوّن من امتزاج عنصريٍّ المادة والروح .

الصراع النفسي :

إن الإنسان يتضمن في شخصيته صفات الحيوان المتمثلة في الحاجات البدنية التي يجب إشباعها من أجل حفظ الذات وبقاء النوع ، كما يتضمن أيضاً صفات الملائكة المتمثلة في تشوقه الروحي إلى معرفة الله سبحانه وتعالى والإيمان به وعبادته وتسبيحه . وقد يحدث بين هذين الجانبين من شخصية الإنسان صراع ، فتجذبه أحياناً حاجاته وشهواته البدنية ، وتجذبه أحياناً أخرى حاجاته وأشواقه الروحية ، ويشعر الإنسان بالصراع في نفسه بين هذين الجانبين من شخصيته . ويشير القرآن إلى حالة الصراع النفسي بين الجانبين المادي والروحي في الإنسان في قوله ؛

« فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ »(١)

ويشير القرآن أيضاً إلى هذا الصراع النفسي بين الجانبين المادي والروحي في الإنسان في وصفه تعالى لخروج قارون على قومه في زينته مما جعل بعض الناس يتمنون أن يكون لهم ما لقارون من ثروة ، فيرد عليهم البعض الآخر بأن ما عند الله خير وأبقى .

---

(١) النازعات : ٣٧ – ٤١ .

« فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ »[1]

ويشير القرآن أيضاً إلى الصراع بين الجانبين المادي والروحي في الإنسان في وصفه لانفضاض بعض المسلمين من حول النبي صلوات الله عليه وسلامه حينما سمعوا بأنباء وصول قافلة محملة بالمؤونة إلى المدينة .

« وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ »[2]

ولعل مشيئة الله سبحانه وتعالى قد اقتضت أن يعاني الإنسان – من بين ما يعانيه من مشاق الحياة – هذا الصراع النفسي بين مطالبه البدنية ومطالبه الروحية .

« لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ »[3]

ولعل مشيئة الله تعالى قد اقتضت أيضاً أن يكون أسلوب الإنسان في حل هذا الصراع هو الاختبار الحقيقي والأساسي الذي وضعه الله تعالى للإنسان في هذه الحياة . فمن استطاع أن يوفق بين الجانبين المادي والروحي في شخصيته ، وأن يحقق بينهما أكبر قدر مستطاع من التناسق والتوازن ، فقد نجح في هذا الاختبار ، واستحق أن يثاب على ذلك بالسعادة في الدنيا وفي الآخرة . وأما من انساق وراء شهواته البدنية وأغفل المطالب الروحية فقد فشل في هذا الاختبار ، واستحق أن يجازى على ذلك بالشقاء في الدنيا وفي الآخرة .

---

(١) القصص : ٧٩ ، ٨٠ .
(٢) الجمعة : ١١ .
(٣) البلد : ٤ .

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ »[1]

« إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ »[2]

« فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ »[3]

« ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا .. »[4]

ولقد شاءت رحمة الله تعالى وحكمته أن يمدّ الإنسان بجميع الإمكانات اللازمة لحل هذا الصراع ، واجتياز هذا الاختبار الصعب ، بأن وهبه العقل ليميز به بين الخير والشر ، وبين الحق والباطل . كما أمده سبحانه بحرية الإرادة والاختيار ليستطيع أن يبت في أمر هذا الصراع ، وأن يختار الطريق الذي يريده لحل هذا الصراع . وإن حرية إرادة الإنسان ، وحريته في اختيار الطريق الذي يحل به هذا الصراع إنما يمثلان أساس مسؤوليته وحسابه .

« وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ »[5]

« إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا »[6]

---

(١) المنافقون : ٩ .
(٢) التغابن : ١٥ .
(٣) الأعلى : ٩ – ١٧ .
(٤) الملك : ٢ .
(٥) البلد : ١٠ .
(٦) الإنسان : ٣ .

« وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۞ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا »(١)

« قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا . . »(٢)

« وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ . . »(٣)

« مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ »(٤)

« كَلَّا وَالْقَمَرِ ۞ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ۞ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ۞ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ۞ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ۞ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ۞ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۞ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ۞ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ۞ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ۞ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ۞ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ۞ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ۞ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ۞ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ۞ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ »(٥)

إن في طبيعة تكوين الإنسان ، إذن ، استعداداً لفعل كل من الشر والخير ، استعداداً لاتباع أهوائه وشهواته البدنية ، والاستغراق في الاستمتاع بملذاته الحسية ورغباته الدنيوية ، واستعداداً للتسامي إلى أفق الفضيلة والتقوى والمثل الإنسانية العليا ، والعمل الصالح ، وما يحققه ذلك من سكينة نفسية وسعادة روحية . ومن الطبيعي أن تتضمن طبيعة الإنسان وقوع الصراع بين الخير والشر ، بين الفضيلة والرذيلة ، بين طاعة الله ومعصيته . وإن الاختبار الحقيقي للإنسان في هذه الحياة

---

(١) الشمس : ٧ – ١٠ .
(٢) الأنعام : ١٠٤ .
(٣) الكهف : ٢٩ .
(٤) فصلت : ٤٦ .
(٥) المدثر : ٣٢ – ٤٧ .

هو ما تتجه إليه إرادته ، وما يقع عليه اختياره . هل سيختار طريق الخير أم طريق الشر ، طريق طاعة الله أم معصيته ؟ هل سينساق الإنسان وراء أهوائه وشهواته ومتع الحياة الدنيوية ، ويغفل عن ذكر الله ، وينسى اليوم الآخر ، أم هل سيتحكم في أهوائه وشهواته ، ويقوم بتحقيق التوازن بين مطالبه البدنية ومطالبه الروحية ؟

وحينما يختار الإنسان الملذات الدنيوية ، وينساق وراء أهوائه وشهواته ، وينسى ربه واليوم الآخر ، إنما يصبح في معيشته أشبه بالحيوان ، بل أضل لأنه لم يستخدم عقله الذي ميزه الله تعالى به على الحيوان .

« أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ۝ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا »(١)

والإنسان الذي يعيش هذا النوع من المعيشة يكون غير ناضج الشخصية ويكون أشبه بالطفل الذي لا يهمه إلا إشباع حاجاته ورغباته ، ولم تقو إرادته بعد ، ولم يتعلم بعد كيف يتحكم في أهوائه وشهواته ، فينساق وراء إشباعها ، ويصبح خاضعاً لتوجيه «نفسه الأمّارة بالسوء» .

« وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ »(٢)

وفي هذا المعنى جاء في الأثر : «أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك ، فمن أدبها أو قمعها آمن ظلمها»(٣) .

وحينما يبلغ الإنسان مرتبة أعلى من الكمال الإنساني ، يبدأ ضميره في الاستيقاظ ، فيستنكر ضعف إرادته وانقياده لأهوائه وشهواته وملذات الحياة

(١) الفرقان :٤٣ ، ٤٤ .
(٢) يوسف : ٥٣ .
(٣) أبو القاسم الحسن بن محمد المفضل الراغب الأصفهاني : مرجع سابق ، ص ٨٨ ، ٨٩

الدنيوية مما يوقعه في الخطيئة والمعصية ، فيشعر بالذنب ، ويلوم نفسه على ما فرط منها ، ويتجه إلى الله تعالى مستغفراً تائباً ، فإنه يصبح في هذه الحالة تحت تأثير «النفس اللوامة» .

« لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ »[1]

وإذا أخلص الإنسان بعد ذلك في توبته ، وأخلص في تقربه لله تعالى بالعبادات والأعمال الصالحة ، والابتعاد عن كل ما يغضب الله ، وتحكم تحكماً كاملاً في أهوائه وشهواته وقام بتوجيهها إلى الإشباع بالطريقة التي حددها الشرع فقط ، فحقق بذلك التوازن التام بين مطالبه البدنية ومطالبه الروحية ، فإنه يصل إلى أعلى مرتبة من الكمال الإنساني ، وهي المرتبة التي تكون فيها نفس الإنسان في حالة اطمئنان وسكينة ، وينطبق عليها وصف «النفس المطمئنة» .

« يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ۝ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى »[2]

ويمكن أن نتصور هذه المفاهيم الثلاثة للنفس ، وهي النفس الأمارة بالسوء ، والنفس اللوامة ، والنفس المطمئنة على أنها حالات تتصف بها شخصية الإنسان في مستويات مختلفة من الكمال الإنساني التي تمر بها أثناء صراعها الداخلي بين الجانبين المادي والروحي من طبيعة تكوينها . فحينما تكون شخصية الإنسان في أدنى مستوياتها الإنسانية بحيث تسيطر عليها الأهواء والشهوات والملذات البدنية والدنيوية ، فإنها تكون في حالة ينطبق عليها وصف النفس الأمارة بالسوء . وحينما تبلغ الشخصية أعلى مستويات الكمال الإنساني حيث يحدث التوازن التام بين المطالب البدنية والروحية ، فإنها تصبح في الحالة التي ينطبق عليها وصف النفس المطمئنة . وبين هذين المستويين مستوى آخر متوسط بينهما يحاسب فيه الإنسان نفسه على ما يرتكب من

---

(١) القيامة : ١ ، ٢ .
(٢) الفجر : ٢٧ - ٣٠ .

أخطاء ، ويسعى جاهداً عن الامتناع عن ارتكاب ما يغضب الله ويسبب له تأنيب الضمير ، ولكنه لا ينجح دائماً في مسعاه ، فقد يضعف أحياناً ويقع في الخطيئة . ويطلق على الشخصية في هذا المستوى النفس اللوامة .

ويجدر بنا أن نشير إلى أنه بعد نزول القرآن بنحو أربعة عشر قرناً من الزمان جاء سيجمند فرويد مؤسس مدرسة التحليل النفسي بنظرية في الشخصية ميز فيها ثلاثة أقسام للنفس نلمس في بعض وظائفها بعض أوجه الشبه بمفاهيم النفس الأمارة بالسوء ، والنفس اللوامة ، والنفس المطمئنة الواردة في القرآن ، وإن كانت توجد أيضاً اختلافات كبيرة بين هذه المفاهيم الثلاثة للنفس في القرآن وبين أقسام النفس الثلاثة في نظرية فرويد سنشير إليها فيما بعد . ذهب فرويد إلى أن للنفس ثلاثة أقسام هي : الهو ، والأنا ، والأنا الأعلى[1] . «والهو» في رأي فرويد هو ذلك الجزء من النفس الذي يحوي الغرائز التي تنبعث من البدن . وهو يطيع «مبدأ اللذة» ، ويهدف دائماً إلى الإشباع من غير مراعاة للمنطق أو الأخلاق أو الواقع . والهو ، بهذا المعنى ، يشبه إلى حد ما مفهوم «النفس الأمارة بالسوء» .

و«الأنا الأعلى» هو ذلك الجزء من النفس الذي يتكون من التعاليم التي يلقاها الفرد من والديه ومدرسيه ومن قيم الثقافة التي ينشأ فيها ، ويصبح قوة نفسية داخلية تحاسب الفرد وتراقبه وتنقده وتهدده بالعقاب ، وهو ما يعرف عادة بالضمير . ويرى فرويد أن الأنا الأعلى يمثل ما هو سامٍ في الطبيعة الإنسانية ، وهو ، بهذا المعنى ، يشبه إلى حدٍ ما مفهوم «النفس اللوامة» .

و«الأنا» هو ذلك الجزء من النفس الذي يقبض على زمام الرغبات الغريزية المنبعثة من الهو ويسيطر عليها ، فيسمح بإشباع ما يشاء منها ، ويؤجل ما يرى تأجيله ، ويكبت ما يرى ضرورة كبته مراعياً «مبدأ الواقع» أو العالم الخارجي بما يتضمنه ذلك من قوانين وقيم وأخلاق وتعاليم دينية . ويقوم الأنا في رأي فرويد بالتوفيق بين الهو ،

(١) سيجمند فرويد : الأنا والهو ، ترجمة محمد عثمان نجاتي ، ط ٤ ، بيروت : دار الشروق ، ١٩٨٢ ، ص ١٤ – ١٧ ؛
سيجمند فرويد : معالم التحليل النفسي ، ترجمة محمد عثمان نجاتي ، ط ٥ ، بيروت : دار الشروق ، ١٩٨٣ ، ص ٤٦ – ٤٨ .

والواقع أو العالم الخارجي ، والأنا الأعلى ، بحيث يسمح بإشباع رغباته الغريزية في الحدود التي يسمح بها الواقع ، ويحدّ من تطرف الأنا الأعلى بحيث لا يجعله يسرف في النقد والتهديد بالعقاب بدون مبرر معقول . وإذا نجح الأنا في وظيفته التوفيقية أمكن أن يتحقق للإنسان الاتزان والسواء والصحة النفسية . وعلى ذلك ، فإننا نستطيع أن نجد شبهاً بين النتيجة التي يؤدي إليها نجاح الأنا في وظيفته وما يحققه للإنسان من إتزان وسعادة ، وبين حالة «النفس المطمئنة» التي يصل إليها الإنسان بالتغلب على أهوائه ، وبتحقيق التوازن بين مطالبه البدنية ومطالبه الروحية ، مراعياً في ذلك «مبدأ الواقع» الذي يفرضه نظام الحياة في المجتمع المسلم من القيام بالعبادات المفروضة ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والعمل الصالح ، واتباع قواعد الأخلاق الإسلامية .

ويجدر بنا أن نشير أيضاً إلى أوجه الاختلاف بين هذه المفاهيم الثلاثة للنفس كما وردت في القرآن وبين أقسام النفس الثلاثة في نظرية فرويد . فمفاهيم النفس الأمارة بالسوء ، والنفس اللوامة ، والنفس المطمئنة حالات مختلفة تتصف بها النفس أثناء صراعها الداخلي بين الجانب المادي والجانب الروحي في شخصية الإنسان ، وهي ليست أقساماً مختلفة للنفس ، كما أنها لا تتكون أثناء مراحل نمو معينة يمر بها الإنسان . أما مفاهيم « الهو» ، و« الأنا » ، و« الأنا الأعلى » فهي ، في نظرية فرويد ، أقسام مختلفة للنفس ، كما أنها تتكون في مراحل مختلفة من نمو الطفل . « فالهو» هو نفس الطفل عقب ميلاده مباشرة ، إذ يكون الطفل واقعاً كلية تحت تأثير متطلباته الغريزية . ثم تحت تأثير العالم الخارجي يبدأ يتكون من «الهو» جزء متميز عنه هو «الأنا» ، وهو الذي يقوم بالتحكم في الغرائز المنبعثة من «الهو» مراعياً مقتضيات الواقع والعالم الخارجي . ومن التعاليم والنواهي التي يتلقاها الطفل من والديه والثقافة التي ينشأ فيها يتكون « الأنا الأعلى » ، وهو الضمير الذي يحاسبه ويلومه ويؤنبه على ما يقوم به من أخطاء . ويقوم بين هذه الأقسام الثلاثة صراع يحاول فيه الأنا أن يوفق بين متطلبات الهو والأنا الأعلى والعالم الخارجي . فإذا نجح في ذلك كان الإنسان سوياً ومتمتعاً بالصحة النفسية .

وبينما يقع الصراع النفسي في نظرية فرويد بين أقسام النفس الثلاثة ، فإنه يقع ،

وفقاً لتصوير القرآن لطبيعة تكوين الإنسان ، بين الجانب المادي والجانب الروحي من شخصية الإنسان . وتنشأ تبعاً لنتيجة هذا الصراع حالات النفس الثلاث : النفس الأمارة بالسوء ، والنفس اللوامة ، والنفس المطمئنة .

التوازن في الشخصية :

لقد أشرنا من قبل إلى أن الحل الأمثل للصراع بين الجانبين البدني والروحي في الإنسان هو التوفيق بينهما ، بحيث يقوم الإنسان بإشباع حاجاته البدنية في الحدود التي أباحها الشرع ، ويقوم في الوقت نفسه بإشباع حاجاته الروحية . ومثل هذا التوفيق بين حاجات البدن وحاجات الروح يصبح أمراً ممكناً إذا ما التزم الإنسان في حياته التوسط والاعتدال ، وتجنب الإسراف والتطرف سواء في إشباع دوافعه البدنية أو الروحية . فليس في الإسلام رهبانية تقاوم إشباع الدوافع البدنية وتعمل على كبتها ، كما ليس في الإسلام إباحية مطلقة تعمل على الإشباع التام للدوافع البدنية ، وإنما ينادي الإسلام بالتوفيق بين دوافع كل من البدن والروح ، واتباع طريق وسط يحقق التوازن بين الجانبين المادي والروحي في الإنسان ، كما سبق أن أشرنا إلى ذلك أثناء كلامنا عن الصراع النفسي في الفصل الأول الخاص بالدوافع في القرآن .

ويشير القرآن إلى ضرورة تحقيق هذا التوازن في الشخصية بقوله :

« وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا » (١)

وفي هذا المعنى قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « ليس خيركم من عمل لدنياه دون آخرته ، ولا من عمل لآخرته وترك دنياه ، وإنما خيركم من عمل لهذه وهذه » (٢) .

وحينما يتحقق هذا التوازن بين البدن والروح تتحقق ذاتية الإنسان في صورتها الحقيقية الكاملة والتي تمثلت في شخصية النبي صلوات الله عليه وسلامه الذي توازنت فيه القوة الروحية الشفافة ، والحيوية الجسمية الفياضة ، فكان يعبد ربه حق

---

(١) القصص : ٧٧ .

(٢) محمد جواد مغنية : فلسفة الأخلاق في الإسلام ، بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٧٧ ، ص ١٩٤ ، ١٩٥ .

عبادته في صفاء وخشوع كاملين ، كما كان يعيش حياته البشرية كغيره من البشر يشبع حاجاته البدنية في الحدود التي رسمها الشرع ، ولذلك فهو يمثل الإنسان الكامل ، والشخصية الإنسانية النموذجية الكاملة التي توازنت فيها جميع القوى الإنسانية البدنية منها والروحية [1] .

والتوازن في الشخصية الإنسانية بين البدن والروح ليس إلا مثالاً ، للتوازن الموجود في الكون كله . فقد خلق الله تعالى كل شيء بمقدار وميزان . ولقد سبق أن أشرنا عند كلامنا على الدوافع الفطرية في الفصل الأول إلى فكرة الاتزان الحيوي في البدن ، وإلى وظيفة الدوافع الفطرية في إبقاء البدن في حالة ثابتة من الاتزان ، وهو أمر ضروري لحفظ الذات والبقاء . غير أن الاتزان في الإنسان ليس قاصراً على اتزانه البيولوجي فقط ، وإنما يشمل أيضاً شخصيته بأكملها ، إنه يشمل كذلك التوازن بين البدن والروح .

الشخصية السوية :

يتبين لنا مما تقدم أن الشخصية السوية في الإسلام هي الشخصية التي يتوازن فيها البدن والروح ، وتشبع فيها حاجات كل من البدن والروح . إن الشخصية السوية هي التي تعنى بالبدن وصحته وقوته ، وتشبع حاجاته في الحدود التي رسمها الشرع ، والتي تتمسك في نفس الوقت بالإيمان بالله ، وتؤدي العبادات ، وتقوم بكل ما يرضي الله تعالى ، وتتجنب كل ما يغضبه . فالشخص الذي ينساق وراء أهوائه وشهواته شخص غير سوي . وكذلك ، فإن الشخص الذي يكبت حاجاته البدنية ويقهر جسمه ويضعفه بالرهبانية المفرطة والتقشف الشديد ، وينزع إلى إشباع حاجاته وأشواقه الروحية فقط ، هو أيضاً شخص غير سوي . وذلك لأن كلاً من هذين الاتجاهين المتطرفين يخالف الطبيعة الإنسانية ويعارض فطرتها ، ولذلك فلا يمكن أن يؤدي أي من هذين الاتجاهين إلى تحقيق ذاتية الإنسان الحقيقية ، كما لا يمكن أن يؤدي بها إلى بلوغ كمالها الحقيقي .

---

(١) محمد قطب : في النفس والمجتمع ، ط ٢ . القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٩٦٢ ، ص ٦٢ ، ٦٣ .

أنماط الشخصية في القرآن

حاول المفكرون في عصور التاريخ المختلفة ، كما حاول علماء النفس في العصر الحديث دراسة أوجه التشابه وأوجه الاختلاف بين شخصيات الناس ، وقاموا بعدة محاولات لتصنيف الناس إلى عدة أنماط من الشخصية ، يتميز كل نمط منها بمجموعة معينة من الصفات أو السمات المميزة . وقد اتجه بعضهم إلى تصنيف الناس إلى أنماط على أساس خصائص التكوين الجسمي ، وذهبوا إلى أن الناس الذين يقعون تحت نمط من هذه الأنماط الجسمية للشخصية يتشابهون في سماتهم النفسية . واتجه البعض الآخر إلى تصنيف الناس إلى أنماط نفسية على أساس تشابههم في سماتهم النفسية (١) .

وتصنيف الناس إلى أنماط من الشخصية يقع تحت كل نمط منها الأشخاص المتشابهون في سماتهم ، إنما هي محاولة تساعد على وصف الناس وتفسير سلوكهم . فإذا قلنا ، مثلاً ، إن شخصاً معيناً ينتمي إلى نمط معين ، فإننا نستطيع بناء على ذلك وصف هذا الشخص وتفسير سلوكه ، كما نستطيع أن نتوقع نوع السلوك الذي يمكن أن يصدر منه في مواقف معينة .

ونحن نجد في القرآن تصنيفاً للناس على أساس العقيدة إلى ثلاثة أنماط هي : المؤمنون ، والكافرون ، والمنافقون . ولكل نمط من هذه الأنماط الثلاثة سماته الرئيسية العامة التي تميزه عن النمطين الآخرين . وتصنيف القرآن للناس على أساس العقيدة يتمشى مع أهداف القرآن من حيث هو كتاب عقيدة وهداية . ثم إن هذا التصنيف يشير إلى أهمية العقيدة في تكوين شخصية الإنسان ، وفي تحديد سماته المميزة له ، وفي توجيه سلوكه على نحو معين خاص يتميز به . كما يشير هذا التصنيف أيضاً إلى أن العامل الأساسي في تقييم الشخصية ، في نظر القرآن ، هو العقيدة والتقوى .

---

(١) لمعرفة مزيد من نظريات الأنماط في الشخصية انظر : ريتشارد س . لازاروس : الشخصية ، مرجع سابق ، ص ٦٢ – ٦٧ ؛ محمد عثمان نجاتي : علم النفس في حياتنا اليومية ، مرجع سابق ، ص ٣٩٨ – ٤٠٥ .

«...إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ...»[1]

وقد أشار القرآن إلى هذه الأنماط الثلاثة من الناس : المؤمنين ، والكافرين ، والمنافقين في مواضع كثيرة . فقد أشار إليهم ، مثلاً ، في مطلع سورة البقرة . فذكر المؤمنين في أربع آيات (٢ — ٥) ، وذكر الكافرين في آيتين (٦ ، ٧) ، وذكر المنافقين في ثلاث عشرة آية (٨ — ٢٠) ، وأشار إليهم أيضاً في سور أخرى كثيرة ، كما أفرد لكل منهم سورة سماها باسمهم هي سور «المؤمنون» ، و«الكافرون» ، و «المنافقون»[2] .

ووصف القرآن كل نمط من هذه الأنماط الثلاثة بسمات خاصة يعرف بها ، ويتميز بها عن النمطين الآخرين من الناس . وسنحاول فيما يلي أن نذكر أهم السمات التي يتميز بها كل نمط من هذه الأنماط الثلاثة من الناس كما جاء في القرآن .

المؤمنون :

ذكر الله سبحانه وتعالى المؤمنين في كثير من الآيات في معظم سور القرآن ، ووصف سلوكهم في كثير من مجالات حياتهم : في عقيدتهم ، وعبادتهم ، وأخلاقهم ، وعلاقاتهم مع غيرهم من الناس ، وفي علاقاتهم الأسرية ، وفي حبهم لطلب المعرفة ، وفي حياتهم العملية وسعيهم في طلب الرزق ، وفي سماتهم البدنية . فإذا جمعنا سمات المؤمنين التي وردت في القرآن وحاولنا تصنيفها لأمكن أن نصنفها إلى تسعة مجالات عامة رئيسية من مجالات السلوك هي :

١ — سمات تتعلق بالعقيدة .
٢ — سمات تتعلق بالعبادات .

---

(١) الحجرات : ١٣ .
(٢) انظر أيضاً في هذا الموضوع : أحمد محمد فارس : النماذج الإنسانية في القرآن الكريم ، بيروت : دار الفكر (د ، ت) ، ص ٦١ — ٨٥ ؛ عبد الغني عبود : الإنسان في الإسلام والإنسان المعاصر ، القاهرة : دار الفكر العربي ، ١٩٧٨ ، ص ١٥٢ — ١٥٨ .

٣ – سمات تتعلق بالعلاقات الاجتماعية .
٤ – سمات تتعلق بالعلاقات الأسرية .
٥ – سمات خلقية .
٦ – سمات انفعالية وعاطفية .
٧ – سمات عقلية ومعرفية .
٨ – سمات تتعلق بالحياة العملية والمهنية .
٩ – سمات بدنية .

ويضم كل مجال من هذه المجالات العامة الرئيسية لسمات المؤمنين مجموعة أخرى من السمات الفرعية الكثيرة التي يتعلق كل منها بناحية خاصة معينة من السلوك . وتبين القائمة التالية مجموعات السمات الفرعية التي تتضمنها المجالات العامة الرئيسية لسمات المؤمنين التي ذكرناها سابقاً .

١ ـ سمات تتعلق بالعقيدة :

الإيمان بالله ، وبرسله ، وكتبه ، وملائكته ، واليوم الآخر ، والبعث والحساب ، والجنة والنار ، والغيب ، والقدر .

٢ ـ سمات تتعلق بالعبادات :

عبادة الله ، وأداء الفرائض من صلاة وصيام وزكاة وحج وجهاد في سبيل الله بالمال والنفس ، وتقوى الله ، وذكره دائماً ، واستغفاره ، والتوكل عليه ، وقراءة القرآن .

٣ ـ سمات تتعلق بالعلاقات الاجتماعية :

معاملة الناس بالحسنى ، الكرم والإحسان ، التعاون ، التماسك والاتحاد ، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، العفو ، الإيثار ، الإعراض عن اللغو .

٤ ـ **سمات تتعلق بالعلاقات الأسرية :**

الإحسان بالوالدين وبذي القربى ، حسن المعاشرة بين الأزواج ، رعاية الأسرة والإنفاق عليها .

٥ ـ **سمات خلقية :**

الصبر ، الحلم ، الصدق ، العدل ، الأمانة ، الوفاء بعهد الله وعهد الناس ، العفة ، التواضع ، القوة في الحق وفي سبيل الله ، عزة النفس ، قوة الإرادة ، التحكم في أهواء النفس وشهواتها .

٦ ـ **سمات انفعالية وعاطفية :**

حب الله ، الخوف من عذاب الله ، الأمل في رحمة الله ، حب الناس وحب الخير لهم ، كظم الغيظ والتحكم في انفعال الغضب ، عدم الاعتداء على الغير وعدم إيذائهم ، عدم حسد الغير ، عدم العجب بالنفس ، الرحمة ، لوم النفس والشعور بالندم في حالة ارتكاب ذنب ما .

٧ ـ **سمات عقلية ومعرفية :**

التفكير في الكون وخلق الله ، طلب المعرفة والعلم ، عدم اتباع الظن وتحري الحقيقة ، حرية الفكر والعقيدة .

٨ ـ **سمات تتعلق بالحياة العملية والمهنية :**

الإخلاص في العمل وإتقانه ، السعي بنشاط وجد في سبيل كسب الرزق .

٩ ـ **سمات بدنية :**

القوة ، الصحة ، النظافة ، الطهارة .

إننا إذا فكرنا في مجموعة هذه السمات التي وصف القرآن بها المؤمنين ، فإننا نستطيع أن نتمثل في ذهننا صورة دقيقة نابضة بالحياة للإنسان المؤمن الذي يؤمن بربه إيماناً صادقاً ، ويعبده حق عبادته ، ويتمسك في حياته الخاصة وحياته الأسرية

والاجتماعية وفي عمله المهني بالمثل الإنسانية العليا وبالأخلاق الفاضلة الكريمة ، ويكون في عمله مثال الإخلاص والأمانة والاتقان . إن صورة الإنسان المؤمن الذي يصفه لنا القرآن إنما هي صورة الإنسان الكامل في هذه الحياة في حدود الإمكانات البشرية ، والتي يريد الله سبحانه وتعالى منا أن نسعى بكل جهدنا إلى تحقيقها في أنفسنا . ولقد قام النبي صلى الله عليه وسلم بتربية الرعيل الأول من المؤمنين على أساس هذه السمات فغيّر شخصياتهم تغييراً كاملاً ، وكوّن منهم رجالاً مؤمنين حقاً استطاعوا أن يغيروا وجه التاريخ بقوة شخصياتهم ، ونبل أخلاقهم ، وعلوّ هممهم ، وكريم الصفات والمثل العليا التي تعلموها من القرآن والسنة .

إن صورة الإنسان المؤمن الذي ترسمه في أذهاننا مجموعة هذه السمات التي وردت في القرآن في وصف المؤمنين إنما تكون لنا نموذجاً للإنسان المؤمن يجب أن نعمل على تحقيقه واقعياً في حياتنا ، كما يجب أن نعمل على تنشئة أطفالنا عليها حتى تصبح سمات رئيسية عميقة الجذور في شخصياتهم ، وبهذه الطريقة وحدها يمكن تكوين المجتمع الإسلامي السليم .

وليست هذه السمات مستقلة بعضها عن بعض في شخصية المؤمن ، بل إنها تتفاعل فيما بينها وتتكامل ، وتشترك جميعها في توجيه سلوك المؤمن في جميع مجالات حياته ، ولذلك يبدو سلوك المؤمن متناسقاً سواء في علاقته مع ربه ، أو في علاقته مع الناس ، أو في علاقته مع نفسه . وتلعب السمات المتعلقة بالعقيدة دوراً أساسياً ومركزياً في توجيه سلوك الإنسان في جميع مجالات حياته ، بحيث يصبح إيمان الإنسان بعقيدة التوحيد ، وإيمانه بالبعث والحساب السمات الرئيسية السائدة في شخصيته ، والتي تؤثر في جميع السمات الأخرى للشخصية وتوجهها . فالمؤمن الأمين في علاقته مع ربه يكون أيضاً أميناً في علاقته مع نفسه وفي علاقته مع الناس الآخرين ، كما يكون أميناً أيضاً في عمله . إن المؤمن الذي يخشى ربه ويتقيه ويخلص في عبادته لربه يكون أيضاً في جميع علاقاته مع نفسه ومع الناس مراعياً مرضاة الله ، وآملاً في ثوابه ، وخائفاً من غضبه وعقابه . وهكذا يمتد إيمانه بالله تعالى وعبادته له إلى جميع مجالات سلوكه في الحياة ، فيكون حسن توجيهه لنفسه عبادة ، وحسن

معاملته للناس ومحبتهم وإسداء الخير لهم عبادة ، وحسن أدائه لعمله وإخلاصه فيه عبادة .

وليس جميع المؤمنين في مستوى واحد من التقوى ، ولكنهم يختلفون فيما بينهم في درجة تقواهم . وقد ذكر القرآن ثلاث درجات أو فئات للمؤمنين : الظالمين لأنفسهم ، والمقتصدين ، والسابقين بالخيرات .

« ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ »[1]

يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية : « (فمنهم ظالم لنفسه) وهو المفرط في فعل بعض الواجبات المرتكب لبعض المحرمات ، (ومنهم مقتصد) وهو المؤدي للواجبات التارك للمحرمات وقد يترك بعض المستحبات ويفعل بعض المكروهات ، (ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله) وهو الفاعل للواجبات والمستحبات التارك للمحرمات والمكروهات وبعض المباحات »[2] . ويقول القرطبي إن « الظالم لنفسه » هو الذي عمل الصغائر ، و« المقتصد » هو الذي يعطي الدنيا حقها والآخرة حقها ، و« السابق بالخيرات » هم السابقون من الناس كلهم[3] . وفي تفسير الجلالين إن « الظالم لنفسه » هو المقصر في العمل ، و« المقتصد » هو الذي يعمل به أغلب الأوقات ، و« السابق بالخيرات » هو الذي يضم إلى العمل التعليم والإرشاد إلى العمل[4] .

الكافرون :

أشار القرآن إلى الكافرين في كثير من الآيات ، ووصفهم بسمات رئيسية

---

(١) فاطر : ٣٢ .

(٢) تفسير ابن كثير ، جـ ٣ ، ص ٥٥٤ ، ٥٥٥ .

(٣) تفسير القرطبي ، جـ ١٤ ، ص ٣٤٦ . ويقول القرطبي إن «هذه الآية نظير قوله تعالى في سورة الواقعة (وكنتم أزواجاً ثلاثة) ... (فمنهم ظالم لنفسه) أصحاب المشأمة ، (ومنهم مقتصد) أصحاب الميمنة ، (ومنهم سابق بالخيرات) السابقون من الناس كلهم .

(٤) تفسير الجلالين ، ص ٣٦٧ .

يتميزون بها . ويمكن تلخيص سمات الكافرين التي وردت في القرآن فيما يلي :

١ ـ سمات تتعلق بالعقيدة :

عدم الإيمان بالتوحيد ، وبالرسل ، وباليوم الآخر ، وبالبعث والحساب .

٢ ـ سمات تتعلق بالعبادات :

يعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم .

٣ ـ سمات تتعلق بالعلاقات الاجتماعية :

الظلم ، عدوانيون في تصرفاتهم نحو المؤمنين فهم يسخرون منهم ويعتدون عليهم ، يأمرون بالمنكر ، وينهون عن المعروف .

٤ ـ سمات تتعلق بالعلاقات الأسرية :

يقطعون صلة الرحم .

٥ ـ سمات خلقية :

نقض العهد ، الفجور واتباع الأهواء والشهوات ، الغرور ، التكبر .

٦ ـ سمات انفعالية وعاطفية :

كراهيتهم للمؤمنين وحقدهم عليهم ، وحسدهم لهم على ما أنعم الله به عليهم .

٧ ـ سمات عقلية ومعرفية :

جمود التفكير والعجز عن الفهم والتعقل ، الختم والطبع على قلوبهم ، التقليد الأعمى لمعتقدات وتقاليد الآباء ، خداع النفس .

إن الصورة التي يرسمها القرآن لشخصية الكافرين هي أنهم لا يؤمنون بعقيدة التوحيد ، ولا بالرسل والكتب المنزلة ، ولا باليوم الآخر والبعث والحساب ، ولا بالجنة والنار . وهم يقلدون ما كان عليه آباؤهم من عبادة الأصنام التي لا تنفع ولا

تضر ، ولا تسمع ولا تنطق ولا تعقل . وهم أشخاص قد تجمد تفكيرهم وعجزوا عن إدراك حقيقة التوحيد التي يدعو إليها الإسلام ، ولذلك وصفهم القرآن بقوله :

« خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ »[(١)]

وهم يحسدون المؤمنين على ما أنعم الله به عليهم ، ويحقدون عليهم ويكرهونهم ، ويسخرون منهم ويؤذونهم ، وينفقون أموالهم في مقاومتهم ومقاومة دعوة الإسلام . وهم في كراهيتهم للمؤمنين وفي إيذائهم لهم لا يراعون صلة الرحم والقرابة ، وهم ينقضون العهد ، ويتملكهم الغرور والاستكبار . وهم أشخاص ماديون نفعيون ، يهتمون بمتع الدنيا وملذاتها ، ولذلك فهم يعيشون عيشة الفجور والفسوق والانغماس في إشباع أهوائهم وشهواتهم .

وقد رأينا أثناء كلامنا عن المؤمنين أن الإيمان بعقيدة التوحيد ، وبالبعث والحساب في الآخرة كان من السمات الرئيسية في شخصية المؤمنين التي أثرت تأثيراً كبيراً في جميع سماتهم الأخرى ، وكانت بمثابة القوة المحركة والموجهة لها في سياق معين من السلوك الخاص الذي تميز به المؤمنون . وإن فقدان الكافرين للإيمان بعقيدة التوحيد وبالبعث والحساب في الآخرة قد أفقدهم تلك القوة المنظمة والمنسقة للسمات الأخرى لشخصياتهم ، والموجهة لها نحو هدف محدد واضح في الحياة ، وهو عبادة الله وابتغاء وجهه تعالى في كل ما يقوم به الإنسان من عمل أملاً في مغفرته ورضوانه ، وطمعاً في ثوابه في الدنيا والآخرة . إن غياب هذا الهدف الدافع والموجه للسلوك قد أفقد الكافرين توازن شخصياتهم ، فانحرفوا نحو إشباع شهواتهم وملذاتهم البدنية والدنيوية ، كما أفقدهم اتزانهم الانفعالي فكانوا يكرهون المسلمين ويحقدون عليهم ويحسدونهم ، وكانوا عدوانيين في سلوكهم معهم ، فكانوا يؤذونهم ويعتدون عليهم . وقد ساعد عدم اتزان شخصياتهم على جمود تفكيرهم وعدم استعدادهم لتقبل دعوة التوحيد وفهمها واستيعابها .

---

(١) البقرة : ٧ .

المنافقون :

المنافقون هم فئة من الناس ضعاف الشخصية ومترددون لم يستطيعوا أن يتخذوا موقفاً صريحاً من الإيمان . وقد ذكر القرآن سماتهم المميزة لهم ، وتوعدهم بأشد العذاب .

« إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا »[1]

ويمكن تلخيص أهم سماتهم التي وردت في القرآن فيما يلي :

١ ـ سمات تتعلق بالعقيدة :

إنهم لم يتخذوا موقفاً محدداً من عقيدة التوحيد ، فهم يظهرون الإيمان إذا وجدوا بين المسلمين ، ويظهرون الشرك إذا وجدوا بين المشركين .

٢ ـ سمات تتعلق بالعبادات :

يؤدون العبادات رياء وعن غير اقتناع ، وإذا قاموا للصلاة قاموا كسالى .

٣ ـ سمات تتعلق بالعلاقات الاجتماعية :

يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ، يعملون على إثارة الفتن بين صفوف المسلمين ويستخدمون في ذلك الشائعات ، يميلون إلى خداع الناس ، يحسنون الكلام للتأثير على السامعين ، يكثرون من الحلف لدفع الناس إلى تصديقهم ، يحسنون الظهور بمظهر حسن في ملبسهم لجلب انتباه الناس والتأثير عليهم .

٤ ـ سمات خلقية :

ضعف الثقة بالنفس ، نقض العهد ، الرياء ، الجبن ، الكذب ، البخل ، النفعية والانتهازية ، اتباع الأهواء .

---

(١) النساء : ١٤٥ .

٥ ـ سمات انفعالية وعاطفية :

الخوف ، فهم يخافون كِلاً من المؤمنين والمشركين ، الجبن والخوف من الموت مما يجعلهم يتخلفون عن القتال مع المسلمين ، يكرهون المسلمين ويحقدون عليهم .

٦ ـ سمات عقلية ومعرفية :

التردد والريبة وعدم القدرة على الحكم واتخاذ القرار ، عدم القدرة على التفكير السليم ولذلك وصفهم القرآن «بالطبع على قلوبهم» ، يميلون إلى الدفاع عن أنفسهم بتبرير أفعالهم .

إن هذه السمات العديدة التي يصف القرآن بها المنافقين تعطينا صورة واضحة لشخصية المنافق . والسمات الرئيسية لشخصية المنافق هي تردده بين الإيمان والكفر ، وعجزه عن اتخاذ موقف واضح صريح بالنسبة لعقيدة التوحيد . ولعل ذلك لأنه شخص جبان ، ضعيف الثقة بنفسه ، يخشى المؤمنين ، كما يخشى المشركين ، فيتخذ موقفاً متردداً بينهم لا يستطيع أن يصدر حكماً واضحاً صريحاً إلى أية فئة منهم هو في الحقيقة ينتمي . وإن اتخاذ مثل هذا الموقف يجعل المنافق يلجأ إلى الكذب ، والرياء ، والخداع ، وإخفاء مشاعره الحقيقية من كراهيته للمسلمين وحقده عليهم وحسده لهم ، مما يدفعه إلى إثارة الفتن ضدهم في الخفاء مستخدماً في ذلك سلاح الشائعات . والمنافق نفعي انتهازي إذا نال المسلمون خيراً قال إنه معهم ليشاركهم فيه ، وإذا نال المشركون خيراً قال إنه معهم لينال نصيباً منه . وهو جبان ، إذا دُعي إلى الاشتراك في القتال تملكه الخوف ، وتخلف عن القتال منتحلاً كثيراً من الأعذار . وهو يحاول دائماً خداع الناس ، ولذلك فهو يحاول التأثير عليهم بحسن الكلام ، وبحسن المظهر . وهو يحس في قرارة نفسه بضعفه ، ولذلك فهو يحاول الدفاع عن نفسه بتبرير أفعاله .

إن الصورة التي رسمها القرآن لشخصية المنافق صورة دقيقة حية تنطبق بدقة على نمط معين من الناس يوجدون في جميع المجتمعات الإنسانية ، ونحن نستطيع أن نعرفهم بوضوح بهذه السمات التي يتميزون بها .

الحيل العقلية في القرآن

الحيل العقلية هي عبارة عن سلوك دفاعي يلجأ إليه الإنسان لوقاية نفسه من الشعور بالقلق الذي يمكن أن ينتابه إذا ما عرفت دوافعه الحقيقية الكامنة في نفسه ، والتي يحاول إخفاءها بالالتجاء إلى الحيل العقلية .

ولقد كانت شخصية المنافقين تتميز ، كما بينا ذلك من قبل ، بالشك والتردد ، وضعف الثقة بالنفس ، والخوف من انفضاح أمرهم ، والرهبة من أن يعرفهم المسلمون فيبطشون بهم . وقد دفعتهم طبيعة شخصيتهم هذه إلى كثرة الالتجاء إلى الحيل العقلية كسلوك دفاعي . وقد أشار القرآن إلى ثلاثة أنواع من الحيل العقلية كان المنافقون يقومون بها وهي : الإسقاط ، والتبرير ، وتكوين ردّ الفعل .

الإسقاط :

الإسقاط حيلة عقلية يقوم فيها الفرد بإسقاط حالته النفسية ودوافعه وعيوبه وأخطائه على الغير فيدركها فيهم بدلاً من أن يدركها في نفسه . فمثلاً ، إن الشخص الذي يضمر في نفسه العداء لأحد أصدقائه ، قد يسقط شعوره العدائي على صديقه فيدرك أن صديقه يعامله بعداء . وكان المنافقون يضمرون العداء للمسلمين ، ويخفون حقدهم عليهم وكراهيتهم لهم . وكانوا يسقطون شعورهم العدائي على المسلمين ، فيظنون أن المسلمين يريدون البطش بهم . وقد صور القرآن ذلك أصدق تصوير في وصف المنافقين الذين يحسبون أن كل صيحة يسمعونها تصدر عن المسلمين موجهة ضدهم .

« وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ »[1]

---

(١) المنافقون : ٤ .

إن كل صيحة يسمعونها يظنون أنها عليهم ، ويظنون أن المسلمين يريدون أن يبطشوا بهم ، وذلك نتيجة لما يضمرونه من شعور عدائي نحو المسلمين ، فيقومون بإسقاط هذا الشعور العدائي عليهم . ويلاحظ أنه بعد عبارة «يحسبون كل صيحة عليهم» تقول الآية مباشرة : «هم العدو فاحذرهم» ، وهذا يوضح أنهم هم الذين يضمرون العداء للمسلمين في الحقيقة ، وأن إدراكهم لما يسمعون من صيحات كأنها ضدهم ليس إلاّ وهْماً نتيجة عملية الإسقاط .

التبرير :

التبرير حيلة عقلية دفاعية يحاول بها الإنسان تبرير دوافعه وأفعاله غير المقبولة بأن يعطيها تفسيراً يكون مقبولاً . وقد كان المنافقون يلجأون إلى التبرير في كثير من الأحيان لتفسير سلوكهم تفسيراً يكون مقبولاً . فإذا أفسدوا في الأرض قالوا إنما هم يقصدون الإصلاح ، وهم بذلك إنما يقومون بتبرير أفعالهم تبريرات تبدو مقبولة ومعقولة . وقد وصف القرآن التبرير الذي يقوم به المنافقون بقوله :

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ »[1]

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ۝ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ۝ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا »[2]

والحيل العقلية سلوك يقوم به الإنسان بطريقة لاشعورية . فحينما يسقط الإنسان مثلاً شعوره العدائي على آخر فيعتقد أن هذا الشخص الآخر هو الذي يضمر له العداء ، فإنه يقوم بذلك بدون وعي منه بأنه يقوم بعملية إسقاط . وكذلك حينما يقوم الإنسان بالتبرير فهو لا يكون واعياً بأنه يقوم بعملية تبرير ، بل إنه يعتقد فعلاً

(١) البقرة : ١١ ، ١٢ .
(٢) النساء : ٦١ – ٦٣ .

أن ما يقوم به من أعمال سيئة إنما هي أعمال حسنة ومفيدة ، أو أنه يقصد منها الخير والإصلاح . ويشير القرآن إلى هذه الناحية اللاشعورية من الحيل العقلية بقوله في في وصف سلوك المنافقين الذين يقومون بعملية التبرير . «ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون» . فالقول : «ولكن لا يشعرون» إنما يشير إلى عدم وعيهم بأن ما يفعلونه إنما هو إفساد وليس إصلاحاً .

تكوين ردّ الفعل :

وتكوين رد الفعل حيلة عقلية دفاعية يتخذ فيها الفرد سلوكاً يكون مضاداً لسلوك آخر يريد إخفاءه . فالفرد ، مثلاً ، قد يبدي كثيراً من المجاملة والأدب والاهتمام في معاملة شخص معين كوسيلة دفاعية يخفي بها كرهه له وشعوره العدائي نحوه . وقد كان المنافقون يلجأون إلى هذه الحيلة العقلية الدفاعية لإخفاء حقيقة شعورهم بالكراهية والعداء للمسلمين . فكانوا يحسنون الكلام معهم ، ويظهرون حبهم وإعجابهم بهم وتقديرهم لهم بقصد إخفاء ما تضمره نفوسهم من كراهية وعداء .

« وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ۝ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ »(١)

« وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ .. »(٢)

وهكذا نرى أن القرآن ، في وصفه لسلوك المنافقين في عصر النبي صلى الله عليه وسلم ، قد أشار إلى بعض الحيل العقلية التي كان يستخدمها المنافقون ، وذلك منذ أربعة عشر قرناً من الزمان قبل أن يكتشف سيجمند فرويد هذه الحيل

(١) البقرة : ٢٠٤ ، ٢٠٥ . نزلت هذه الآية « في الأخنس بن شريق ، كان منافقاً حلو الكلام للنبي صلى الله عليه وسلم يحلف أنه مؤمن به ومحب له فيدني مجلسه ، فأكذبه الله في ذلك .. » . تفسير الجلالين ، ص ٢٨ .

(٢) المنافقون : ٤ .

العقلية في سلوك مرضاه الذين كان يقوم بعلاجهم .

الفروق الفردية في القرآن

توجد فروق كثيرة بين الناس في استعداداتهم وقدراتهم البدنية والنفسية والعقلية . وترجع هذه الفروق إلى تفاعل كل من العوامل الوراثية والبيئية . وقد أشار القرآن إلى الفروق بين الناس في كثير من المواضع .

« وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ .. »(١)

« أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا .. »(٢)

« وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ »(٣)

« ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ .. »(٤)

« وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ .. »(٥)

في هذه الآيات إشارة واضحة إلى وجود الفروق الفردية بين الناس ، كما أن هذه الآيات تتضمن أن هذه الفروق ترجع إلى كل من العوامل الوراثية والبيئية . فقوله تعالى : « ورفع بعضكم فوق بعض درجات » إنما يشمل كل أنواع الفروق بين الناس سواء كانت وراثية أم مكتسبة ، وسواء كانت بدنية أو نفسية أو عقلية ،

---

(١) الأنعام : ١٦٥ .
(٢) الزخرف : ٣٢ .
(٣) الروم : ٢٢ .
(٤) الإسراء : ٢١ .
(٥) فاطر : ٢٨ .

أو في الثروة والممتلكات ، أو النفوذ . وقوله تعالى : «ليتخذ بعضهم بعضاً سُخْرِياً» إنما يشير إلى اختلاف الناس في الغنى ، وفي العلم والمهنة ، بحيث يعمل الفقير للغني بالأجر ، كما يعمل بعض أصحاب المهن والحرف في خدمة الناس الآخرين بالأجر ، وبذلك يتم التعاون وتوزيع العمل بين أفراد المجتمع مما يكفل سد جميع حاجاتهم ، ويهيئ لهم جميع الخدمات اللازمة لهم في معيشتهم . وقوله تعالى إن من آياته اختلاف ألسنة الناس وألوانهم إنما يشير إلى أثر كل من العوامل الوراثية والبيئية في الفروق الفردية . فمن الواضح أن اختلاف الألوان إنما يرجع إلى العوامل الوراثية ، وأن اختلاف الألسنة واللغات واللهجات بين الناس إنما يرجع إلى العوامل البيئية والاجتماعية والثقافية .

وتوجد فروق بين الناس في العلم والحكمة ، ويتضمن ذلك وجود فروق بينهم في القدرات العقلية والذكاء . يفهم ذلك من مضمون الآيات التي ذكرناها سابقاً ، كما يفهم ذلك صراحة من قوله تعالى :

«.. نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ »[1]

قال ابن كثير في تفسير ذلك : «قال الحسن البصري : ليس عالم إلا فوقه عالم حتى ينتهي إلى الله عز وجل . عن سعيد بن جبير قال : كنا عند ابن عباس فحدّث بحديث عجيب ، فتعجب رجل فقال : الحمد لله ، فوق كل ذي علم عليم ، فقال ابن عباس : بئس ما قلت ، الله العليم فوق كل عالم ، يكون هذا أعلم من هذا ، وهذا أعلم من هذا ، والله فوق كل عالم»[2] .

وبما أن الناس مختلفون في استعداداتهم وقدراتهم ، وفي ظروفهم الاجتماعية والثقافية وخبراتهم الشخصية فإننا ، لا شك ، نتوقع وجود اختلافات كثيرة في سلوكهم .

«قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ..»[3]

---

(١) يوسف : ٧٦ .

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ، جـ ٢ ، ص ٢٥٧ ، ٢٥٨ .

(٣) الإسراء : ٨٤ . أي كل يعمل على طبيعته أو طريقته . انظر تفسير ابن كثير ، وتفسير الجلالين .

واختلاف الناس في الاستعدادات والقدرات البدنية والعقلية يؤدي بطبيعة الحال إلى اختلاف قدرتهم على العمل والكسب ، وتحصيل العلم ، وتحري الحق والعدل ، وتختلف تبعاً لذلك واجباتهم ومسؤولياتهم .

« لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ .. »(١)

« وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ »(٢)

« .. لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا .. »(٣)

ومن الواضح أن إشارة القرآن إلى وجود الفروق الفردية ، وإلى أن الفرد لا يكلف إلا ما في وسعه وطاقته إنما هو الفكرة الأساسية فيما وصل إليه علم النفس الحديث من الاهتمام بقياس الفروق بين الأفراد في الاستعدادات والقدرات لتنظيم عملية التعليم بحيث يوجه كل فرد إلى نوع التعليم المناسب لاستعداداته وقدراته ، وهذا هو الهدف من عملية التوجيه التربوي في التربية الحديثة . ويستعين علماء النفس المحدثون أيضاً بقياس الفروق الفردية بهدف تحسين عملية التوجيه المهني والاختيار المهني بحيث يمكن وضع كل فرد في العمل المناسب لاستعداداته وقدراته .

ونجد في الحديث النبوي أيضاً إشارة إلى تأثير العوامل الوراثية وذلك في قوله عليه الصلاة والسلام : «تزوجوا في الحُجْز (٤) الصالح فإن العرق دساس» ، وفي قوله أيضاً عليه الصلاة والسلام : «تخيروا لنطفكم فإن النساء يلدن أشباه أخوالهن وأخواتهن »(٥) . ونجد في الحديث النبوي أيضاً إشارة إلى تأثير العوامل البيئية وذلك في قوله عليه الصلاة والسلام : «ما من مولود إلا وهو يولد على الفطرة فأبواه

(١) البقرة : ٢٨٦ .
(٢) المؤمنون : ٦٢ .
(٣) الطلاق : ٧ .
(٤) الحُجْز يعني المنبت الصالح .
(٥) ابراهيم دسوقي مرعي : الطفولة في الإسلام . القاهرة : دار الاعتصام ، ١٩٧٩ ، ص ٢٠ .

يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه »[1] .

نمو الإنسان في القرآن

يعنى علم النفس بدراسة المراحل المختلفة التي تمر بها عملية نمو الطفل ، والخصائص العامة التي تميز هذه المراحل ، والعوامل المختلفة التي تؤثر فيها ، مما يجعلنا أكثر فهماً لشخصية الطفل ، وأكثر قدرة على توجيهه وتربيته .

ولا يعنى ،علم النفس بدراسة مراحل نمو الطفل منذ ساعة ميلاده فقط ، وإنما يعنى أيضاً بدراسة مراحل نموه قبل الميلاد وهو لا يزال جنيناً في بطن أمه ، والعوامل المختلفة الوراثية والبيئية التي يمكن أن تؤثر في تكوين الجنين ونموه . وقد استعان علم النفس كثيراً في دراسته للنمو في مرحلة قبل الميلاد بنتائج البحوث في علم الأجنة .

النمو قبل الميلاد :

أشار القرآن الكريم في أسلوبه المعجز في إيجازه ودلالته إلى مراحل نمو الجنين منذ بداية الحمل حتى وقت الميلاد وذلك في الآيات التالية :

« وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ »[2]

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ

(١) المرجع السابق ، ص ٣٩ ، ٤٠ .
(٢) المؤمنون : ١٢ - ١٤ .

مَا نَشَآءُ[1] إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا..»[2]

«.. يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ..»[3]

يشير القرآن الكريم في هذه الآيات إلى مراحل نمو الجنين في الرحم منذ بداية الحمل حينما تقوم إحدى الخلايا المنوية للأب بتخصيب بويضة الأم الناضجة مكوّنة بذلك ما يسمى بالبذرة أو اللاقحة ، وهي ما عبر عنه القرآن « بالنطفة » . ثم تبدأ البويضة المخصبة في التكاثر بطريقة الانقسام ، ويزداد عدد خلاياها ، ولكنها لا تتغير تغيراً محسوساً في الحجم خلال الأسبوعين الأولين[4] ، وتكوّن في ذلك الوقت ما يشير إليه القرآن « بالعلقة »[5] .

ثم تنتقل البويضة المخصبة من المبيض متجهة إلى الرحم وتلتصق بجداره ، وتبدأ الأغشية الجنينية في التكوين ، ويمتد الحبل السري الذي يصل البويضة المخصبة بالأم لتلقي الغذاء من دم الأم . وهنا تصبح العلقة مضغة[6] . وتبدأ بعد ذلك أجهزة الجسم في التكوين أو التخلّق ، وهو ما يشير إليه القرآن بقوله : «.. من

---

(١) « ونقر في الأرحام ما نشاء » ، يعني نقر في الأرحام ما نشاء من الأجنة فيكتمل نموها فتولد حية . ومنها ما لا يكتمل نموه فيسقط .

(٢) الحج ٥ .

(٣) الزمر : ٦ .

(٤) اعتمدنا في وصف مراحل نمو الجنين على : فؤاد البهي السيد : الأسس النفسية للنمو ، ط ٤ . القاهرة : دار الفكر العربي ، ١٩٧٥ ، ص ٩٠ – ١٠٠ ؛ وحامد عبد العزيز الفقي : دراسات في سيكولوجية النمو : الكويت ، ١٩٧٧ ، ص ٤١ – ٦٨ .

(٥) يذهب المفسرون القدماء إلى أن العلقة هي الدم الجامد . غير أن البحوث الحديثة في علم الأجنة تبين أنه لا توجد في البويضة الملقحة حديثاً خلايا دموية . وعندما تنتقل البويضة الملقحة في المرحلة التي تسمى العلقة إلى الرحم في نهاية الأسبوع الثاني وتلتصق بجداره ، تبدأ الأغشية الجنينية في التكوين ، ويمتد منها الحبل السري الذي يصل البويضة بالأم ، وتبتدىء عملية التغذية من دم الأم ، يبدأ حينئذ فقط يدخل الدم في العلقة حول اليوم الثامن عشر تقريباً . انظر : فؤاد البهي السيد : مرجع سابق ، ص ٩١ ؛ ومحمد اسماعيل ابراهيم : مرجع سابق ، ص ١٠٧ .

(٦) في تفسير القرطبي : المضغة هي لحمة قليلة قدر ما يمضغ . وفي المعجم الوسيط : المضغة القطعة التي تمضغ من لحم وغيره .

مضغة مخلقة وغير مخلقة »[١] . وتمتد هذه الفترة من حياة الجنين من نهاية الأسبوع الثاني إلى نهاية الشهر الثاني حيث تبدأ المرحلة التي يطلق عليها علماء الأجنة مرحلة الجنين[٢] ، تمييزاً لها عن المرحلة السابقة وهي مرحلة المضغة[٣] . ومرحلة الجنين مرحلة نمو سريع ، يزداد فيه حجم الجنين بسرعة ، وتتغير نسب أعضائه حتى يصل الجنين إلى تمام نموه في نهاية الحمل[٤] . وفي بداية مرحلة الجنين تبدأ الخلايا العظمية في التكوين ، وتحل محل الخلايا الغضروفية التي كانت موجودة من قبل في المرحلة السابقة من النمو .

ويحاط الجنين وهو في الرحم بغشاء ، يسمى «الكيس الأمنيوني»[٥] ، مملوء بسائل ملحي يقوم بعدة وظائف هامة للجنين من بينها وقايته من الهزات العنيفة ومن تأثيرات الجاذبية[٦] . وقد أشار القرآن إلى ذلك في الآيات التي ذكرناها سابقاً من سورة «المؤمنون» بقوله : «ثم جعلناه نطفة في قرار مكين» ، وفي قوله أيضاً في سورة المرسلات :

« أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ »[٧]

ويذهب المفسرون إلى أن الظلمات الثلاث التي جاء ذكرها في القرآن في سورة الزمر التي ذكرناها سابقاً ، إنما تشير إلى ظلمة البطن ، وظلمة الرحم ، وظلمة

(١) في تفسير القرطبي : « قال الفراء : « مخلقة » تامة الخلق ، « وغير مخلقة » السقط . وقال ابن الاعرابي : « مخلقة » قد بدأ خلقها ، « وغير مخلقة » لم تصور بعد . (وقال) ابن زيد : « المخلقة » التي خلق الله فيها الرأس واليدين والرجلين ، « وغير مخلقة » التي لم يخلق فيها شيء ... (وقال) ابن عباس : « المخلقة » ما كان حياً ، « وغير المخلقة » السقط ... » . تفسير القرطبي ، جـ ١١ ، ص ٦ – ١٣ .

(٢) Fetus stage

(٣) Embryonic stage

(٤) فؤاد البهي السيد : مرجع سابق ، ص ٩١ – ٩٣ .

(٥) The amnion

(٦) حامد عبد العزيز الفقي : مرجع سابق ، ص ٥١ .

(٧) المرسلات : ٢١ – ٢٣ .

المشيمة[1] . وفي أحد التفسيرات الحديثة أنها تشير إلى : المبيض ، وقناة فالوب ، والرحم[2] .

النمو بعد الميلاد :

يولد الطفل ضعيفاً في حاجة إلى من يرعاه ويعنى به حتى ينمو ويكبر . ويستمر نمو الوليد بسرعة كبيرة في الأيام الأولى من حياته ، ولكن تأخذ سرعة النمو تبطؤ تدريجياً مع تقدم العمر ، وتبدو الحياة هادئة مستقرة قبل فترة المراهقة . وما أن تبدأ مرحلة المراهقة حتى تتوالى على الطفل تغيرات قوية وسريعة عضوية وتشريحية ونفسية . ثم تهدأ سرعة هذه التغيرات في نهاية مرحلة المراهقة وبداية مرحلة الرشد التي تكتمل فيها عملية النمو ، وتعود الحياة مرة أخرى إلى الهدوء والاستقرار . ومع أن الراشد يكون قد بلغ تمام النضج في نموه الجسمي ، ونمو قدراته العقلية إلا أنه يستمر في تعلم خبرات جديدة ، وفي اكتساب المعرفة والخبرة والحكمة حتى يصل إلى مرحلة الشيخوخة ، فتأخذ قوته الجسمية في الاضمحلال ، وتبدأ قدراته العقلية في الضعف .

وقد أشار القرآن إلى مراحل النمو التي يمر بها الإنسان بعد الميلاد من الطفولة إلى الشيخوخة بقوله :

« هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ »[3]

« ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ »[4]

(١) تفسير القرطبي : حـ ١٥ ، ص ٢٣٥ ، ٢٣٦ .
(٢) محمد اسماعيل ابراهيم : مرجع سابق ، ص ١٠٥ .
(٣) غافر : ٦٧ .
(٤) الروم : ٥٤ .

ويظهر على بعض الشيوخ في حوالى سن السبعين نوع من الاضطراب السلوكي والعقلي يتميز بضعف الذاكرة ، وعدم القدرة على التركيز الذهني ، والخلط بين الماضي والحاضر ، والحقيقة والخيال ، والعجز عن إصدار الأحكام العقلية ، كما يفقدون السيطرة على انفعالاتهم واندفاعاتهم فيبدو سلوكهم في الأغلب طفلياً . ويطلق على هذه الحالة من الاضطراب السلوكي والعقلي « ذهان الشيخوخة » . قد بينت الدراسات الحديثة أنه يحدث عادة في هذا السن المتأخر من عمر الإنسان نوع من التدهور في أنسجة الدماغ . ومما يساعد على سرعة حدوث هذا التدهور تصلب الشرايين الذي يسبب قلة الأكسوجين الذي يصل إلى الأنسجة العصبية بالدماغ مما يقلل من قدرة الدماغ على أداء وظائفه .

وتوجد فروق فردية بين الناس في مدى تأثرهم بضعف الشيخوخة ، وظهور أعراض ذهان الشيخوخة عليهم . فمن الشيوخ من يظل محتفظاً بقدر كبير من قدرته العقلية ، ومنهم من تضعف قدرته العقلية كثيراً ، وتظهر عليه أعراض ذهان الشيخوخة . «ويبدو أن بعض العوامل الوراثية ، والعوامل المتعلقة بحالة الأوعية الدموية ، وحالة الغدد الصماء مما يساهم في حدوث ذهان الشيخوخة . وقد بينت بعض الدراسات أن بعض المسنين يعانون من تلف خطير في الدماغ دون أن يفقدوا قدرتهم على التفكير المنطقي السليم مما دفع بعض علماء النفس إلى القول بأن الشيخوخة ، فيما يبدو ، تعتمد على قدرة الفرد على تقبل فقدان كفايته العقلية ، وعلى مهارته في التكيف لمواقف الضغط . فالشخص الذي يتقبل أعراض الشيخوخة يكون أحسن قدرة على التكيف للتغيرات التي تحدث في الشيخوخة وعلى مواجهتها . والشخص الذي يثيره ضعف كفايته العقلية وعدم قدرته على التذكر يصبح شخصاً مبلبلاً وغير متزن »[1] .

وقد أشار القرآن إلى حالة الاضطراب السلوكي والعقلي الذي ينتاب بعض الأفراد في مرحلة الشيخوخة في الآية التي سبق أن ذكرناها من سورة الحج :

«.. ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ

(١) محمد عثمان نجاتي : علم النفس في حياتنا اليومية ، مرجع سابق ، ص ٥١٧ .

إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ..»[1]

فبعد أن أشار القرآن في هذه الآية إلى مراحل النمو قبل الميلاد من نطفة إلى علقة إلى مضغة قام بذكر مراحل النمو بعد الميلاد من الطفولة إلى الرشد حيث يكتمل النمو ويبلغ الإنسان أشده وكمال نضجه ، ثم إلى الشيخوخة حيث يبدأ الإنسان في الضعف جسمياً وعقلياً . وأشار القرآن أيضاً في هذه الآية إلى ما ينتاب بعض الناس في مرحلة الشيخوخة من اضمحلال قدراتهم العقلية ، وما يظهر عليهم من أعراض ذهان الشيخوخة .

وقد أشار القرآن أيضاً في مواضع أخرى إلى هذه الحالة من الاضطراب السلوكي والعقلي التي تنتاب بعض الشيوخ .

« وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ »[2]

« لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ »[3]

« وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ »[4]

(١) الحج : ٥ . « أرذل العمر » هو الهرم والشيخوخة وما يصاحبها من نقص القوة الجسمية والعقلية . و« لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً » أي اضمحلال القدرة العقلية والرجوع إلى حالة الطفولة ، فلا يعلم ما كان يعلم من قبل من الأمور . انظر تفسير القرطبي ، جـ ٩ ، ص ١٤٠ ، ١٤١ ، وجـ ١١ ، ص ٦ - ١٣ .

(٢) النحل : ٧٠ .

(٣) التين : ٤ - ٦ . في تفسير الجلالين (ص ٥١٤) : « (ثم رددناه) في بعض أفراده (أسفل سافلين) كناية عن الهرم والضعف فينقص عمل المؤمنين عن زمن الشباب ويكون له أجره لقوله تعالى (إلا) أي لكن (الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون) مقطوع . وفي الحديث : (إذا بلغ المؤمن من الكبر ما يعجزه عن العمل كتب له ما كان يعمل) . » .

(٤) يس : ٦٨ .

النمو الحسي للوليد :

بينت الدراسات الفسيولوجية الحديثة أن حساسية شبكية العين للضوء تكون ضعيفة عند الميلاد ، وهي تنمو حتى تصل إلى كمال نضجها الوظيفي تقريباً في نهاية العام الأول من عمر الطفل . ولا يستجيب الوليد عقب ولادته مباشرة للأضواء الشديدة ، ولكنه يبدأ منذ اليوم الثاني يتعلم تدريجياً أن يستجيب للأضواء المختلفة بغمض العينين أو بإلقاء رأسه إلى الوراء في حركة آلية لتجنب الأضواء الشديدة . وبسبب نقص التكوين الشبكي لدى الوليد فإن صور الأشياء لا تبدو له واضحة حتى الشهر السادس من عمره حينما يتم نمو التكوين الشبكي في عينيه [١] . وتتحرك عينا الوليد في أول الأمر في تتبعهما للأشياء الساكنة أو المتحركة حركات غير متناسقة . فقد تنظر عينه اليمنى إلى شيء ما ، بينما تنظر عينه اليسرى إلى شيء آخر مما يبدو للناظرين أن بعيني الوليد حولاً . ثم تزداد بالتدريج قدرة الطفل على تحريك عينيه حركات متناسقة ، فتتحرك عيناه معاً في اتجاه واحد عند تحديقه في شيء ما [٢] .

وبينما لا يستطيع الوليد أن يرى الأشياء بوضوح إلا في النصف الثاني من العام الأول من عمره ، فإننا نلاحظ أنه يستجيب للأصوات الحادة العالية ، وإن كان لا يستجيب للأصوات الخافتة الضعيفة . ويمر أيضاً الإدراك السمعي للوليد بمراحل نمو ، فيأخذ بالتدريج يميز بين الدرجات المختلفة للأصوات المتباينة ، ثم تأخذ قدرته على التمييز السمعي تتطور تطوراً سريعاً ابتداء من السنة الثالثة بعد الميلاد حتى تصل إلى كمال نضجها بعد سن الثالثة عشر بقليل [٣] .

وعلى ضوء هذه المعلومات التي توصلنا إليها من الدراسات الفسيولوجية الحديثة التي بينت أن الوليد لا يستطيع أن يرى الأشياء بوضوح في المرحلة المبكرة من عمره ، بينما يستطيع سماع الأصوات الشديدة ، نستطيع أن نفهم الحكمة في مجيء كلمة «السمع» قبل كلمة «الأبصار» في قوله تعالى :

---

(١) فؤاد البهي السيد : مرجع سابق ، ص ١٢٢ .

(٢) المرجع السابق : ص ١٢١ – ١٢٣ .

(٣) المرجع السابق : ص ١٢٤ .

« وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ »[1]

ولعلنا نستطيع أيضاً أن نفهم من نتائج الدراسات الفسيولوجية التي أشرنا إليها سابقاً ، والمتعلقة بعدم تناسق حركتي العينين عند الوليد عند النظر إلى الأشياء ، تفسيراً لإشارة القرآن إلى حاسة السمع بصيغة المفرد ، بينما أشار إلى حاسة البصر بصيغة الجمع . وفضلاً عن ذلك ، فإن ذكر «الأبصار» في صيغة الجمع ، بينما يذكر «السمع» في صيغة المفرد إنما يشير إلى عدة حقائق أخرى قد سبق أن أشرنا إليها أثناء كلامنا عن «الحواس في القرآن» في الفصل الخاص «بالإدراك الحسي في القرآن» .

ويلاحظ أيضاً أن ذكر الأفئدة في الآية السابقة قد جاء بعد ذكر حاستي السمع والبصر ، ولعل ذلك لأن قدرة الطفل على الإدراك العقلي والتمييز تبدأ في الظهور في مرحلة تالية من النمو بعد أن تكون حاستا السمع والبصر وكذلك الحواس الأخرى قد بدأت في النمو من قبل .

---

(١) النحل : ٧٨ .

العِلاجُ النَفْسِي في القُرآن

نزل القرآن الكريم أساساً لهداية الناس ، ولدعوتهم إلى عقيدة التوحيد ، ولتعليمهم قيماً جديدة وأساليب جديدة من التفكير والحياة ، ولإرشادهم إلى السلوك السوي السليم الذي فيه صلاح الإنسان وخير المجتمع ، ولتوجيههم إلى الطرق الصحيحة لتربية النفس وتنشئتها تنشئة سليمة تؤدي بها إلى بلوغ الكمال الإنساني الذي تتحقق به سعادة الإنسان في الحياة الدنيا وفي الحياة الآخرة .

« إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا »(١)

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ »(٢)

« وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا »(٣)

« .. قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ .. »(٤)

« هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ »(٥)

---

(١) الإسراء : ٩ .
(٢) يونس : ٥٧ .
(٣) الإسراء : ٨٢ .
(٤) فصلت : ٤٤ .
(٥) الجاثية : ٢٠ .

ولقد كان للقرآن الكريم أثر عظيم الشأن في نفوس العرب ، فقد غيّر شخصياتهم تغييراً تاماً ، وغيّر أخلاقهم وسلوكهم وأسلوب حياتهم ، وكوّن منهم أفراداً ذوي مبادئ ومثل وقيم إنسانية نبيلة ، وكوّن منهم مجتمعاً متحداً منظماً متعاوناً ، فاستطاعوا أن يهزموا الروم والفرس أكبر دولتين في العالم في ذلك الوقت ، وانتشروا في معظم بلاد العالم ، وقاموا بنشر دعوة الإسلام فيها . إن هذا التغيير العظيم الذي أحدثه القرآن في نفوس العرب وفي نفوس جميع المؤمنين به من مختلف شعوب العالم لم يعرف التاريخ نظيراً له بين جميع الدعوات العقائدية التي ظهرت عبر عصور التاريخ المختلفة .

ولا شك أن في القرآن طاقة روحية هائلة ذات تأثير بالغ الشأن في نفس الإنسان . فهو يهز وجدانه ، ويرهف أحاسيسه ومشاعره ، ويصقل روحه ، ويوقظ إدراكه وتفكيره ، ويجلي بصيرته ، فإذا بالإنسان بعد أن يتعرض لتأثير القرآن يصبح إنساناً جديداً ، كأنه خلق خلقاً جديداً .

إن كل من يقرأ تاريخ الإسلام ، ويتتبع مراحل الدعوة الإسلامية منذ أيامها الأولى ، ويرى كيف كانت تتغير شخصيات الأفراد الذين كانوا يتعلمون الإسلام في مدرسة الرسول عليه صلوات الله وسلامه ، يستطيع أن يدرك إدراكاً واضحاً مدى التأثير العظيم الذي أحدثه القرآن ودعوة الإسلام في نفوسهم .

وبالرغم من الجهود الكثيرة التي تبذلها المجتمعات الحديثة في ميادين التربية والتعليم لتوجيه النشئ وتعليمهم وإرشادهم لكي يكونوا مواطنين صالحين ، إلا أن هذه الجهود لم تثمر الثمرة المرجوة في تكوين المواطنين الصالحين . فالجرائم والانحرافات المنتشرة في جميع المجتمعات لدليل واضح على فشل أساليب التربية الحديثة وعجزها عن تكوين المواطنين الصالحين .

وقد بذلت أخيراً جهود كثيرة في ميدان العلاج النفسي للأفراد الذين يعانون من اضطرابات الشخصية والأمراض النفسية ، وظهرت في هذا الميدان أساليب مختلفة للعلاج النفسي ، غير أنها جميعاً لم تحقق النجاح المرجو في القضاء على الأمراض النفسية أو الوقاية منها . فقد بينت بعض الدراسات أن معدلات الشفاء

بين المرضى النفسيين الذين يعالجون بطريقة التحليل النفسي تتراوح بين ٦٠ ٪ و٦٤ ٪ ، وهي معدلات غير مُرضية إذا أخذنا في اعتبارنا أن معدلات المرضى النفسيين الذين يتخلصون من أعراضهم من غير أن يتلقوا أي علاج نفسي تتراوح بين ٤٤ ٪ و٦٦ ٪ . أضف إلى ذلك أن بعض المرضى كانت تسوء حالتهم بعد العلاج النفسي . وفي دراسة أخرى تبين أن المرضى النفسيين من المجموعة الضابطة التي لم يتلق أفرادها أي علاج نفسي قد أظهروا تحسناً مساوياً للتحسن الذي أظهره المرضى الذين عولجوا نفسياً . كما بينت الدراسة أيضاً أن بعض هؤلاء المرضى الذين عولجوا قد زادت حالتهم سوءاً[١] . وتبين مثل هذه الدراسات أن معدلات الشفاء نتيجة العلاج النفسي لم تصل بعد حتى الآن إلى درجة تبعث على الرضا .

وفضلاً عن ذلك ، فإنه ليس من المهم أن نقوم فقط بعلاج الأمراض النفسية بعد حدوثها ، ولكن لا شك أنه يكون من الأهم والأفضل أن نعمل على الوقاية منها ، ونحاول منع حدوثها ، أو على الأقل نحاول أن نقلل من حدوثها على قدر الإمكان . وقد بدأ أخيراً بعض الباحثين في الاهتمام بموضوع الوقاية من السلوك المنحرف ، وقاموا بمحاولات للتدخل في الأزمات التي تنشأ في العلاقات الإنسانية في بعض البيئات المختلفة بهدف إيجاد حلول لهذه الأزمات تحول دون ظهور أعراض السلوك المنحرف . غير أن هذه المحاولات لا تزال محدودة في مجالات ضيقة جداً كتدخل رجال الشرطة في الأزمات العائلية التي تقع في بعض الأحياء في بعض المدن الكبيرة بالمجتمع الأمريكي[٢] . ولا زال موضوع الوقاية من السلوك المنحرف يمثل تحدياً كبيراً لعلماء النفس وعلماء الاجتماع ، ولا تزال جهودهم في هذا المجال ضئيلة جداً .

ثم إن الاختلافات الكثيرة الموجودة الآن بين المدارس المختلفة للعلاج النفسي في نظرتها إلى طبيعة الدوافع الأساسية المحركة للسلوك ، وإلى طبيعة التهديدات المثيرة للقلق ، والمسببة لنشوء أعراض الأمراض النفسية والعقلية ، يجعل من الصعب

---

(١) ريتشارد م . شوين : مرجع سابق ، ص ٨٦٤ .

(٢) شيلدون كاشدان : علم نفس الشواذ ، ط ٢ ، ترجمة أحمد عبد العزيز سلامة ، ومراجعة محمد عثمان نجاتي . بيروت : دار الشروق ، ١٩٨٤ ، ص ٢٢١ – ٢٢٦ .

الوصول إلى اتفاق عام بين هذه المدارس المختلفة حول نظرية متكاملة في الشخصية وتوافقها ، وفي العوامل المسببة لسوء التوافق ، وفي أساليب العلاج النفسي . فكل مدرسة من هذه المدارس تنظر إلى الإنسان من زاوية معينة محددة ، ولم تستطع أن تنظر إليه نظرة كلية شاملة ، الأمر الذي جعلها عاجزة عن فهم الإنسان فهماً سليماً ودقيقاً . ولكن يبدو أن هناك اتجاهاً جديداً بدأ يظهر أخيراً بين علماء النفس والمعالجين النفسيين يدعو إلى اهتمام أكبر بتأثير العوامل الاجتماعية والثقافية في الشخصية ، وبطبيعة الإنسان الاجتماعية وحاجته إلى الانتماء ، مما جعلهم يميلون إلى التأكيد على أهمية العلاقات الإنسانية في توافق الشخصية وفي سوء توافقها . ويقول شيلدون كاشدان Sheldon Cashdan في هذا الصدد : إن « نموذج المستقبل قد يزداد تأكيده على ما يربط بين الناس من اعتماد بعضهم على بعض . ولذلك نقول إن بعض المفاهيم من قبيل العلاقة الوثيقة ، والتبادل ، والالتزام قد تحل في آخر الأمر محل مفاهيم من قبيل الأنا الأعلى ، والتثبيت ، والعصاب ، والذهان . بل إن نموذج المستقبل قد يتضمن كذلك مفهوماً جديداً ، ذلكم هو مفهوم الحب »(١) . ويبدو أن هذا الاتجاه سوف يؤدي بعلماء النفس والمعالجين النفسيين في آخر الأمر إلى تبني وجهة نظر الدين ، أو على الأقل ، وجهة نظر قريبة من وجهة نظر الدين في طبيعة الإنسان ، وأسباب انحرافه ، وأساليب علاجه .

وقد بدأت كذلك تظهر حديثاً اتجاهات بين بعض علماء النفس تنادي بأهمية الدين في الصحة النفسية وفي علاج الأمراض النفسية ، وترى أن في الإيمان بالله قوة خارقة تمدّ الإنسان المتدين بطاقة روحية تعينه على تحمل مشاق الحياة ، وتجنبه القلق الذي يتعرض له كثير من الناس الذين يعيشون في هذا العصر الحديث الذي يسيطر عليه الاهتمام الكبير بالحياة المادية ، ويسوده التنافس الشديد من أجل الكسب المادي ، والذي يفتقر في الوقت نفسه إلى الغذاء الروحي ، مما سبب كثيراً من الضغط والتوتر لدى الإنسان المعاصر ، وجعله نهباً للقلق ؛ وعرضة للإصابة

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٦٦ .

بالأمراض النفسية . ومن بين من نادى بذلك من علماء النفس المحدثين وليم جيمس William James الفيلسوف وعالم النفس الأمريكي ، فقد قال : «إن أعظم علاج للقلق ، ولا شك ، هو الإيمان» . وقال أيضاً : «الإيمان من القوى التي لا بد من توافرها لمعاونة المرء على العيش ، وفقده نذير بالعجز عن معاناة الحياة» . وقال أيضاً : «إن بيننا وبين الله رابطة لا تنفصم ، فإذا نحن أخضعنا أنفسنا لإشرافه – تعالى – تحققت كل أمنياتنا وآمالنا» . وقال أيضاً : «إن أمواج المحيط المصطخبة المتقلبة لا تعكر قط هدوء القاع العميق ولا تقلق أمنه ، وكذلك المرء الذي عمق إيمانه بالله ، خليق بألا تعكر طمأنينته التقلبات السطحية المؤقتة . فالرجل المتدين حقاً عصيٌّ على القلق ، محتفظ أبداً باتزانه ، مستعد دائماً لمواجهة ما عسى أن تأتي به الأيام من صروف»[1] . وقال كارل يونج Carl G. Jung المحلل النفسي : «استشارني في خلال الأعوام الثلاثين الماضية أشخاص من مختلف شعوب العالم المتحضرة ، وعالجت مئات كثيرة من المرضى .... فلم أجد مريضاً واحداً من مرضاي الذين كانوا في المنتصف الثاني من عمرهم – أي جاوزوا سن الخامسة والثلاثين – من لم تكن مشكلته في أساسها هي افتقاره إلى وجهة نظر دينية في الحياة . وأستطيع أن أقول إن كل واحد منهم قد وقع فريسة المرض لأنه فقد ذلك الشيء الذي تمنحه الأديان القائمة في كل عصر لأتباعها ، وأنه لم يتم شفاء أحد منهم حقيقة إلا بعد أن استعاد نظرته الدينية في الحياة»[2] . ويقول أ . أ . بريل A. A. Brill المحلل النفسي : «إن المرء المتدين حقاً لا يعاني قط مرضاً نفسياً»[3] . وذكر هنري لينك Henry Link العالم النفسي الأمريكي في كتابه «العودة إلى الإيمان» أنه وجد نتيجة خبرته الطويلة في تطبيق الاختبارات النفسية على العمال في عملية الاختيار المهني والتوجيه المهني أن الأشخاص المتدينين والذين يترددون على دور

---

(١) ديل كارينجي : دع القلق وابدأ الحياة ، ترجمة عبد المنعم الزيادي ، ط ٥ القاهرة : مكتبة الخانجي ، ١٩٥٦ ، ص ٢٨٢ ، ٢٩٢ ، ٢٩٨ ، ٣٠١ .

(٢) Carl. G. Jung: *Modern Man In Search of A Soul.* London: Routledge & Kegan Paul, Ltd., 1966, p. 264.

(٣) ديل كارينجي : مرجع سابق ، ص ٢٨٦ .

العبادة يتمتعون بشخصية أقوى وأفضل ممن لا دين لهم أو لا يقومون بـأيـة عبادة [1] .

وفضلاً عن علماء النفس والمحللين النفسيين فقد أشار كثير من المفكرين الغربيين في العصر الحديث إلى أن أزمة الإنسان المعاصر إنما ترجع أساساً إلى افتقار الإنسان إلى الدين والقيم الروحية . فقد أشار المؤرخ أرنولد توينبيA. Toynbee إلى أن الأزمة التي يعاني منها الأوروبيون في العصر الحديث إنما ترجع في أساسها إلى الفقر الروحي ، وأن العلاج الوحيد لهذا التمزق الذي يعانون منه هو الرجوع إلى الدين [2] .

إن للإيمان تأثيراً عظيماً في نفس الإنسان ، فهو يزيد من ثقته بنفسه ، ويزيد قدرته على الصبر وتحمل مشاق الحياة ، ويبث الأمن والطمأنينة في النفس ، ويبعث على راحة البال ، ويغمر الإنسان بالشعور بالسعادة . كيف يفعل الإيمان ذلك بالإنسان ؟

الإيمان والشعور بالأمن :

تتفق جميع مدارس العلاج النفسي على أن القلق هو السبب الرئيسي في نشوء أعراض الأمراض النفسية ، ولكنها تختلف فيما بينها في تحديد العوامل التي تسبب القلق . وتتفق هذه المدارس أيضاً على أن الهدف الرئيسي للعلاج النفسي هو التخلص من القلق ، وبث الشعور بالأمن في نفس الإنسان ، ولكنها تتبع لتحقيق هذا الهدف أساليب علاجية مختلفة . وهذه الأساليب العلاجية المختلفة لا تنجح دائماً في تحقيق الشفاء التام من الأمراض النفسية ، كما أشرنا إلى ذلك من قبل .

وتمدنا دراستنا لتاريخ الأديان ، وبخاصة تاريخ الدين الإسلامي ، بأدلة على نجاح الإيمان بالله في شفاء النفس من أمراضها ، وتحقيق الشعور بالأمن والطمأنينة ،

---

(١) يوسف القرضاوي : الإيمان والحياة ، ط ٦ . القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٩٧٨ ، ص ٣٤٢ .

(٢) أنور الجندي : مفاهيم العلوم الاجتماعية والنفس والأخلاق في ضوء الإسلام ، القاهرة : دار الاعتصام ، ١٩٧٧ ، ص ١٩٥ .

والوقاية من الشعور بالقلق وما قد ينشأ عنه من أمراض نفسية . ومما يجدر ملاحظته أن العلاج يتدخل عادة بعد حدوث الإصابة بالمرض النفسي ، أما الإيمان بالله إذا ما بث في نفس الإنسان منذ الصغر ، فإنه يكسبه مناعة ووقاية من الإصابة بالأمراض النفسية . وقد وصف القرآن ما يحدثه الإيمان من أمن وطمأنينة في نفس المؤمن بقوله :

« ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ »(١)

« ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ »(٢)

« مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ »(٣)

وتتحقق للمؤمن سكينة النفس وأمنها وطمأنينتها لأن إيمانه الصادق بالله يمده بالأمل والرجاء في عون الله ورعايته وحمايته . إن المؤمن دائم التوجه إلى الله تعالى في عبادته وفي كل ما يقوم به من أعمال ابتغاء مرضاته سبحانه وتعالى ، ولذلك فهو يشعر أن الله تعالى معه دائماً ، وهو في عونه دائماً . وإن شعور المؤمن بأن الله تعالى في عونه كفيل بأن يبث في نفسه الشعور بالأمن والطمأنينة(٤) .

إن المؤمن بالله إيماناً صادقاً لا يخاف من شيء في هذه الحياة الدنيا ، فهو يعلم

---

(١) الأنعام : ٨٢ . أي « الذين آمنوا بالله ، ولم يخلطوا إيمانهم هذا بعبادة أحد سواه ، هؤلاء وحدهم هم الأحق بالطمأنينة ، وهم وحدهم المهتدون إلى طريق الحق والخير » . المنتخب في تفسير القرآن الكريم ، ص ١٨٥ .

(٢) الرعد : ٢٨ .

(٣) التغابن : ١١ . « (ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شيء عليم) أي ومن أصابته مصيبة فعلم أنها بقضاء الله وقدره ، فصبر واحتسب عوضه عما فاته من الدنيا هدى في قلبه ويقيناً صادقاً . قال ابن عباس : يعني يهد قلبه لليقين ، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم .. » . مختصر تفسير ابن كثير ، جـ ٣ ، ص ٥١٠ .

(٤) يوسف القرضاوي : مرجع سابق ، ص ١١٣ – ١١٥ .

أنه لا يمكن أن يصيبه شر أو أذى إلا بمشيئة الله تعالى ، ولا يمكن لأي إنسان أو لأية قوة أخرى في هذه الحياة أن تلحق به ضرراً أو تمنع عنه خيراً إلا بمشيئة الله تعالى . ولذلك فالمؤمن الصادق الإيمان إنسان لا يمكن أن يتملكه الخوف أو القلق .

« بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ »(١)

« إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ »(٢)

« إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ »(٣)

والمؤمن الصادق الإيمان يعلم أيضاً أن رزقه بيد الله ، وأنه سبحانه وتعالى قد قسم الأرزاق بين الناس وقدرها ، ولذلك فهو لا يخاف الفقر . وإذا قدر الله تعالى له أن يكون قليل الرزق ، فهو راض بما قدره الله له ، قنوع بالقليل الذي لديه ، كثير الحمد والثناء لله تعالى على نعمه الأخرى الكثيرة عليه ، نعمة الحياة ، ونعمة الإيمان ، ونعمة الصحة وراحة البال . إن المؤمن الصادق الإيمان لا يعرف الخوف حول الرزق ، لأن الله جل شأنه هو الرزاق ذو القوة المتين .

« إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ »(٤)

---

(١) البقرة : ١١٢ .
(٢) فصلت : ٣٠ ، ٣١ .
(٣) الأحقاف : ١٣ .
(٤) الذاريات : ٥٨ .

« وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ »[1]

« وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ..»[2]

« وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ »[3]

« ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ .. »[4]

والمؤمن الصادق الإيمان لا يخاف الموت . إنه ينظر إلى الموت نظرة واقعية ، فهو يعلم أنه حقيقة لا مفر منها ، وأن لكل إنسان أجلاً محدداً ، فإذا جاء أجله فلن يستطيع أن يؤخره .

« كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ..»[5]

« أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ..»[6]

« إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ »[7]

« وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ »[8]

« وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ..»[9]

---

(١) الذاريات : ٢٢ .
(٢) هود : ٦ .
(٣) العنكبوت : ٦٠ .
(٤) الرعد : ٢٦ .
(٥) آل عمران : ١٨٥ .
(٦) النساء : ٧٨ .
(٧) الزمر : ٣٠ .
(٨) الاعراف : ٣٤ .
(٩) المنافقون : ١١ .

«.. وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ..»[1]

«قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا»[2]

«قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ»[3]

إن المؤمن الصادق الإيمان يعلم أنه ليس في هذه الحياة الدنيا إلا كعابر سبيل ، سرعان ما ينتقل إلى الحياة الآخرة الباقية . ولذلك فهو يعمل في حياته الدنيا على هذا الأساس ، معداً نفسه للحياة الآخرة بالإيمان بالله وعبادته والعمل الصالح . إن المؤمن الصادق الإيمان لا يخاف الموت كما يخافه معظم الناس ، إذ أنه يعلم أن الموت سينقله إلى جوار الله سبحانه وتعالى حيث ينعم برضوانه ، ويسعد بلقاء النبيين والصديقين ، ويحظى بما وعد الله تعالى المؤمنين من نعيم الجنة .

والمؤمن الصادق الإيمان لا يخاف من مصائب الدهر ، وغوائل الأيام . إنه لا يخاف أن تصيبه الأمراض ، أو تقع له الحوادث ، أو تحل به الكوارث . فهو يؤمن بالقضاء والقدر ، ويعلم حق العلم أن ما يحل بالناس من سراء أو ضراء إنما هو ابتلاء من الله تعالى ليعلم من سيحمده على ما يناله من سراء ، ومن سيصبر على ما يناله من ضراء . ولذلك فهو لا يجزع إذا أصابه شر ، بل يتحمل ويصبر ويحمد الله تعالى ، ويدعوه أن يرفع عنه الشر والبلاء .

---

(١) فاطر : ١١ .
(٢) الأحزاب : ١٦ .
(٣) الجمعة : ٨ .

«.. وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ» (١)

والمؤمن الصادق الإيمان لا يجتر أحزانه ، ولا يعيش مهموماً بذكريات الماضي ، ولا يتحسر على ما فاته ، ولذلك فهو لا يشعر بالهم الذي يثقل كاهل كثير من الناس الذين يعيشون في أحزان الماضي وآلامه (٢) ، كما أنه إذا نال خيراً لا يبطر ولا يستكبر ولا يطغى ، بل يحمد الله تعالى على ما أنعم عليه من خير .

«مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ» (٣)

«يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ» (٤)

والمؤمن الصادق الإيمان لا يشعر بالقلق الناشئ عن الإحساس اللاشعوري بالذنب ، وهو ما يعاني منه كثير من المرضى النفسيين . ويرجع ذلك لعدة أسباب . فأولاً ، إن المؤمن الذي تربى منذ طفولته على التربية الإسلامية الصحيحة لا يتعرض بسهولة للإغراءات التي تدفعه إلى ارتكاب الذنوب والمعاصي التي تؤرق ضميره ، وتشعره بالدونية وحقارة النفس ، وتجعله فريسة للشعور بالذنب وتأنيب الضمير . وثانياً ، إن المؤمن إذا أخطأ ، وهو أمر لا مفر منه ، إذ أن كل إنسان معرض للخطأ ، فإنه لا يلبث أن يتذكر خطأه ويعترف به ، ويستغفر الله تعالى على ما ارتكب من خطأ ، ويتوب إليه . وهو يعلم أن الله سبحانه وتعالى يقبل التوبة ، ويغفر الذنوب .

---

(١) الأنبياء : ٣٥ .
(٢) يوسف القرضاوي : مرجع سابق ، ص ١١٩ – ١٢١ .
(٣) الحديد : ٢٢ ، ٢٣ .
(٤) آل عمران : ١٥٦ .

﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[1]

﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾[2]

﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[3]

إن اعتراف المؤمن بذنبه ، واستغفاره لله سبحانه وتعالى ، وتوبته إليه تحول دون محاولة إقصاء فكرة الذنب عن ذهنه تخلصاً مما تسببه له من ألم نفسي . وإن محاولة إقصاء فكرة الذنب عن الذهن تؤدي في النهاية إلى الكبت اللاشعوري لفكرة الذنب . غير أن كبت فكرة الذنب لا يقضي على الطاقة الانفعالية التي كانت مصاحبة لها ، وهي الشعور بالدونية ، فتظهر هذه الطاقة الانفعالية في صورة قلق غامض مبهم يزعج الإنسان ويسبب له كثيراً من التوتر النفسي ، فيحاول أن يخفف من حدته بالالتجاء إلى أعراض الأمراض النفسية . وإن كثيراً من مجهود المعالج النفسي في مثل هذه الحالات يتجه إلى البحث عن هذه الخبرات المؤلمة القديمة المكبوتة في اللاشعور ، ودفع المريض إلى تذكرها ومواجهتها من جديد ، وإصدار نوع من الحكم العقلي فيها بدلاً من إنكارها والتهرب من مواجهتها عن طريق الكبت . ولهذا كان تذكر المؤمن لذنوبه ، واعترافه بها ، واستغفاره الله سبحانه وتعالى عن ارتكابه لها ، وتوبته إليه إنما يعمل على وقايته من الكبت اللاشعوري للإحساس بالذنب ، وهو ما يسبب القلق ونشوء أعراض الأمراض النفسية .

يتبين لنا مما سبق أن المؤمن الصادق الإيمان لا يخاف من الأشياء التي يخاف منها معظم الناس عادة وهي : الموت ، والفقر ، والمرض . كما أنه لا يخاف الناس ، ولا مصائب الدهر . وهو ذو قدرة كبيرة على تحمل المصائب ، لأنه يرى فيها

---

(١) النساء : ١١٠ .

(٢) طه : ٨٢ .

(٣) الزمر : ٥٣ .

ابتلاء من الله تعالى يجب أن يصبر عليه . وهو لا يكبت شعوره بالذنب ، بل يعترف بذنوبه ويستغفر الله عنها . فلا غرابه ، بعد ذلك كله ، أن يكون المؤمن الصادق الإيمان آمن النفس ، مطمئن القلب ، يغمره الشعور بالرضا وراحة البال .

« مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ »[1]

إن فقدان الإيمان بالله يجعل الحياة خالية من المعاني السامية ، والقيم الإنسانية النبيلة ، ويفقد الإنسان الشعور برسالته الكبيرة في الحياة كخليفة لله تعالى في الأرض ، فتضيع منه الرؤية الواضحة لأهدافه الكبرى في الحياة وهي عبادة الله تعالى ، والتقرب إليه ، ومجاهدة النفس في سبيل بلوغ الكمال الإنساني الذي تتحقق له به السعادة في الدنيا والآخرة . وقد شبَّه القرآن حالة الصراع والقلق والحيرة والضياع التي تصيب الإنسان الذي يفقد إيمانه بالله بالحالة التي يشعر بها الإنسان الذي يخرّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق .

« .. وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ »[2]

ويؤكد القرآن بالقسم حالة الخسران والضياع التي يعانيها الكافرون .

« وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ »[3]

---

(١) النحل : ٩٧ .

(٢) الحج : ٣١ .

(٣) سورة العصر .

إن الإيمان بالله تعالى ، واتباع منهجه الذي رسمه للإنسان في القرآن ، وبينته السنة ، هو السبيل الوحيد للتخلص من الهم والقلق[1] ، والطريق الوحيد الذي يؤدي إلى تحقيق أمن الإنسان وسعادته . وإن فقدان الإيمان بالله ، وعدم اتباع منهجه في الحياة ، يؤدي إلى الهم والقلق والشقاء .

« قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۝ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ »[2]

الإيمان وشعور الانتماء إلى الجماعة :

يحث القرآن المؤمن على أن يحب إخوانه المؤمنين ، وأن يحسن إليهم ، ويمد إليهم يد العون والمساعدة .

« إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ »[3]

« وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ »[4]

« فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ »[5]

---

(١) انظر في هذا المعنى أيضاً : ابو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب : الأخلاق والسير في مداواة النفوس . بيروت : دار الآفاق الجديدة ، ١٩٧٨ ، ص ١٥ ، ١٦ .

(٢) طه : ١٢٣ ، ١٢٤ .

(٣) الحجرات : ١٠ .

(٤) الحشر : ٩ .

(٥) الماعون : ٤ - ٧ .

ويحث القرآن المسلمين على التعاون والتكافل وتكوين مجتمع موحد الكلمة متضامن يشعر فيه المؤمن أنه لبنة في بناء واحد متكامل .

« .. وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ .. »(1)

وقد حرص القرآن على بث روح الجماعة في نفوس المسلمين بفرض صلاة الجماعة يوم الجمعة حيث يجتمع المسلمون في المساجد للصلاة والتعارف ، كما حث النبي عليه الصلاة والسلام على صلاة الجماعة وفضلها على الصلاة الفردية .

إن حرص القرآن على توجيه المسلمين إلى حب الآخرين ، وإلى التجمع وتوحيد الصفوف ، إنما ينمي في نفوسهم عاطفة حب الغير ، ويقوي فيهم الميل إلى الإيثار ، والعمل على خير الناس والمجتمع عامة ، ويضعف فيهم انفعالات الكراهية والبغضاء ، ودوافع الظلم والعدوان ، والميل إلى حب الذات والأثرة . ولا شك أن القدرة على حب الناس ، وإسداء الخير لهم ، والقيام بأعمال مفيدة للمجتمع ، إنما يقوي الشعور بالانتماء إلى الجماعة ، ويقضي على مشاعر العزلة والوحدة التي يشعر بها المرضى النفسيون . إن لشعور الفرد بانتمائه إلى الجماعة ، وبأن له دوراً فعالاً في المجتمع أهمية كبيرة في الصحة النفسية للإنسان . وقد فطن كثير من المعالجين النفسيين إلى أهمية العلاقات الإنسانية في الصحة النفسية . فقد اهتم الفرد أدلر Alfred Adler ، مثلاً ، بتوجيه مرضاه النفسيين إلى الاهتمام بالناس الآخرين ، ومحاولة الترفيه عنهم ، ومساعدة المحتاجين منهم ؛ وكان يرى أن المريض النفسي إذا اندمج في المجتمع ، وتحسنت علاقته بالناس ، فإنه يشفى من مرضه النفسي . يقول أدلر في هذا الصدد : « ... وأبتغي من وراء هذا كله أن أحوّل اهتمام مرضاي إلى الغير . فمتى اندمج المريض في جماعته ، وأصبح مع أفرادها على قدم المساواة يعاونهم ويساعدهم ، فقد برئ . وعندي أن أهم ما أوصى به الدين هو حب الجار ومعاونته . والشخص الذي يحجم عن معاونة غيره حقيق أن تنصب عليه المتاعب والمشكلات . إن كل ما تتطلبه الحياة من الفرد أن يكون عاملاً منتجاً محباً للناس ، فعالاً في الحب

(1) المائدة : ٢ .

والزواج »[1] . ويرى أدلر أن الإنسان يستطيع أن يتخلص من شعوره بالقلق بتقوية علاقاته بالناس المحيطين به وبالمجتمع الإنساني على وجه عام عن طريق العمل الاجتماعي النافع ومحبة الناس وصداقتهم ، أي بمعنى آخر ، إذا حقق انتماءه إلى الإنسانية[2] .

لا شك أن انتماء الفرد إلى جماعة يحبهم ويحبونه ، وارتباطه بهم بعلاقات إنسانية جيدة ، إنما يعتبران من العوامل الهامة التي تساعد على تكوين شخصيته تكويناً سليماً ، وعلى تحقيق الأمن والطمأنينة في نفسه .

أسلوب القرآن في علاج النفس

لكي تستطيع أن تحدث تعديلاً أو تغييراً في شخصية إنسان ما وفي سلوكه ، فمن الضروري أن تقوم بتعديل أو تغيير أفكاره واتجاهاته ، إذ أن سلوك الإنسان يتأثر تأثراً كبيراً بأفكاره واتجاهاته . ولذلك ، فإن العلاج النفسي يهدف أساساً إلى تغيير أفكار المرضى النفسيين عن أنفسهم ، وعن الناس ، والحياة ، والمشكلات التي عجزوا عن مواجهتها من قبل وكانت سبباً في قلقهم . وحينما تتغير أفكار المريض النفسي نتيجة للعلاج ، فإنه يصبح أقدر على مواجهة مشكلاته وأقدر على حلها ، بل إنه غالباً ما يرى أن مشكلاته التي كانت تقلقه في الماضي والتي أدت إلى مرضه لم تكن في الحقيقة بالضخامة التي كان يتوهمها ، ولم يكن هناك في الحقيقة مبرر يدعو إلى قلقه الشديد بسببها .

وعملية التعلم هي في أساسها عملية يتم فيها تعديل وتغيير الأفكار والاتجاهات والعادات والسلوك . والعلاج النفسي هو في أساسه عملية تصحيح تعلم سابق غير سليم اكتسب فيه المريض أفكاراً خاطئة أو وهمية عن نفسه وعن غيره من الناس ، وعن الحياة والمشكلات التي تجابهه وتسبب له القلق ، وتعلم أساليب معينة

(١) عن ديل كارينجي : مرجع سابق ، ص ٢٦٢ — ٢٦٤ .

(٢) Alfred Adler: *Understanding Human Nature*. New York: Greenberg Publishers, Inc., 1927, p. 239; Rollo May: *The Meaning of Anxiety*. New York: The Ronald Press Co., 1950, pp. 128-130.

من السلوك الدفاعي التي يهرب بها عن مواجهة مشكلاته ، ويخفف بها من حدة قلقه . ويحاول المعالج النفسي أن يصحح أفكار المريض ، ويجعله ينظر إلى نفسه ، وإلى الناس ، وإلى مشكلاته نظرة واقعية صحيحة ، وأن يواجه مشكلاته بدلاً من الهرب منها ، ويحاول حلها بدلاً من الاستمرار في حالة الصراع النفسي الناشئ عن العجز عن حلها . إن هذا التغيير في نظرة المريض النفسي إلى نفسه ، وإلى الناس ، وإلى الحياة ، يمدّه بالقدرة على مواجهة مشكلاته وحلها ، فيتخلص بذلك من الصراع النفسي وما يسببه له من قلق . وينتج عن ذلك عادة شعور المريض بالنشاط والحيوية ينبعثان فيه من جديد ، ويبدأ يمارس حياته الطبيعية بفاعلية ، مما يجعله يشعر بمتعة الحياة ، وبالرضا النفسي ، وراحة البال ، والسعادة .

«.. إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ..»[1]

ولقد نزل القرآن الكريم لتغيير أفكار الناس واتجاهاتهم وسلوكهم ، ولهدايتهم ، وتغيير ما هم فيه من ضلالة وجهل ، وتوجيههم إلى ما فيه صلاحهم وخيرهم ، ومدّهم بأفكار جديدة عن طبيعة الإنسان ورسالته في الحياة ، وبقيم وأخلاق جديدة ، ومثل عليا للحياة . وقد نجح القرآن نجاحاً عظيماً في التأثير في شخصيات الناس ، وفي تغييرها تغييراً كبيراً كانت له نتائج بعيدة الأثر في وضع أسس جديدة لنظام حياة الإنسان الشخصية ، ولنظام العلاقات الإنسانية سواء في داخل الأسرة ، أو في المجتمع بعامة . وباختصار ، نجح القرآن نجاحاً لا نظير له بين جميع الدعوات الدينية في جميع عصور التاريخ في إحداث تغييرات عظيمة الأثر في شخصيات المسلمين ، وفي المجتمع الإسلامي . فقد نجح القرآن في فترة وجيزة من الزمن في تكوين الشخصية الإنسانية المتكاملة المتزنة الآمنة المطمئنة التي استطاعت بطاقتها الجبارة التي تولدت عن هذا التغيير الذي حدث فيها ، أن تهز العالم وتغير مجرى التاريخ . كيف استطاع القرآن أن يعالج نفوس العرب ، وأن يغير شخصياتهم ؟ هذا هو ما سنحاول أن نتناوله فيما يلي .

---

(١) الرعد : ١١ .

الإيمان بعقيدة التوحيد :

إن أول شيء أراد القرآن أن يغيره في نفوس العرب هو العقيدة . ولذلك فإن آيات القرآن التي نزلت بمكة في المرحلة الأولى من الدعوة الإسلامية كانت تهدف أساساً إلى تأكيد عقيدة التوحيد . وكان أسلوب القرآن الفائق في بلاغته بما لم يعهد العرب بمثله من قبل ، واستدلالاته العقلية المقنعة فيما يعرضه من القضايا والأحكام ، وما جاء فيه من قصص وأمثال توضح المعاني وتبسطها وتقربها إلى الأذهان ، وتثير في المستمعين الاهتمام والانتباه ، وما استخدمه القرآن من أساليب الترغيب والترهيب لإثارة الدافع إلى التعلم ، وتكرار بعض المعاني لتأكيدها في الأذهان ، وغير ذلك من مبادئ التعلم التي سبق أن ذكرناها أثناء كلامنا عن التعلم في القرآن في الفصل الخامس ، كل ذلك كان له أكبر الأثر في تقبل الناس للدين الجديد ، وفي إيمانهم بعقيدة التوحيد . وقد كان الإيمان بعقيدة التوحيد هو الخطوة الأولى في إحداث تغيير كبير في الشخصية . فهو يولد في الإنسان طاقة روحية هائلة تغير مفهومه عن ذاته ، وعن الناس ، والحياة ، والكون بأكمله . إنه يمدّه بمعنى جديد للحياة ولرسالته فيها ، ويملأ قلبه بالحب لله وللرسول وللناس من حوله وللإنسانية عامة ، ويبعث فيه الشعور بالأمن والطمأنينة ، كما سبق أن بينا ذلك أثناء كلامنا عن الإيمان والشعور بالأمن .

التقوى :

تصاحب الإيمان بالله وتتبعه تقوى الله . والتقوى هي أن يقي الإنسان نفسه من غضب الله وعذابه بالابتعاد عن ارتكاب المعاصي ، والالتزام بمنهج الله تعالى الذي رسمه لنا القرآن ، وبينه لنا رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فنفعل ما أمرنا الله تعالى به ، ونبتعد عما نهانا عنه .

ويتضمن مفهوم التقوى تحكم الإنسان في دوافعه وانفعالاته ، وسيطرته على ميوله وأهوائه ، فيقوم بإشباع دوافعه في الحدود التي يسمح بها الشرع فقط . ولا يتضمن مفهوم التقوى كبت الدوافع الفطرية ، بل يتضمن فقط ضبطها والتحكم فيها وإشباعها في الحدود المسموح بها شرعاً . وقد سبق أن أشرنا إلى ذلك أثناء كلامنا عن ضبط الدوافع في الفصل الأول الخاص بالدوافع في القرآن .

ويتضمن مفهوم التقوى أيضاً أن يتوخى الإنسان دائماً في أفعاله الحق والعدل والأمانة والصدق ، وأن يعامل الناس بالحسنى ، ويتجنب العدوان والظلم . ويتضمن مفهوم التقوى كذلك أن يؤدي الإنسان كل ما يوكل إليه من أعمال على أحسن وجه ، لأنه دائم التوجه إلى الله تعالى في كل ما يقوم به من أعمال ابتغاء مرضاته وثوابه. وهذا يدفع الإنسان دائماً إلى تحسين ذاته ، وتنمية قدراته ومعلوماته ليؤدي عمله دائماً على أحسن وجه . إن التقوى بهذا المعنى تصبح طاقة موجهة للإنسان نحو السلوك الأفضل والأحسن ، ونحو نمو الذات ورقيها ، وتجنب السلوك السيِّىء والمنحرف والشاذ . وهذا يتطلب من الإنسان مجاهدة نفسه والتحكم في أهوائه وشهواته ، فيصبح هو المسيطر عليها والموجه لها . فالتقوى ، إذن ، من العوامل الرئيسية التي تؤدي إلى نضوج الشخصية وتكاملها واتزانها ، وتدفع بالإنسان إلى الارتقاء بذاته متطلعاً إلى بلوغ الكمال الإنساني .

«يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ »(1)

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ »(2)

«يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا »(3)

«.. وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا »(4)

(1) الحديد : ٢٨ . « يؤتكم كفلين من رحمته » أي ضعفين من رحمته . « ويجعل لكم نوراً تمشون به » أي هدى يتبصر به من العمى والجهالة . مختصر تفسير ابن كثير ، جـ ٣ ، ص ٤٥٦ .
(2) الأنفال : ٢٩ . « فرقانا » يعني قدرة تفرقون بها بين الحق والباطل . المنتخب في تفسير القرآن الكريم ، ص ٢٤٧ ؛ المختصر في تفسير ابن كثير ، جـ ٢ ص ٩٩ .
(3) الأحزاب : ٧٠ ، ٧١ .
(4) الطلاق : ٤ .

العبادات :

إن تغيير الأفكار خطوة أولى وضرورية لتغيير شخصية الإنسان وسلوكه ، غير أن تعلم سلوك جديد يقتضي أيضاً ممارسة هذا السلوك مدة طويلة ، أي يقتضي التدريب عليه حتى يستقر ويثبت . ولقد سبق أن أشرنا أثناء كلامنا عن التعلم في القرآن في الفصل الخامس إلى أهمية مشاركة المتعلم بطريقة فعالة في عملية التعلم ، وذكرنا التجربة التي بينت أن الأفراد الذين يرددون الكلمات المطلوب تعلمها يتعلمون أسرع من الأفراد الذين يسمعون فقط هذه الكلمات ويرونها تعرض أمامهم ولكنهم لا يرددونها . وتتضح أهمية المشاركة الفعالة أيضاً في تعلم المهارات الحركية ، والحرف المهنية المختلفة ، حيث لا يستطيع الفرد تعلمها من غير ممارسته الفعلية لها ، وتدريبه عليها .

وفي العلاج النفسي أيضاً ، لا يكفي لشفاء المريض أن يعرف حقيقة مشكلاته ، وأن تتغير أفكاره عنها ، وأن تتغير نظرته إلى نفسه وإلى الحياة ، بل إنه من الضروري أيضاً أن يمر المريض النفسي بخبرات جديدة في الحياة يطبق فيها أفكاره الجديدة عن نفسه وعن الناس ، وأن يرى بنفسه كيف أن سلوكه الجديد قد حقق نجاحاً في علاقاته الإنسانية ، وأحدث تغييراً واضحاً في سلوك الناس الآخرين نحوه ، فبدأوا يظهرون نحوه قدراً كبيراً من العواطف الإيجابية كالصداقة والمودة والتقدير . وبهذه الممارسة الفعلية في الحياة للسلوك الجديد المنبعث من أفكاره الجديدة ، وما تؤدي إليه من نتائج مُرضية ، يحدث التغيير الكبير في شخصية المريض ، ويسير بخطى سريعة نحو الشفاء .

وقد اتبع القرآن في تربيته لشخصيات الناس ، وفي تغيير سلوكهم أسلوب العمل والممارسة الفعلية للأفكار والعادات السلوكية الجديدة التي يريد أن يغرسها في نفوسهم . ولذلك فرض الله سبحانه وتعالى العبادات المختلفة : الصلاة ، والصيام ، والزكاة ، والحج . إن القيام بهذه العبادات في أوقات معينة بانتظام يعلم المؤمن الطاعة لله تعالى ، والامتثال لأوامره ، والتوجه الدائم إليه في عبودية تامة ، كما يعلمه الصبر ، وتحمل المشاق ، ومجاهدة النفس والتحكم في أهوائها وشهواتها ، كما يعلمه حب الناس ، والإحسان إليهم ، وينمي في نفسه روح التعاون والتكافل

الاجتماعي . وكل هذه خصال حميدة تتميز بها الشخصية السوية الناضجة المتكاملة . ولا شك أن قيام المؤمن بهذه العبادات بإخلاص وبانتظام إنما يؤدي إلى اكتسابه هذه الخصال الحميدة التي توفر له مقومات الصحة النفسية السليمة ، كما يمده بوقاية من الأمراض النفسية ، كما سيتضح لنا من شرحنا التالي لتأثير العبادات في شخصية المسلم .

أ ـ الصلاة :

يشير اسم «الصلاة» إلى أن فيها صلة بين الإنسان وربه . ففي الصلاة يقف الإنسان في خشوع وتضرع بين يدي الله سبحانه وتعالى خالقه وخالق الكون كله ، ويقف بجسمه الضئيل الضعيف أمام الإله العظيم القادر على كل شيء ، المتحكم في كل ذرة في الوجود ، المدبر للأمر في السماوات والأرض ، الذي بيده الحياة والموت ، والموزع الأرزاق بين الناس ، والذي يتم بأمره القضاء والقدر وكل ما يصيبنا في هذه الحياة من خير أو شر . إن وقوف الإنسان في الصلاة أمام الله سبحانه وتعالى في خشوع وتضرع يمده بطاقة روحية تبعث فيه الشعور بالصفاء الروحي ، والاطمئنان القلبي ، والأمن النفسي . ففي الصلاة ، إذا ما أداها الإنسان كما ينبغي أن تؤدى ، يتوجه الإنسان بكل جوارحه وحواسه إلى الله تعالى ، وينصرف عن كل مشاغل الدنيا ومشكلاتها ، ولا يفكر في شيء إلا في الله سبحانه وتعالى ، وما يردده من آيات القرآن . إن هذا الانصراف التام عن مشكلات الحياة وهمومها ، وعدم التفكير فيها أثناء الصلاة ، ووقوفه أمام ربه في خشوع تام من شأنه أن يبعث في الإنسان حالة من الاسترخاء التام[1] ، وهدوء النفس ، وراحة العقل . ولهذه الحالة من الاسترخاء والهدوء النفسي التي تحدثها الصلاة أثرها العلاجي الهام في تخفيف حدة التوترات العصبية الناشئة عن ضغوط الحياة اليومية ، وفي خفض القلق الذي يعاني منه بعض الناس . يقول الطبيب توماس هايسلوب : «إن أهم مقومات النوم التي

(١) انظر في هذا أيضاً : جمال ماضي أبو العزائم : مرجع سابق ؛ وأسامه محمد الراضي : الإسلام وأمراض العصر . ندوة علم النفس والإسلام ، كلية التربية بجامعة الرياضة (مطبوع على الآلة الكاتبة) ، المجلد الأول ، ١٩٧٨ .

عرفتها في خلال سنين طويلة قضيتها في الخبرة والتجارب هو الصلاة . وأنا ألقي هذا القول بوصفي طبيباً ، إن الصلاة أهم أداة عرفت حتى الآن لبث الطمأنينة في النفوس ، وبث الهدوء في الأعصاب »[1] .

إن الاسترخاء من الوسائل التي يستخدمها بعض المعالجين النفسيين المحدثين في علاج الأمراض النفسية . والاسترخاء عادة يمكن أن يتعلمها الإنسان بالتدريب . وتمدنا الصلاة خمس مرات في اليوم بأحسن نظام للتدريب على الاسترخاء وتعلمه . وإذا تعلم الإنسان عادة الاسترخاء ، فإنه يستطيع أن يتخلص من التوتر العصبي الذي تسببه ضغوط الحياة وهمومها . وقد كان الرسول عليه الصلاة والسلام يقول لبلال رضي الله عنه حينما تحين أوقات الصلاة : « ارحنا بالصلاة يا بلال »[2] . وفي الحديث : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا حَزَبَه أمر صلى »[3] . وقال عليه الصلاة والسلام أيضاً : « .. جعلت قرة عيني في الصلاة »[4] .

وتساعد حالة الاسترخاء والهدوء النفسي التي تحدثها الصلاة على التخلص أيضاً من القلق الذي يشكو منه المرضى النفسيون . فإن حالة الاسترخاء والهدوء النفسي التي تحدثها الصلاة تستمر عادة فترة ما بعد الانتهاء من الصلاة . وقد يواجه الإنسان وهو في هذه الحالة من الاسترخاء والهدوء النفسي بعض الأمور أو المواقف المثيرة للقلق ، أو قد يتذكرها . وتكرار تعرض الفرد لهذه الأمور أو المواقف المثيرة للقلق أو تذكره لها أثناء وجود هذه الحالة من الاسترخاء والهدوء النفسي عقب الصلوات إنما يؤدي إلى « الانطفاء » التدريجي للقلق ، وإلى ارتباط هذه الأمور أو المواقف المثيرة للقلق بحالة الاسترخاء والهدوء النفسي ، وبذلك يتخلص الفرد من القلق الذي كانت تثيره هذه الأمور أو المواقف .

إن هذا الأثر الهام للصلاة في علاج القلق يماثل الأثر الذي يحدثه أسلوب العلاج النفسي الذي يتبعه بعض المعالجين النفسيين السلوكيين المحدثين في علاج

---

(١) ديل كارينجي : مرجع سابق ، ص ٣٥٩ ، ٣٦٠ .
(٢) مختصر تفسير ابن كثير ، جـ ١ ، ص ١٤٢ .
(٣) رواه أبو داود ، الحديث رقم ١٣١٩ ، جـ ٢ ، ص ٣٥ .
(٤) رواه النسائي وأحمد والحاكم .

القلق . إن هؤلاء المعالجين النفسيين ، مثل جوزيف ولبي ، يتبعون في علاج القلق أسلوباً يعرف بالكف المتبادل[1] ، ويطلق عليه أيضاً « العلاج الاسترخائي » ، أو « العلاج بالتقليل من الحساسية الانفعالية » . وفي هذا الأسلوب من العلاج يقوم المعالج أولاً بتدريب المريض النفسي على الاسترخاء العميق ، وفي أثناء وجود المريض في حالة الاسترخاء ، يطلب منه المعالج أن يتصور شيئاً من الأشياء المثيرة لقلقه . ويتبع المعالج في ذلك نظاماً معيناً يبتدئ بالأشياء المثيرة للقلق الخفيف ، متدرجاً إلى الأشياء المثيرة للقلق الشديد . فإذا ظهر على المريض القلق حينما يتصور شيئاً من الأشياء التي تثير قلقه ، طلب المعالج من المريض إبعاد هذا الشيء من ذهنه ، وطلب منه أن يعود مرة أخرى إلى حالة الاسترخاء . وبعد أن يهدأ المريض ويعود إلى إلى حالة الاسترخاء يطلب منه مرة أخرى تصور هذا الشيء المثير للقلق . ويستمر العلاج بهذا الأسلوب حتى يستطيع المريض أن يتصور هذا الشيء مع وجود حالة الاسترخاء بدون أن يشعر بالقلق . ثم ينتقل المريض بعد ذلك إلى تصور شيء آخر يثير فيه درجة أشد من القلق ، وذلك أثناء وجوده في حالة الاسترخاء . وهكذا يستمر العلاج حتى يتخلص المريض من قلقه تماماً . إن الأسلوب الذي اتبعه ولبي وغيره من المعالجين النفسيين السلوكيين يعتمد أساساً على مبادئ الإشراط[2] ، وفيه يحاول المعالج أن يربط بين المواقف المثيرة للقلق وبين استجابة معارضة للقلق ، وهي الاسترخاء[3] .

ومن الواضح وجه الشبه بين أسلوب العلاج النفسي الذي يتبعه المعالجون النفسيون السلوكيون وبين الأثر العلاجي الذي تحدثه الصلاة . فإن تكرار اقتران حالة

(١) Reciprocal inhibition

(٢) Conditioning

(٣) ريتشارد م . شوين : مرجع سابق ، ص ٨٤٦ – ٨٥٤ ؛
روبرت هاربر : التحليل النفسي والعلاج النفسي . ترجمة سعد جلال . القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٤ ، ص ١٦٧ – ١٦٩ ؛
شيلدون كاشدان : مرجع سابق ، ص ٢٣٢ – ٢٣٥ ؛
جوليان روتر : مرجع سابق ، ص ١٨٤ ، ١٨٥ .

الاسترخاء والهدوء النفسي التي تحدثها الصلاة – والتي تستمر عادة فترة ما بعد الانتهاء من الصلاة – بالمواقف المثيرة لقلقه ، إما بمواجهتها فعلياً في الحياة أو بتذكرها ، إنما يؤدي في النهاية إلى تكوين ارتباطات شرطية جديدة بين هذه المواقف وبين استجابة الاسترخاء والهدوء النفسي التي تحدثها الصلاة ، وهي استجابة معارضة لاستجابة القلق . وبذلك يتخلص الإنسان من القلق . وهذا هو نفس الأسلوب الذي يستخدمه المعالجون النفسيون السلوكيون في علاج القلق ، كما أشرنا إلى ذلك سابقاً .

ويقوم الإنسان عقب الصلاة مباشرة بالتسبيح والدعاء إلى الله تعالى ، وهذا يساعد على استمرار حالة الاسترخاء والهدوء النفسي لفترة ما عقب الصلاة . وفي الدعاء يقوم الإنسان بمناجاة ربه ، ويبث إليه ما يشكوه وما يعانيه في حياته من مشكلات تزعجه وتقلقه ، ويطلب منه أن يعينه على حل مشكلاته وقضاء حاجاته . إن مجرد تعبير الإنسان عن مشكلاته التي تزعجه وتقلقه وهو في هذه الحالة من الاسترخاء والهدوء النفسي يؤدي أيضاً إلى التخلص من القلق ، بنفس الأسلوب الذي شرحناه سابقاً ، وهو تكوين ارتباط شرطي جديد بين هذه المشكلات وحالة الاسترخاء والهدوء النفسي ، فتفقد هذه المشكلات قدرتها على إثارة القلق تدريجياً ، وترتبط ارتباطاً شرطياً بحالة الاسترخاء والهدوء النفسي ، وهي حالة معارضة للقلق .

وفضلاً عن ذلك ، فإن مجرد إفضاء الإنسان بمشكلاته وهمومه والتعبير عنها إلى شخص آخر يسبب له راحه نفسية . ومن المعروف بين المعالجين النفسيين أن تذكر المريض النفسي لمشكلاته وتحدثه عنها يؤدي إلى تخفيف حدة قلقه . وإذا كانت حالة الإنسان النفسية تتحسن إذا أفضى الإنسان بمشكلاته لصديق حميم ، أو لمعالج نفسي ، فما بالك بمقدار التحسن الذي يمكن أن يطرأ على الإنسان إذا أفضى بمشكلاته لله سبحانه وتعالى ، وقام عقب كل صلاة بمناجاة ربه ، ودعائه ، والاستعانة به ، وطلب العون منه .

أضف إلى ذلك أن مجرد الدعاء إلى الله تعالى والتضرع إليه يؤدي إلى تخفيف حدة القلق من ناحية أخرى . وذلك لأن المؤمن يعلم أن الله سبحانه وتعالى قال في كتابه الكريم :

« وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ .. »[1]

« وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ .. »[2]

ولذلك كان الدعاء لله تعالى يساعد على تخفيف حدة القلق ، حيث يأمل المؤمن في استجابة الله تعالى له في حل مشكلاته ، وقضاء حاجاته ، ورفع الهم والقلق عنه . وبصرف النظر عن كون الله تعالى قد استجاب فعلاً لدعاء الإنسان أو لم يستجب ، فإن مجرد التوجه إلى الله تعالى بالدعاء ، وأمل الإنسان في استجابة الله تعالى له ، يؤدي – عن طريق الإيحاء الذاتي باحتمال استجابة الله تعالى لدعائه – إلى تخفيف حدة قلقه .

ومن المعروف أن القلق ينشأ عن عجز الإنسان عن حل صراعاته النفسية . والصراع النفسي يستهلك جزءاً كبيراً من الطاقة النفسية للإنسان . ولذلك ، كان المرضى النفسيون عاجزين عن التعبير عن قدراتهم وإمكاناتهم تعبيراً صحيحاً بسبب صراعاتهم النفسية التي تستهلك طاقتهم ، وتعطل قدراتهم وإمكاناتهم . وحينما يتم علاجهم ، وتتحرر طاقاتهم النفسية من قيود صراعاتهم النفسية ، فإنهم يظهرون في العادة كثيراً من الحيوية والنشاط ، وتزداد قدرتهم على العمل والإنتاج .

ويلاحظ أن الصلاة تؤدي إلى نفس النتيجة التي يؤدي إليها العلاج النفسي الناجح . فإن ما تحدثه الصلاة من شعور بالأمن وتحرر من القلق يساعد على انطلاق طاقة الإنسان النفسية التي كانت مقيدة في أغلال القلق ، فيشعر الإنسان بتدفق النشاط والحيوية في كيانه .

غير أن أثر الصلاة يفوق كثيراً أثر العلاج النفسي من ناحية أخرى . ففضلاً عن تحرّر طاقة الإنسان النفسية من قيود القلق ، فإن الاتصال الروحي بين الإنسان وربه أثناء الصلاة يمده بطاقة روحية تجدد فيه الأمل ، وتقوي فيه العزم ، وتطلق في

---

(١) غافر : ٦٠ .

(٢) البقرة : ١٨٦ .

نفسه قدرات هائلة تمكنه من تحمل المشاق والقيام بجلائل الأعمال . وفي الواقع ، إن الإنسان يتضمن في كيانه قوى وطاقات عظيمة لا يستخدم منها عادة إلا جزءاً صغيراً . يقول وليم جيمس في هذا الصدد : «إذا قسنا أنفسنا إلى ما يجب أن نكون عليه ، يتضح لنا أننا أنصاف أحياء . فإننا لا نستخدم إلا جانباً يسيراً من مواردنا الجسمانية والذهنية ، أو بمعنى آخر ، إن الفرد منا يعيش في حدود ضيقة يصطنعها داخل حدوده الحقيقية . إنه يمتلك قوى كثيرة مختلفة ، ولكنه عادة لا يفطن إليها ، أو يخفق في استخدامها »[1] . ولعل اتصال الإنسان الروحي بربه أثناء الصلاة ، وتقبله منه تعالى نوعاً من الفيض الإلهي أو القبس الروحاني إنما يطلق فيه طاقاته الروحية الكامنة ، فيشتد عزمه ، وتقوى إرادته ، وتعلو همته ، فيصبح أكثر استعداداً لقبول العلم والمعرفة ، وأكثر قدرة على القيام بجليل الأعمال . وقد لاحظ الطبيب الفرنسي الكسيس كاريل أن الصلاة تحدث نشاطاً روحياً معيناً يمكن أن يؤدي إلى الشفاء السريع لبعض المرضى في أماكن الحج والعبادات[2] . وقد ردد سيرل بيرت عالم النفس الإنجليزي فيما بعد رأي وليم جيمس في تأثير الصلاة فقال إننا بالصلاة نستطيع أن «نلج باب ذخيرة كبيرة من النشاط العقلي لا نستطيع إليها وصولاً في الظروف العادية ، ولقد كانت هذه فكرة واحد من أشهر علماء النفس .. وليم جيمس »[3] .

وبالإضافة إلى كل ذلك ، فان لصلاة الجماعة أثراً علاجياً هاماً . فتردد الفرد على المسجد لصلاة الجماعة يتيح له فرصة التعرف بجيرانه وبكثير من من الأفراد الآخرين ممن يسكنون في نفس الحيّ الذي يسكن فيه ، مما يساعد على تفاعله مع الناس الآخرين ، وعلى تكوين علاقات اجتماعية سليمة ، وعلاقات صداقة ومودة معهم . إن مثل هذه العلاقات الاجتماعية وعلاقات الصداقة والمودة

---

(١) ديل كارينجي : مرجع سابق ، ص ٢٣٩ .

(٢) الكسيس كاريل : الإنسان ذلك المجهول ، ط ٣ . ترجمة شفيق أسعد فريد . بيروت : مكتبة المعارف ، ١٩٨٠ ، ص ١٧٠ ، ١٧١ .

(٣) سيرل بيرت : علم النفس الديني . ترجمة سمير عبده . دمشق : دار دمشق للطباعة والنشر (د . ت) ، ص ٢١ .

مع الآخرين يساعد على نمو شخصية الفرد ، وعلى نضجه الانفعالي ، كما يشبع حاجته إلى الانتماء الاجتماعي والتقبل الاجتماعي مما يؤدي إلى الوقاية من القلق الذي يعاني منه بعض الناس نتيجة شعورهم بالوحدة والعزلة وعدم الانتماء إلى الجماعة ، أو شعورهم بعدم تقبل الجماعة لهم .

وتؤدي صلاة الجمعة دوراً علاجياً هاماً ، حيث يستمع فيها المصلون إلى خطبة الجمعة التي يناقش فيها الإمام عادة بعض المشكلات الاجتماعية والحياتية التي يعاني منها الناس ، ويقوم بشرح أسبابها وطرق علاجها . وقد يتناول بعض أنواع السلوك الشاذ والمنحرف ، ويشرح أسبابها ، ويبين وسائل التغلب عليها . ولا شك أن المصلين يفيدون كثيراً من الاستماع إلى مثل هذه الخطب التي تتناول مشكلاتهم الاجتماعية والشخصية بالشرح ، والتي تمدهم بكثير من النصائح والإرشادات عن كيفية مواجهة مشكلاتهم والتغلب عليها ، وعن أساليب السلوك السوي السليم الذي يحقق للفرد الأمن النفسي وراحة البال .

إن صلاة الجمعة تقوم ، في الواقع ، بدور وقائي ودور علاجي في نفس الوقت . أما دورها الوقائي فيرجع إلى أنها تمد الفرد ، إذا ما داوم على صلاة الجمعة منذ صغره ، بأنواع من المعلومات الدينية ، والإرشادات العملية التي توجه سلوكه في الحياة توجيهاً سليماً ، وتزيد من قدرته على مواجهة مشكلات الحياة . أما دورها العلاجي فيرجع إلى التأثير الذي تحدثه خطب صلاة الجمعة في زيادة استبصار الفرد لذاته ولما يعانيه من بعض مشكلات الحياة ، وفي تقوية إرادته على مواجهتها ومقاومتها والتغلب عليها . وقد يلجأ بعض الأفراد إلى التحدث مع الإمام بعد الانتهاء من الصلاة عما يعانون من مشكلات ، وقد يجدون في نصائح الإمام ما يخفف حدة قلقهم ويوجههم إلى الطريق السليم للتغلب على مشكلاتهم . إن الدور الذي تقوم به صلاة الجماعة بعامة ، وصلاة الجمعة بخاصة ، في تقويم شخصية الأفراد وعلاجها إنما يشبه إلى حد ما الدور الذي يقوم به العلاج النفسي الجماعي . وقد قام كلابمان Klapman وآخرون حديثاً بنوع من العلاج النفسي الجماعي التعليمي [١]

(١) روبرت هاربر : مرجع سابق ، ص٢٠٩ ، ٢١٠ .

الذي يعتمد أساساً على مادة المحاضرات لزيادة استبصار المرضى لمشكلاتهم ولأنواع الصراع النفسي التي يعانونها ، وعملياتهم الدفاعية التي يقومون بها ، وما إلى ذلك من المعلومات التي يحتاج إليها المرضى النفسيون لمساعدتهم على التغلب على مشكلاتهم . ومن الواضح أن هذا النوع الحديث من العلاج النفسي الجماعي التعليمي إنما يشبه في أساسه الدور الذي تقوم به خطبة صلاة الجمعة [1] في علاج بعض المشكلات النفسية الخفيفة الناشئة عن ضغوط الحياة ، أو في الوقاية منها .

ومما يجدر أن نلاحظه أن العلاج النفسي يتدخل عادة لمساعدة المريض بعد حدوث المرض النفسي . غير أن الصلاة بعامة ، وصلاة الجمعة بخاصة ، إنما تعمل على وقاية الفرد من الإصابة بالمرض النفسي . ولا شك أن الوقاية خير من العلاج . ولذلك كان فضل الصلاة من هذه الناحية عظيماً . وقد بدأ أخيراً بعض علماء النفس يهتمون بموضوع الوقاية من المرض النفسي كما سبق أن أشرت إلى ذلك من قبل .

ثم إن الوضوء استعداداً للصلاة ليس تطهيراً للجسم فقط مما علق به من أوساخ وأدران ، وإنما هو أيضاً تطهير للنفس من أوساخها وأدرانها . فالوضوء ، إذا ما أُدِّيَ كما ينبغي ، يشعر المؤمن بالنظافة البدنية والنفسية معاً ، ويشعره أنه تطهر من أدران أخطائه وذنوبه . وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «إذا توضأ العبد المسلم ، أو المؤمن ، فغسل وجهه خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينه مع الماء أو مع آخر قطرِ الماء ، فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة كانت بطشتها يداه مع الماء أو مع آخر قطر الماء ، فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء أو مع آخر قطر الماء حتى

(١) يلاحظ أن خطبة الجمعة قد لا تؤدي الآن في أغلب الأوقات الدور الذي وصفناه هنا في الوقاية من اضطرابات السلوك أو علاجها . ويرجع ذلك إلى عدم الإعداد الكافي لكثير من أئمة المساجد للقيام بهذا الدور . ومن الضروري أن يعاد النظر في خطة إعداد أئمة المساجد بحيث يراعى أن تكون لديهم الثقافة العامة والنفسية الكافية للقيام بدورهم كموجهين ومرشدين للناس لا في النواحي الدينية فحسب ، وانما أيضاً في كثير من نواحي حياتهم الاجتماعية والشخصية .

يخرج نقياً من الذنوب»[1] . وإن هذا الشعور بالطهارة البدنية والنفسية يهيئ الإنسان للاتصال الروحي بالله سبحانه وتعالى ، والدخول في حالة الاسترخاء الجسمي والنفسي أثناء الصلاة .

وفضلاً عن هذا التأثير النفسي للوضوء ، فإن له أيضاً تأثيراً فسيولوجياً أشار إليه من قبل بعض الكتاب والأطباء[2] ، إذ تبين أن الاغتسال بالماء خمس مرات يومياً وعلى فترات معينة من العمل اليومي إنما يساعد على استرخاء العضلات ، وتخفيف حدة التوتر البدني والنفسي . ولذلك أوصى النبي علية الصلاة والسلام بالوضوء إذا غضب الإنسان ، فقد قال عليه الصلاة والسلام : «إن الغضب من الشيطان ، وإن الشيطان خلق من النار ، وإنما تطفأ النار بالماء ، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ» ، رواه أبو داود[3] .

ب ـ الصيام :

وللصيام فوائد نفسية كثيرة ، ففيه تربية وتهذيب للنفس وعلاج لكثير من أمراض النفس والجسم . فالإمساك عن الطعام والشراب من قبل الفجر إلى غروب الشمس في جميع أيام شهور رمضان ، إنما هو تدريب للإنسان على مقاومة شهواته والسيطرة عليها ، ويؤدي ذلك إلى بث روح التقوى فيه .

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ »[4]

أي «لعلكم تتقون المعاصي فإنه يكسر الشهوة التي هي مبدؤها»[5] . وفي الحديث الشريف رواه البخاري وأبو داود : «الصيام جُنَّة[6] ، فإذا كان أحدكم صائماً ، فلا يرفث ، ولا يجهل ، فإن امرؤ قاتله ، أو شاتمه فليقل : إني

---

(١) الحديث رقم ١٢١ ، مختصر صحيح مسلم .
(٢) جمال ماضي أبو العزائم : مرجع سابق ؛ اسامة محمد الراضي : مرجع سابق .
(٣) الحديث رقم ٤٧٨٤ من سنن أبي داود ، جـ ٣ ، ص ٢٤٩ .
(٤) البقرة : ١٨٣ .
(٥) تفسير الجلالين ، ص ٢٥ .
(٦) أي مانع من المعاصي .

صائم مرتين ، والذي نفس محمد بيده ، لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك ، يترك طعامه وشرابه وشهواته من أجلي . الصيام لي ، وأنا أجزي به ، والحسنة بعشرة أمثالها »[١] .

إن استمرار هذا التدريب على ضبط الشهوات والسيطرة عليها مدة شهر كل عام ، لا شك سيؤدي إلى تعليم الإنسان قوة الإرادة ، وصلابة العزيمة ، لا في التحكم في شهواته فقط ، وإنما في سلوكه العام في الحياة ، وفي القيام بمسؤولياته ، وأداء واجباته ، ومراعاة الله تعالى في كل ما يقوم به من أعمال . وفي ذلك أيضاً تربية لضمير الإنسان ، فيصبح الإنسان ملتزماً دائماً بالسلوك الحسن الأمين بوازع من ضميره من غير حاجة إلى رقابة من أحد عليه .

وفي الصيام أيضاً تدريب للإنسان على الصبر على الجوع والعطش والامتناع عن الشهوات . ويقوم الإنسان بعد ذلك بتعميم خصلة الصبر التي تعلمها من صيامه على جميع نواحي حياته الأخرى ، فيتعلم الصبر على تحمل مشاق السعي وراء الرزق ، وآلام المرض ، ومتاعب الحياة ومصائبها . والصبر من الخصال الإنسانية الحميدة التي أوصى الله تعالى الإنسان أن يتحلى بها ، فهي خير معين له على تحمل مشاق الكفاح في الحياة ، ومجاهدة النفس ، ومقاومة أهوائها وشهواتها ، كما سنوضح ذلك فيما بعد أثناء كلامنا عن الصبر .

ومن الفوائد النفسية للصيام أيضاً أنه يشعر الغنيّ بآلام الجوع ، ويبعث في نفسه عواطف الرحمة والشفقة على الفقراء والمساكين ، فيدفعه ذلك إلى البر بهم والإحسان إليهم مما يقوي في المجتمع روح التعاون والتضامن والتكافل الاجتماعي .

وفضلاً عن هذه الفوائد النفسية للصيام ، فإن فيه أيضاً فوائد طبية وعلاجاً من الأمراض البدنية . ومن المعروف أن لصحة الإنسان البدنية تأثيراً في صحته النفسية . ومن الحكم الشائعة : «إن العقل السليم في الجسم السليم» .

---

(١) السيد سابق : فقه السنة ، المجلد الأول . بيروت : دار الكتاب العربي (د . ت) ، ص ٤٣١ و« الرفث » الفحش في القول ، و« لا يجهل » أي لا يسفه .

ج ـ الزكاة :

وفريضة الزكاة التي تفرض على المسلم إخراج نصيب معلوم من ماله كل عام لإنفاقه على الفقراء إنما هي تدريب للمسلم على العطف على المحتاجين من الناس ، ومد يد العون إليهم ومساعدتهم على سد حاجاتهم الضرورية . إنها تقوي في المسلم الشعور بالمشاركة الوجدانية مع الفقراء والمساكين ، وتبث فيه الشعور بالمسؤولية نحوهم ، وتدفعه إلى العمل على إسعادهم والترفيه عنهم . إنها تعلم المسلم حب الآخرين ، وتخلصه من الأنانية وحب الذات والبخل والطمع . وقد سبق أن أشرنا إلى أن قدرة الفرد على حب الناس وإسداء الخير إليهم والعمل على إسعادهم يقوي فيه الشعور بالانتماء الاجتماعي ، ويشعره بدوره الفعال المفيد في المجتمع ، مما يجعله يشعر بالرضا عن نفسه ، وهو أمر له أهمية كبيرة في صحة الإنسان النفسية . وقد قال القرآن عن الصدقة ، سواء كانت زكاة مفروضة أو تطوعاً ، إنها تطهر النفس وتزكيها :

« خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا .. »(1)

فالزكاة تطهر النفس من دنس البخل والطمع والأثرة وحب الذات والقسوة على الفقراء . وهي تزكي النفس ، « أي تنميها وترفعها بالخيرات والبركات الخلقية والعملية ، حتى تكون بها أهلاً للسعادة الدنيوية والأخروية »(2) . وروى أحمد عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لرجل من تميم سأله كيف ينفق ماله : « تخرج الزكاة من مالك فإنها طُهرةٌ تطهّرك ، وتصل أقرباءك ، وتعرف حق المسكين والجار والسائل »(3) .

د ـ الحج :

وللحج أيضاً فوائد نفسية عظيمة الشأن . فزيارة المسلم لبيت الله الحرام في

---

(1) التوبة : ١٠٣ .

(2) السيد سابق : مرجع سابق ، ص ٣٢٨ .

(3) المرجع السابق ، ص ٣٢٩ .

مكة المكرمة ، ولمسجد رسول الله عليه الصلاة والسلام في المدينة المنورة ، ولمنازل الوحي ، وأماكن البطولات الإسلامية تمد المسلم بطاقه روحية عظيمة تزيل عنه كروب الحياة وهمومها ، وتغمره بشعور عظيم من الأمن والطمأنينة والسعادة .

وفضلاً عن ذلك ، فإن في الحج تدريباً للإنسان على تحمل المشاق والتعب ، وعلى التواضع حيث يخلع الإنسان ملابسه الفاخرة ويرتدي ملابس الحج البسيطة التي يتساوى فيها جميع الناس الغني فيها والفقير ، والسيد والمسود ، والحاكم والمحكوم . وهو يقوي روابط الأخوة بين جميع المسلمين من مختلف الأجناس والأمم والطبقات الاجتماعية ، حيث يجتمعون جميعاً في مكان واحد يعبدون الله تعالى ويبتهلون إليه ويتضرعون . ويهيئ هذا التجمع الهائل للمسلمين من مختلف الشعوب الإسلامية فرص التآلف والتعارف وتكوين العلاقات والصداقات بينهم .

وفي الحج أيضاً تدريب للإنسان على ضبط النفس والتحكم في شهواتها واندفاعاتها ، إذ يتنزه الحاج وهو محرم عن مباشرة النساء ، وعن الجدل والخصام والشحناء والسباب ، وعن المعاصي وكل ما نهى الله تعالى عنه ، وفي ذلك تدريب للإنسان على ضبط النفس ، وعلى السلوك المهذب ، وعلى معاملة الناس بالحسنى ، وعلى فعل الخير .

« ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ »(١)

فالحج ، على هذا الأساس ، هو جهاد للنفس ، يجتهد فيه الإنسان أن يهذب نفسه ، ويقاوم أهواءه واندفاعاته ، ويدرب نفسه على تحمل المشاق ، وعلى فعل الخير وحب الناس . عن الحسن بن علي رضي الله عنهما أن رجلاً جاء إلى النبي عليه

---

(١) البقرة : ١٩٧ .

الصلاة والسلام فقال : إني جبان ، وإني ضعيف ، فقال : «هَلُمَّ إلى جهاد لا شوكة فيه : الحج»[1] .

ويعلم المسلم أن الحج المبرور يغفر الذنوب ، ويرجع المسلم من الحج كيوم ولدته أمه . ففي الحديث رواه البخاري ومسلم : «من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه» . وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، أن رسول الله عليه الصلاة والسلام قال : «تابعوا بين الحج والعمرة ، فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكير[2] خبث[3] الحديد والذهب والفضة . وليس للحجة المبرورة ثواب إلا الجنة» ، رواه النسائي والترمذي[4] . ولا شك أن معرفة المسلم أن الحج المبرور يغفر الذنوب يجعل الحاج يعود من حجه منشرح الصدر سعيداً ، يغمره الشعور بالأمن والطمأنينة وراحة البال . ويمدّه هذا الشعور الغامر بالسعادة والأمن بطاقة روحية هائلة تنسيه هموم الحياة ومتاعبها ، وما تؤدي إليه من توترات عصبية وقلق .

الصبر :

يدعو القرآن المؤمنين إلى التحلي بالصبر لما فيه من فائدة عظيمة في تربية النفس ، وتقوية الشخصية ، وزيادة قدرة الإنسان على تحمل المشاق ، وتجديد طاقته لمواجهة مشكلات الحياة وأعبائها ، ونكبات الدهر ومصائبه ، ولتعبئة قدراته لمواصلة الجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى .

« وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ »[5]

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ »[6]

---

(١) السيد سابق : مرجع سابق ، ص ٦٢٦ .
(٢) الآلة التي ينفخ الحداد والصائغ النار .
(٣) خبث أي وشح .
(٤) السيد سابق : مرجع سابق ، ص ٦٢٦ ، ٦٢٧ .
(٥) البقرة : ٤٥ .
(٦) البقرة : ١٥٣ .

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ »(1)

والمؤمن الصابر لا يجزع لما يلحق به من أذى ، ولا يضعف أو ينهار إذا ألمت به مصائب الدهر وكوارثه ، فلقد وصاه الله تعالى بالصبر ، وعلمه أن ما يصيبه في الحياة الدنيا إنما هو ابتلاء من الله تعالى ليعلم الصابرين منا .

« وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ »(2)

« وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۞ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۞ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ »(3)

« لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ »(4)

والصبر من صفات المؤمنين الحميدة التي أشاد بها القرآن في أكثر من موضع .

« .. وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۞ فَكُّ رَقَبَةٍ ۞ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۞ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۞ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۞ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ۞ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ »(5)

---

(1) آل عمران : ٢٠٠ .
(2) محمد : ٣١ .
(3) البقرة : ١٥٥ – ١٥٧ .
(4) آل عمران : ١٨٦ .
(5) البلد : ١٢ – ١٨ .

« وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ »(١)

« لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ »(٢)

والصبر يعلم الإنسان المثابرة على العمل وبذل المجهود لتحقيق أهدافه العملية والعلمية . فإن معظم أهداف الإنسان في الحياة ، سواء في ميادين الحياة العملية التطبيقية من اجتماعية واقتصادية وسياسية ، أو في ميادين البحث العلمي ، تحتاج إلى إلى كثير من الوقت ، وكثير من الجهد حتى يمكن بلوغها وتحقيقها . ولذلك كانت المثابرة على بذل الجهد ، والصبر على معاناة العمل والبحث من الصفات الهامة الضرورية لبلوغ النجاح ، وتحقيق الأهداف .

والصبر والمثابرة مرتبطان بقوة الإرادة ، فالشخص الصابر قوي الإرادة ، لا تضعف عزيمته ، ولا تثبط همته مهما لقي من مصاعب وعقبات . وبقوة الإرادة يتمكن الإنسان من إنجاز الأعمال العظيمة ، وتحقيق الأهداف العالية .

« .. إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ »(٣)

---

(١) سورة العصر .

(٢) البقرة : ١٧٧ .

(٣) الأنفال : ٦٥ .

وإذا تعلم الإنسان الصبر على تحمل مشاق الحياة ، ومصائب الدهر ، والصبر على أذى الناس وعداوتهم ، والصبر على عبادة الله وطاعته ، وعلى مقاومة شهواته وانفعالاته ، والصبر على العمل والانتاج ، فإنه يصبح إنساناً ذا شخصية ناضجة متزنة متكاملة منتجة فعالة ، ويصبح عصياً على القلق ، وفي مأمن من الاضطرابات النفسية .

الذكر :

إن مواظبة المؤمن على ذكر الله تعالى بالتسبيح والتكبير والاستغفار والدعاء وتلاوة القرآن ، تؤدي إلى تزكية نفسه وصفاتها وشعورها بالأمن والطمأنينة .

« ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ »(١)

« فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ »(٢)

« وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ .. »(٣)

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « ذكر الله شفاء القلوب »(٤) . وعن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا يقعد قوم ويذكرون الله عزّ وجل إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ، ونزلت عليهم السكينة ، وذكرهم الله فيمن عنده » ، رواه مسلم وأبو داود والترمذي(٥) .

وحينما يداوم المسلم على ذكر الله تعالى ، فإنه يشعر بأنه قريب من الله تعالى ، وأنه في حمايته ورعايته ، ويبعث ذلك في نفسه الشعور بالثقة والقوة ، والشعور بالأمن والطمأنينة والسعادة . قال تعالى :

---

(١) الرعد : ٢٨ .

(٢) طه : ١٣٠ .

(٣) الإسراء : ٨٢ .

(٤) رواه الديلمي عن أنس . انظر حسن محمد الشرقاوي : نحو علم نفس إسلامي . الاسكندرية : الهيئة المصرية العامة للكتاب (د . ت) ، ص ٣٠٠ .

(٥) رواه ابن ماجه عن ابن سعيد . انظر حسن محمد الشرقاوي : المرجع السابق ، ص ٢٩٩ .

«فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ ..»[1]

ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام : «إن الله تعالى يقول أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه»[2] . ويقول أيضاً عليه الصلاة والسلام : «عليك بذكر الله وتلاوة كتاب الله فإنه نور في الأرض وذكر لك في السماء»[3] .

وذكر الله ، إذ يبعث في النفس الأمن والطمأنينة ، فهو بلا شك علاج للقلق الذي يشعر به الإنسان حينما يجد نفسه ضعيفاً عاجزاً أمام ضغوط الحياة وأخطارها ، لا سند له ولا معين .

«وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا ..»[4]

إن الذكر عبادة من أفضل العبادات[5] . قال الله تعالى في فضل الذكر .

«.. إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ ..»[6]

وفي الواقع إن جميع العبادات ذكر أو تساعد على الذكر . ففي الصلاة يقوم المصلي بتكبير الله ، وتلاوة القرآن ، وتسبيح الله راكعاً وساجداً ، وحمد الله والثناء عليه ، والصلاة على النبي . ثم يعقب الصلاة الاستغفار وتسبيح الله وحمده وتكبيره ،

وعن أبي موسى رضي الله عنه أن الرسول عليه الصلاة والسلام قال : «مثل البيت الذي يذكر الله فيه ، والبيت الذي لا يذكر الله فيه مثل الحي والميت» ، رواه الشيخان[7] .

---

(١) البقرة : ١٥٢ .

(٢) رواه الامام الشعراني في كشف الغمة . انظر حسن محمد الشرقاوي : المرجع السابق ، ٢٩٩ .

(٣) رواه أبو يعلى عن أبي سعيد . انظر حسن محمد الشرقاوي : المرجع السابق ، ص ٣٠٣ .

(٤) طه : ١٢٤ .

(٥) حسن محمد الشرقاوي : المرجع السابق ، ص ٢٢٨ ، ٢٢٩ .

(٦) العنكبوت : ٤٥ .

(٧) انظر منصور علي ناصف : التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، ط ٤ ، القاهرة : دار الفكر ، ١٩٧٥ ، جـ ١ ، ص ٣٣٢ ، وجـ ٥ ، ص ٨٧ .

والدعاء له . وكل ذلك ذكر [(١)] . وقد قال الله تعالى عن الصلاة :

« إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ » [(٢)]

وفي الصوم طاعة لله تعالى ، وابتعاد عما يغضبه ، وتعظيم له ، وشكر له على هدايته . وكل ذلك ذكر . وقد قال الله تعالى عن الصوم :

« .. وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ » [(٣)]

وفي الحج يتفرغ المسلم للصلاة والدعاء والابتهال لله والقيام بمناسك الحج . وكل ذلك ذكر . وقد قال الله تعالى عن الحج :

« وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ۝ لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ .. » [(٤)]

وقال تعالى عن رمي الجمار [(٥)] :

« وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖ .. » [(٦)]

والمؤمن الذي يريد أن يسير في طريق التقرب إلى الله تعالى لا يكتفي بذكر الله كل يوم أثناء الصلاة فقط ، وإنما يقوم أيضاً بذكر الله كثيراً خارج الصلاة ، وذلك بالإكثار من التسبيح والتكبير والابتهال والدعاء . وإن التقرب إلى الله تعالى عن طريق العبادات وتلاوة القرآن والأوراد والأدعية إنما يعمل على تعميق الإيمان في القلب ، وبث الشعور بالأمن والسكينة في النفس .

---

(١) سعيد حوى : مرجع سابق ، ص ٢٢٨ – ٢٣١ .
(٢) طه : ١٤ .
(٣) البقرة : ١٨٥ .
(٤) الحج : ٢٧ ، ٢٨ .
(٥) سعيد حوى : مرجع سابق ، ص ٢٢٨ ، ٢٢٩ .
(٦) البقرة : ٢٠٣ .

التوبة :

إن الشعور بالذنب يسبب للإنسان الشعور بالنقص والقلق ، مما يؤدي إلى نشوء أعراض الأمراض النفسية . ويهتم العلاج النفسي ، في مثل هذه الحالات ، بتغيير وجهة نظر المريض عن خبراته السابقة التي سببت له الشعور بالذنب ، فيراها في ضوء جديد بحيث لا يرى فيها ما يبرر الاستمرار في شعوره بالذنب وشعوره بالنقص ، فيخف تأنيبه لنفسه ، ويصبح أكثر تقبلاً لذاته ، فيزول قلقه وأعراض مرضه النفسي .

ويمدنا القرآن بأسلوب فريد وناجح في علاج الشعور بالذنب ، ألا وهو التوبة . فالتوبة إلى الله سبحانه وتعالى تغفر الذنوب ، وتقوي في الإنسان الأمل في رضوان الله ، فتخف حدة قلقه . ثم إن التوبة تدفع الإنسان عادة إلى إصلاح الذات وتقويمها حتى لا يقع مرة أخرى في الأخطاء والمعاصي ، ويساعد ذلك على زيادة تقدير الإنسان لنفسه ، وزيادة ثقته فيها ، ورضائه عنها ، ويؤدي ذلك إلى بث الشعور بالأمن والطمأنينة في نفسه .

« قُلْ يَـٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ »[1]

« وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا »[2]

« إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ .. »[3]

« إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَـٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا »[4]

---

(١) الزمر : ٥٣ .

(٢) النساء : ١١٠ .

(٣) النساء : ٤٨ .

(٤) النساء : ١٧ .

« فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ »(1)

« وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ »(2)

« وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ »(3)

« وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ »(4)

« وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ »(5)

إن إيمان المسلم بأن الله جل شأنه يقبل التوبة ويغفر الذنوب ، وأن الله سبحانه وتعالى لا يخلف وعده ، إنما يدفعه إلى الاستغفار والتوبة ، والابتعاد عن ارتكاب المعاصي أملاً في مغفرة الله ورضوانه . وإذا تاب المسلم توبة نصوحاً ، والتزم بطاعة الله وعبادته وبالعمل الصالح ، ارتاح باله ، واطمأنت نفسه ، وزال عنه الشعور بالذنب الذي يسبب القلق واضطراب الشخصية .

وهكذا استطاع القرآن أن يعالج نفوس العرب ، ويحدث تغييراً كبيراً في شخصياتهم بالاستعانة بعدة أساليب :

---

(1) المائدة : ٣٩ .
(2) الانعام : ٥٤ .
(3) الأعراف : ١٥٣ .
(4) طه : ٨٢ .
(5) آل عمران : ١٣٥ ، ١٣٦ .

أولاً : بث الإيمان بعقيدة التوحيد في نفوسهم ، وغرس بذور التقوى في قلوبهم ، بكل ما يؤدي إليه ذلك من نتائج بالغة الأهمية في تقويم شخصياتهم وسلوكهم .

ثانياً : فرض العبادات المختلفة التي ساعدت على تخليهم عن كثير من عاداتهم السيئة السابقة ، وتحليهم بكثير من العادات والخصال الحميدة التي ساعدت على تكوين شخصياتهم تكويناً سوياً متزناً متكاملاً .

ثالثاً : حثهم على تعلم الصبر ، وهي خصلة تساعد على تحمل مشاق الحياة بنفس راضية ، وتقلل من احتمالات التوتر والضيق والشعور بالهم والقلق .

رابعاً : حثهم على المواظبة على ذكر الله مما يشعر الإنسان أنه قريب من الله تعالى ، وفي حمايته ورعايته ، فيغمره الشعور بالأمن والطمأنينة .

خامساً : حثهم على الاستغفار والتوبة مما يساعد على التخلص من القلق الناشئ عن الشعور بالذنب .

سادساً : استخدام مجموعة من الأساليب الفعالة في تعديل السلوك مثل أسلوب التدرج في تعديل السلوك الذي استخدمه القرآن في علاج تعاطي الخمر والربا ، وأسلوب إثارة الدافع بالترغيب والترهيب ، وبالقصص ، وبالاستعانة بالأحداث الجارية ، وأسلوب المشاركة الفعالة ، وأسلوب توزيع التعلم ، وهي الأساليب التي شرحناها بالتفصيل في الفصل الخامس الخاص بالتعلم تحت عنوان «مبادئ التعلم في القرآن» .

بكل هذه الأساليب نجح القرآن في علاج نواحي الضعف في شخصيات المسلمين ، وفي غرس الخصال الحميدة في نفوسهم مما ساعد على تكوين شخصياتهم تكويناً سوياً متزناً متكاملاً ، وكان له أكبر الأثر في إحداث تغييرات بالغة الأهمية في جميع نواحي الحياة في المجتمع العربي في شبه الجزيرة العربية ، وفي المجتمع الإسلامي في العالم بأسره .

المراجع

١ – القرآن الكريم .

٢ – إبراهيم دسوقي مرعي : الطفولة في الإسلام . القاهرة : دار الاعتصام ، ١٩٧٩ .

٣ – أبو الحسن مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري : صحيح مسلم بشرح النووي . القاهرة : المطبعة المصرية ومكتبتها ، (د. ت) .

٤ – أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي : روح المعاني في تفسير القرآن . القاهرة : المطبعة الأميرية ببولاق ، ١٣٠١ هـ .

٥ – أبو القاسم الحسن بن محمد المفضل الراغب الأصفهاني : كتاب تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين ، بيروت ، ١٣١٩ هـ (بدون اسم الناشر) .

٦ – أبو حامد محمد بن محمد الغزالي : معارج القدس في مدارج معرفة النفس ، ط ٢ . بيروت : دار الآفاق الجديدة ، ١٩٧٥ .

٧ – أبو حامد محمد بن محمد الغزالي : إحياء علوم الدين ، القاهرة : دار الشعب ، (د. ت) .

٨ – أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي : الجامع لأحكام القرآن . القاهرة : دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، ١٩٦٧ .

٩ – أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب : الأخلاق والسير في مداواة النفوس . بيروت : دار الآفاق الجديدة ، ١٩٧٨ .

١٠ – أحمد محمد جمال : نحو تربيه إسلامية . جدة : تهامة ، ١٩٨٠ .

١١ – أحمد محمد فارس : النماذج الإنسانية في القرآن الكريم . بيروت : دار الفكر ، (د. ت) .

١٢ – إريك فروم : الدين والتحليل النفسي ، ترجمة فؤاد كامل . القاهرة : مكتبة غريب ، ١٩٧٧ .

١٣ – أسامة محمد الراضي : الإسلام وأمراض العصر . ندوة علم النفس والإسلام ، كلية التربية بجامعة الرياض (مطبوع على الآلة الكاتبة) ، المجلد الأول ، ١٩٧٨ .
١٤ – أنور الجندي : مفاهيم العلوم الاجتماعية والنفس والأخلاق في ضوء الإسلام . القاهرة : دار الاعتصام ، ١٩٧٧ .
١٥ – البهي الخولي : آدم عليه السلام ، فلسفة تقويم الإنسان وخلافته ، ط ٣ . القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٩٧٤ .
١٦ – الحافظ أبو الفضل شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد العسقلاني الشافعي : فتح الباري بشرح صحيح البخاري .
القاهرة : مكتبة الكليات الأزهرية ، ١٩٧٨ .
١٧ – الحافظ المنذري : مختصر صحيح مسلم . تحقيق ناصر الدين الألباني ، ط ٣ . بيروت : المكتب الإسلامي ، ١٩٧٧ .
١٨ – الحافظ عماد الدين أبو الفداء اسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي : تفسير القرآن العظيم . القاهرة : دار إحياء الكتب العربية لعيسى البابي الحلبي وشركاه ، (د. ت) ؛ وكذلك : بيروت : دار المعرفة ، ١٩٨٠ .
١٩ – السيد سابق : فقه السنة ، المجلد الأول . بيروت : دار الكتاب العربي ، (د. ت) .
٢٠ – الكسيس كاريل : الإنسان ذلك المجهول ، ط ٣ ، ترجمة شفيق أسعد فريد . بيروت : مكتبة المعارف ، ١٩٨٠ .
٢١ – جلال الدين محمد بن أحمد المحلي وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي : القرآن الكريم تفسير الجلالين ، بيروت : دار الكتب الدينية (د. ت) .
٢٢ – المنتخب في تفسير القرآن الكريم : المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بوزارة الأوقاف بجمهورية مصر العربية ، ط ٧ ، ١٩٧٩ .
٢٣ – جمال ماضي أبو العزائم : القرآن وعلم النفس . ندوة علم النفس والإسلام ، كلية التربية بجامعة الرياض (مطبوع على الآلة الكاتبة) ، المجلد الأول ، ١٩٧٨ .

٢٤ – جوليان روتر : علم النفس الإكلينيكي ، ترجمة عطية محمود هنا ، ومراجعة محمد عثمان نجاتي . الكويت : دار القلم ، ١٩٧٧ .
٢٥ – مصطفى الرافعي : الإسلام ومشكلات العصر . بيروت : دار الكتاب اللبناني ، ١٩٧٢ .
٢٦ – حامد عبد العزيز الفقي : دراسات في سيكولوجية النمو . الكويت ، ١٩٧٧ .
٢٧ – حسن محمد الشرقاوي : نحو علم نفس إسلامي . الإسكندرية : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، (د. ت) .
٢٨ – ديل كارنيجي : دع القلق وابدأ الحياة ، ترجمة عبد المنعم الزيادي ، ط ٥ . القاهرة : مكتبة الخانجي ، ١٩٥٦ .
٢٩ – روبرت هاربر : التحليل النفسي والعلاج النفسي ، ترجمة سعد جلال . القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٤ .
٣٠ – ريتشارد لازاروس : الشخصية ، ترجمة سيد محمد غنيم ، ومراجعة محمد عثمان نجاتي . بيروت : دار الشروق ، ١٩٨١ .
٣١ – ريتشارد م . شوين : علم الأمراض النفسية والعقلية ، ترجمة أحمد عبد العزيز سلامة . القاهرة : دار النهضة العربية ، ١٩٧٩ .
٣٢ – سارنوف أ . مدنيك ، هوارد ر . بوليو ، اليزابت ف . لوفتاس : التعلم ، ترجمة محمد عماد الدين اسماعيل ، ومراجعة محمد عثمان نجاتي . بيروت : دار الشروق ، ١٩٨١ .
٣٣ – سعيد حوي : تربيتنا الروحية ، ط ٢ . القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٩٧٩ .
٣٤ – سيجمند فرويد : معالم التحليل النفساني ، ترجمة محمد عثمان نجاتي ، ط ٤ . القاهرة : دار النهضة العربية ، ١٩٦٦ .
٣٥ – سيجمند فرويد : الذات والغرائز ، ترجمة محمد عثمان نجاتي ، ط ٣ . القاهرة : مكتبة النهضة العربية ، ١٩٦١ .
٣٦ – سيد قطب : التصوير الفني في القرآن ، ط ٣ . القاهرة : دار المعارف ١٩٧٥ .
٣٧ – سيرل بيرت : علم النفس الديني ، ترجمة سمير عبده . دمشق : دار دمشق للطباعة والنشر ، (د . ت) .

٣٨ – شيلدون كاشدان : علم نفس الشواذ ، ترجمة أحمد عبد العزيز سلامة ، ومراجعة محمد عثمان نجاتي . الكويت : دار القلم ، ١٩٧٧ .

٣٩ – عباس محمود العقاد : عبقرية عمر . بيروت : دار الكتاب العربي ، ١٩٦٩ .

٤٠ – عبد الرزاق نوفل : القرآن والعلم الحديث . بيروت : دار الكتاب العربي ، ١٩٧٣ .

٤١ – عبد الغني عبود : الإنسان في الإسلام والإنسان المعاصر . القاهرة : دار الفكر العربي ، ١٩٧٨ .

٤٢ – عبد الفتاح جلال : من الأصول التربوية في الإسلام . سرس الليان بمصر : المركز الدولي للتعليم الوظيفي للكبار في العالم العربي ، ١٩٠٠ .

٤٣ – عبد الوهاب حمودة : القرآن وعلم النفس . القاهرة : دار القلم ، ١٩٦٢ .

٤٤ – علي الصابوني : مختصر تفسير ابن كثير . بيروت : دار القرآن ، ١٩٠٠ .

٤٥ – علي عبد العظيم : فلسفة التربية في القرآن الكريم . القاهرة : مجتمع البحوث الإسلامية ، ١٩٧٣ .

٤٦ – فخر الدين محمد بن عمر الرازي : كتاب النفس والروح وشرح قواهما . تحقيق محمد صغير حسن المعصومي . من منشورات معهد الأبحاث الإسلامية بكراتشي ، (د . ت) .

٤٧ – فؤاد البهي السيد : الأسس النفسية للنمو ، ط ٤ . القاهرة : دار الفكر الفكر العربي ، ١٩٧٥ .

٤٨ – محمد اسماعيل ابراهيم : القرآن وإعجازه العلمي . القاهرة : دار الكتاب العربي ، ١٩٧٧ .

٤٩ – محمد البهي : الإسلام في حياة المسلم ، ط ٢ . القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٩٧٣ .

٥٠ – محمد الصادق عفيفي : الفكر الإسلامي : مبادئه ، مناهجه ، قيمه ، أخلاقياته . القاهرة : مكتبة الخانجي ، (د. ت) .

٥١ – محمد الغزالي : الجانب العاطفي من الإسلام ، بحث في الخلق والسلوك والتصوف . القاهرة : دار الكتب الحديثة ، (د . ت) .

٥٢ — محمد بن سيرين : منتخب الكلام في تفسير الأحلام ، بهامش كتاب تعطير الأنام في تعبير المنام لعبد الغني النابلسي . مصر ، ١٣٤٧ هـ .
٥٣ — محمد جواد مغنية : فلسفة الأخلاق في الإسلام . بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٧٧ .
٥٤ — محمد رشيد رضا : تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار . القاهرة : دار المنار ، ١٣٧٣ هـ .
٥٥ — محمد سعيد رمضان البوطي : منهج تربوي فريد في القرآن . مجلة الوعي الإسلامي (الكويت) ، السنة السابعة ، العدد ٨١ ، اكتوبر ١٩٧١ .
٥٦ — محمد شديد : منهج القرآن في التربية . بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٩٧٩ .
٥٧ — محمد قطب : في النفس والمجتمع ، ط ٢ . القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٩٦٢ .
٥٨ — محمد قطب : الإنسان بين المادية والإسلام ، ط ٣ . القاهرة : عيسى البابي الحلبي وشركاه ، ١٩٦٠ .
٥٩ — محمد قطب : دراسات في النفس الإنسانية . بيروت : دار الشروق ، ١٩٧٩ .
٦٠ — محمد قطب : منهج التربية الإسلامية ، ط ٢ . بيروت : دار الشروق ، (د . ت) .
٦١ — محمد عثمان نجاتي : الإدراك الحسي عند ابن سينا ، بحث في علم النفس عند العرب ، ط ٣ . بيروت : دار الشروق ، ١٩٨٠ .
٦٢ — محمد عثمان نجاتي : علم النفس في حياتنا اليومية ، ط ١١ . الكويت : دار القلم ، ١٩٨٤ .
٦٣ — محمد علي التسخيري : التوازن في الإسلام . بيروت : الدار الإسلامية ، ١٩٧٩ .
٦٤ — محمد متولي الشعراوي : معجزة القرآن ، جـ ١ . القاهرة : كتاب اليوم ، ١٩٨٠ .
٦٥ — محمود شلبي : حياة آدم ، ط ٢ . بيروت : دار الجيل ، (د . ت) .

٦٦ – منصور علي ناصف : التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم . ط ٤ ، القاهرة : دار الفكر ، ١٩٧٥ .
يوسف القرضاوي : الإيمان والحياة . ط ٦ . القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٩٧٨ .

المراجع الأجنبية

1. Adler Alfred: *Understanding Human Nature*. New York: Greenberg Publishers, Inc., 1927.
2. Cannon, W.B.: *The Wisdom of the Body*. New York: Norton, 1932.
3. Jung, Carl. G.: *Modern Man In Search of A Soul*. London; Routledge & Kegan Paul, Ltd., 1966.
4. Lindzey, G., Hall, C. S. and Thompson, R.F.: *Psychology*. New York: Worth Publishers, Inc., 1976.
5. May, Rollo: *The Meaning of Anxiety*. New York: The Ronald Press Co., 1950.
6. Morris, Charles G.: *Psychology, An Introduction*. 3rd ed., Englewood Cliffs, New Jersey: Prentice-Hall, Inc., 1979.

للمؤلف

- الإدراك الحسي عند ابن سينا : بحث في علم النفس عند العرب .
  الطبعة الثالثة
  بيروت : دار الشروق ، ١٩٨٠ .
- علم النفس في حياتنا اليومية :
  الطبعة الحادية عشرة .
  الكويت : دار القلم . ١٩٨٤ .
- علم النفس الصناعي :
  الطبعة الثالثة
  الكويت : مؤسسة الصباح ، ١٩٨٠ .
- المدينة الحديثة وتسامح الوالدين :
  الطبعة الثانية .
  القاهرة : دار النهضة العربية ، ١٩٧٤ .
- علم النفس الحربي :
  الطبعة الثالثة .
  القاهرة : دار النهضة العربية ، ١٩٦٠ (نفد) .
- ملامح جريمة القتل :
  بالاشتراك مع آخرين
  من منشورات المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية
  القاهرة ، ١٩٧١ .

مكتبة التحليل النفسي والعلاج النفسي

بإشراف الدكتور محمد عثمان نجاتي

- معالم التحليل النفسي :

تأليف سيجمند فرويد ، ترجمة محمد عثمان نجاتي .

الطبعة الخامسة ، بيروت : دار الشروق ، ١٩٨٢ .

- الأنا والهو :

تأليف سيجمند فرويد ، ترجمة محمد عثمان نجاتي .

الطبعة الرابعة ، بيروت : دار الشروق ، ١٩٨٢ .

- الكف والعَرَض والقلق

تأليف سيجمند فرويد ، ترجمة محمد عثمان نجاتي .

الطبعة الثالثة ، بيروت : دار الشروق ، ١٩٨٢ .

- ثلاث رسائل في نظرية الجنس :

تأليف سيجمند فرويد ، ترجمة محمد عثمان نجاتي .

الطبعة الثانية ، بيروت : دار الشروق ، ١٩٨٥

دار الشروق

مكتبة أصول علم النفس الحديث

يشرف على ترجمتها
الدكتور محمد عثمان نجاتي

صدر منها:

- علم النفس الإكلينيكي: تأليف جوليان ب. روتر
  ترجمة الدكتور عطية محمود هنا.
  أستاذ علم النفس بجامعة عين شمس
  وجامعة الكـويت.
  الطبعة الثانية، ١٩٨٤

- علم نفس الشـواذ: تأليف شيلدون كاشدان
  ترجمة الدكتور أحمد عبد العزيز سلامة.
  أستاذ علم النفس بجامعة الأزهر وجامعة الرياض.
  الطبعة الثانية، ١٩٨٤

- الشـــخصية: تأليف ريتشارد س. لازاروس
  ترجمة الدكتور سيد محمد غنيم.
  أستاذ علم النفس بجامعة عين شمس
  وجامعة الامارات العربية.
  الطبعة الثانية، ١٩٨٤

- التعـــلم: تأليف سارنوف د. ميدنيك، وهوارد د. پوليو، واليزابت ف. لوفتاس.
  ترجمة الدكتور محمد عماد الدين اسماعيل،
  أستاذ علم النفس بجامعة عين شمس وجامعة الكويت.
  الطبعة الثانية، ١٩٨٤

- الاختبارات والمقاييس: تأليف ليونا أ. تايلر
  ترجمة الدكتور سعد عبد الرحمن
  أستاذ علم النفس بجامعة الكويت
  الطبعة الأولى، ١٩٨٣

دار الشروق بيروت

